المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية اللغة العربية
قسم الدراسات العليا
فرع الأدب

الرثاء في شعر لبيد بن ربيعة

دراسة موضوعية وفنية

رسالة مقدمة لإكمال متطلبات درجة الماجستير في قسم الأدب العربي

إعداد الباحث

نايف بن مساعد العتيبي

٤٣١٨٨٣٥٣

إشراف سعادة الأستاذ الدكتور

مصطفى بن حسين عناية

١٤٣٣هـ - ١٤٣٤هـ

الإهــداء

إلى والديّ أبي وأمي

إلى زوجتي وأطفالي ريماس وخالد الذي ولد ونشأ في أثناء مدة البحث

إلى إخواني وأخواتي

أُهدي هذا العمل المتواضع

شكر وتقدير

بعد أن تم بعون الله تعالى إنجاز هذا البحث ، يسعني أن أتقدم بخالص الشكر والامتنان إلى أستاذي ، الأستاذ الدكتور مصطفى عناية الذي تعهد البحث والباحث بالرعاية والاهتمام والتشجيع ، والذي عرفت فيه خلق العالم في جدية البحث ، والصبر في معالجة الأمور ، والتأني في إصدار الأحكام ، فله مني خالص المحبة والتقدير .

وأتقدم بالشكر والعرفان لرئيس قسم الدراسات العليا العربية الأستاذ الدكتور محمد الدغريري على حسن خلقه وتواضعه حيث كان قريباً منا يتلمس حوائجنا ، فله مني جزيل الشكر .

وأخيراً أتوجه بالشكر والامتنان لأعضاء لجنة المناقشة ، مقدراً لهم ما سينفقونه من وقت وجهد في تقويم هذه الرسالة وتقييمها ، وما سيتفضلون به من توجيه وإرشاد سيكونان محل عنايتي ، بإذن الله

والحمد الله الذي بنعمته تتم الصالحات

الملخص

الرثاء في شعر لبيد بن ربيعة دراسة موضوعية وفنية

إعداد

نايف بن مساعد العتيبي

المشرف

أ.د مصطفى بن حسين عناية

تناولت هذه الدراسة الرثاء في شعر لبيد ، واعتمدت على ديوان لبيد الذي جمعه وحققه الدكتور إحسان عباس .

وقد قمت بدراسة شعر الرثاء في هذا الديوان ، فقسمت الدراسة إلى مقدمة وتمهيد وفصلين .

أما الفصل الأول فقد تحدثت فيه عن الدراسة الموضوعية ، وقد انقسم إلى أربعة مباحث ، وقد اختص المبحث الأول برثاء الأخ وأهميته ومكانته في الشعر العربي ، وعوامل ازدهاره ودواعيه ، وشهرة لبيد فيه ، وقيم تأبين أخيه ، أما المبحث الثاني فقد أختص برثاء الأهل والعشيرة بقسميه الجماعي والفردي ، والمبحث الثالث عُني برثاء الملك النعمان بن المنذر ، والمبحث الرابع خاص برثاء النفس .

أما الفصل الثاني فقد خصص للدراسة الفنية وجاء في أربعة مباحث ، المبحث الأول الصورة الفنية ، والمبحث الثاني بناء القصيدة ، والمبحث الثالث اللغة ، والمبحث الرابع الموسيقى .

أما الخاتمة فقد عرضت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة .

Abstract

Lamentation in poetry of Lubaid bin Rabia substantive and technical study.

This study is about the Lamentation in the Poetry of Lubaid bin Rabia, I relied on divan of poems of Lubaid bin Rabia which compiled by Dr. Ihsan Abbas.

The method which I adopted analytical method and descriptive method. And I studied the lamentation poetry in this collection of poems, I divided I studied Lamentation poetry in this divan, then, I divided it into introduction and two chapters.

The first chapter I tlked about Substantive study, I divided it into four researches, the first research is about Brother Lament and its importance in Arab poetry, prosperity of factors and their motive, the famous of Lubaid on it, and the memorial values of his brother's. The second research is about the family and the tribe Lamentation collective and Individual. The third research is about lamentation concerning the King AlNuman bin Monther. The fourth research is about self lamentation.

The Second chapter, I have allocated to technical study into four researches. The first research is about technical picture. The second research is about poem constructing. The third research is about the language. The fourth research is about the Music.

The conclusion I introduced the most important results of the research.

المقدمة

الحمد الله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين أما بعد :

فعندما تتحقق أمنية من أماني الإنسان يفرح لذلك وتشيع في نفسه روح الثقة والاطمئنان ، ويصل هذه الفرح والسرور إلى أعلى درجاته إذ كان اليأس قد دبّ إلى قلبه في يوم من الأيام .

قبل بضع سنوات كنت طالباً في كلية اللغة العربية بجامعة أم القرى ، وكنت من مُحبيّ النحو والصرف ، ولكن عندما درست مقرر الأدب العباسي الأول عند الأستاذ الدكتور مصطفى عناية ، تبدل حالي من مُحبي النحو والصرف إلى مُحبيّ الأدب ؛ وذلك لأن أسلوب الأستاذ الدكتور مصطفى عناية كان دافعاً لي في مواصلة دراسة الأدب والتوسع فيه ولا زلت أتذكر كلماته عندما كان يشرح لنا المقرر في إحدى محاضراته ؛ بل ما زلت محتفظاً بمحاضراته في مكتبتي الخاصة . وظلت فكرة دراسة الأدب أملاً تراودني حتى شاء الله أن تتحقق هذه الأمنية بمواصلة دراستي العليا في كلية اللغة العربية بجامعة أم القرى .

كنت في حيرة من أمري وأنا أبحث عن موضوع لرسالة الماجستير إلى أن وقع اختياري على هذا الجانب الحزين من جوانب العاطفة الإنسانية ، وهو : " الرثاء في شعر لبيد بن ربيعة دراسة موضوعية وفنية " وذلك لعدة أمور :

١- أن الشعر الجاهلي أساس الأدب العربي كله ، وعنوان فحولته وأصالته ، شغل به العلماء والأدباء من القدماء والمحدثين ، ولن تستطيع أن تنفذ إلى عبقرية الإنسان الجاهلي إذا لم تحط بشعره القديم فهماً وعلماً . ولبيد بن ربيعة من أضخم الجاهليين شعراً وأطولهم حياة وأكثرهم فحولة ، ودراسة شاعر جاهلي كبير يصور شعره الفترة

الطويلة التي عاشها ، فهو يجمع بين تراث الجاهلية وتراث الإسلام ، ويحمل في طياته مثل الجاهلية والإسلام .

٢- لتميزه في هذا الجانب ، حيث أشار النقاد والأدباء إلى طول باعه في الشعر وبشكل خاص في المراثي .

٣- عدم اهتمام الباحثين لشعر الرثاء عند لبيد بن ربيعة بإبراز هذا الفن الشعري ، واكتفاؤهم بالإشارة العابرة إليه في صفحات بعض الكتب باعتباره فناً شعرياً من جملة الفنون الشعرية التي قال فيها لبيد بن ربيعة شعره .

٤- أن فن الرثاء من أصدق الفنون الشعرية ؛ لأنه يعرض لأهم قضية تواجه الإنســـان ، وهي قضية الموت .

أما المنهج الذي اتبعه الباحث في هذا الرسالة ، فهو تصنيف قصائد الرثاء في الديوان ، وتناولها حسب الأشخاص الذين ذكرهم الشاعر ، وحسب المعاني والأفكار التي عرض لها الشاعر ، وقد اعتمد الباحث المنهج الوصفي التحليلي الذي يستنطق النصوص ، جاعلاً لنتائج تحليل النصوص الأهمية الأولى في إطلاق الأحكام ، مستعيناً بما يتصل بالنص من قيم تاريخية أو إجتماعية أو دينية ، مما يزيد في دقة الحكم .

وقد جاءت هذه الدراسة في مقدمة وتمهيد وفصلين ، اختص الفصل الأول بالدراسة الموضوعية ، أما الفصل الثاني فقد اختص بالدراسة الفنية .

فأما المقدمة فقد تحدث فيها عن سبب اختيار الموضوع ، والدراسات السابقة ، والخطة التي اقتضتها طبيعة البحث ، والمنهج الذي اعتمد عليه .

أما الفصل الأول فقد انقسم إلى أربعة مباحث ، فالمبحث الأول فقد اختص برثاء الأخ وقد قدمت هذا المبحث وأفردته لقوة ارتباط الشاعر بمن يرثيه (الأخ) . والمبحث الثاني اختص برثاء الأهل والعشيرة ، وينقسم إلى قسمين : رثاء جماعي يبكي فيه مجموعة من أقربائه كأبيه وأعمامه وأبناء أعمامه ورجال من قبيلته ، ورثاء فردي مخصص على أفراد بأعيانهم ، أما المبحث الثالث فقد خصص لرثاء الملك النعمان بن المنذر ، وعرض المبحث الأخير إلى رثاء النفس .

أما الفصل الثاني فقد عرض للدراسة الفنية في أربعة مباحث تناول الصورة الفنية وبناء القصيدة ، وألقيت الضوء على لغة شعره وألفاظه ومعانيه ، وموسيقى شعره .

وأما الخاتمة فقد أوردت فيها ما انتهى إليه الباحث من نتائج .

لم يعثر الباحث على دراسة واحدة بالعنوان نفسه الذي طرحته هذه الدراسة ، ولكن ربما أشارت بعض الدراسات إلى الرثاء عند لبيد بن ربيعة .

ومن هذه الدراسات :

١- لبيد بن ربيعة العامري للدكتور يحيى الجبوري ، التي أفادتني بالتعرف على حياة لبيد وتفهم شعره وأوقفني على أهم السمات الفنية في شعره .

٢- لبيد بن ربيعة العامري شاعر جاهلي أدرك الإسلام للدكتور يحيى الشامي .

٣- تاريخ الأدب العربي العصر الإسلامي ، للدكتور شوقي ضيف ، فقد تحدث عن لبيد بن ربيعة في الفصل الرابع .

ومن الدراسات التي تناولت شعر لبيد :

١- الأساليب الإنشائية في شعر لبيد بن ربيعة ، بدرية منور العتيبي ، جامعة أم القرى ، ماجستير في البلاغة ، ١٤٢٩هـ

٢- لبيد بن ربيعة ، حياته وشعره ، أحمد محمد أبو عريبان ، جامعة الأزهر ، ماجستير في الأدب ١٣٩٧هـ

ومن الدراسات التي لم يتوصل إليها الباحث :

١- الصورة الفنية في شعر لبيد بن ربيعة ، صلاح مصيلحي ، جامعة القاهرة ، ماجستير في الأدب ، ١٩٨٠م

علماً بأنني راسلت الدكتور صلاح مصيلحي ، عبر البريد الالكتروني ، ولم يرد علي ، ربما بسبب ظروفه العلمية .

أما مصادر الدراسة ، فمتعددة ، وفي مقدمتها ديوان لبيد بن ربيعة بتحقيق الدكتور إحسان عباس . وكان للمصادر الأدبية التي تناولت الرثاء بعامة دورها في هذه الدراسة مثل كتاب فن الرثاء للدكتور شوقي ضيف ، رثاء الأبناء في الشعر العربي لمخيمير صالح ورثاء النفس للدكتور عبدالله باقازي وغيرها .

وعند حديثي عن الدراسة الفنية لجأت إلى كتب البلاغة القديمة مثل البديع لعبدالله بن المعتز ، وأسرار البلاغة ودلائل الإعجاز للجرجاني ، والإيضاح للخطيب القزويني ، أما كتب البلاغة الحديثة فقد انتفعت بالعديد منها ككتاب بغية الإيضاح للصعيدي ، والألوان البديعية لحمزة زغلول ، وغير ذلك من المصادر والمراجع التي وفرت لي قدراً كبيراً من المعرفة .

وقد اضطرتني هذه الدراسة إلى كتب الحديث كالصحيحين ، وكتب السيرة والتراجم كسيرة ابن هشام والإصابة ، وكتب التاريخ مثل تاريخ الطبري .

ولا يفوتني هنا أن أزجي خالص شكري وتقدير لسعادة أستاذي الدكتور مصطفى عناية المشرف على هذه الرسالة ، فقد كان له الفضل – بعد الله – في الأخذ بيدي منذ كان البحث فكرة ، وكانت توجيهاته السديدة وآراؤه الصائبة خير عون لي للمضي قدماً في بناء بحثي هذا حتى وصل إلى صورة مرضية . فلست أملك إزاء ما قدمه لي ولبحثي هذا من علم واع ، وأستاذيه أبويه كريمة حقة ، وصدر رحب ، إلا الدعاء له بالصحة والعافية ، وأن يجزيه عني خير الجزاء ، وأن يجعلني ممن يحسنون له الوفاء ما حييت ، إنه سميع الدعاء .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين محمد بن عبدالله ، وعلى آله وصحبه ، ومن اهتدى بهدية إلى يوم الدين .

تمهيد

لبيد بن ربيعة العامري

هو لبيد بن ربيعة بن مالك بن جعفر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور من عكرمة بن خصفة بن قيس بن غيلان بن مضر . و يكنى أبو عقيل .[1]

أبو لبيد ، ربيعة بن مالك ، لقب بربيع المقترين ؛ لسخائه وجوده وكرمه ، كان سيداً في قومه . قتلته بنو أسد في يوم ذي علق الذي كان بينها وبين قومه ، ولم يكن لبيد قد تجاوز سنّ الطفولة .[2]

أما نَسَبُه من أمه ، فأسمها تامره بنت زنباع العبسي ، إحدى بنات جذيمة بن رواحة ، ونشأت يتيمة ، وقد تزوجت قيس بن جزع ، فولدت له أربد ، ومن بعد قيس تزوجت بربيعة ، فولدت له لبيد .

وقد تزوج لبيد بزوجة أنجبت له ابنتين بسرة ، وأسماء .

ويظهر أن الفصاحة والشعر ظهرا على لبيد وهو صغير ، حيث وفد بنو عامر على الملك النعمان بن المنذر ، وكان الربيع بن زياد العبسي أحد أعداء بنو عامر ، معه ينادمه على الشراب ، فحمل الملك على عدم الاكتراث لمقدم بني عامر إليه .

فانبرى له لبيد بالهجاء ، بعد أن أستأذن سادة قومه ، في مجلس الملك فكان لهذا الهجاء وقع في نفس الملك فطرد عدو قومه ، واحتفى بمقدمهم .[3]

كان لبيد رجلاً كريماً وفارساً شجاعاً ، وشاعراً مجوداً وحكيماً ذا خلق ومرؤه ، وكان " من أشرف الشعراء المجيدين الفرسان القراء المعمرين " .[4] فقد كان خير شاعر لقومه فهو الذي يمدحوهم ويذكر مأثرهم ، ويرثي موتاهم ويعدد أيامهم ومأثرهم ، ووقائعهم ويفاخر الناس بمآتيهم .

---

[1] الأغاني ، لأبي الفرج الأصفهاني ، تحقيق : عبدالستار أحمد فراج ، الدار التونسية للنشر ، تونس ، د ط ، ١٩٨٣م ، ٢٨٩/١٥ .
[2] نفسه ، ٢٨٩/١٥ .
[3] المصدر نفسه ، ٢٩١/١٥
[4] المصدر نفسه ، ٢٩٠/١٥

ورث لبيد عن أبيه الجود والسخاء ، فقد ذكر أنه نذر في الجاهلية أن لا تهب صباً إلا أطعم ، واستمر عليه في الإسلام حيث كانت له جفنتان يغدو بهما في كل يوم على مسجد قومه في الكوفة فيطعمهم ، وهبت الصبا يوماً والوليد بن عقبة أميرها في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه ، فصعد المنبر فخطب الناس ثم قال : إن أخاكم أبا عقيل قد نذر في الجاهلية ألا تهب صباً إلا أطعم ، وهذا يوم من أيامه وقد هبت صباً فأعينوه ، ثم أنصرف الوليد فبعث إليه بمائة من الجذور وكتب إليه بأبيات منها :

أرى الجـــزار يشـــحذ شـــفرتيه إذا هبـــت ريـــاح أبـــي عقيـــل
أشـــم الأنـــف أصـــيد عـــامري طويـــل البـــاع كالســـيف الصـــقيل[1]

ولبيد أحد الشعراء المعمرين المخضرمين ، قيل أنه عمر مئة وخمسة وأربعين سنة . توفي في أول خلافة معاوية سنة أربعين أو إحدى وأربعين سنة .[2]

[1] الأغاني ، ٢٩٢/١٥
[2] المصدر نفسه ، ٢٩٦/١٥

الفصل الأول

الدراسة الموضوعية

- رثاء الأخ
- رثاء الأهل والعشيرة
- رثاء الملك النعمان بن المنذر
- رثاء النفس

المبحث الأول

- رثاء الأخ

- منزلة الأخ وأهميته
- مكانة رثاء الأخ في الشعر العربي
- أسباب وازدهار رثاء الأخ
- دواعي رثاء الأخ
- مكانة لبيد بن ربيعة بين الشعراء
- أهمية الأخ عند لبيد
- قيم تأبين أخيه

  - الكرم
  - الشجاعة
  - حق الجار وحمايته

- موقف لبيد من الموت
- الصبر
- العزاء

  - نماذج العزاء في مظاهر الحياة الإنسانية
  - نماذج العزاء في مظاهر الطبيعة

- الحكمة
- الفراغ

رثاء الأخ

منزلة الأخ وأهميته :

للأخ منزلة كبيرة لدى الأهل والقبيلة ، فعند ما يشب ويقوى يصبح الأمل الكبير لدى أهله وقبيلته ، فإن سقوطه في المعركة يشبه سقوط جوهرة ثمينة في بئر عظيمة الغَوْر ، وإذا كان فارساً شجاعاً من فرسان قومه يحامي ويقاتل عن قبيلته ، أو كان كريماً من أجوادهم ينفق ماله للفقراء والمحتاجين تكون منزلته عندهم كبيرة ، وبذلك يعد موته مصيبة لا مثيل لها ، ولذلك يقوم الأخ برثاء أخيه والأخت برثاء أخيها مع ما يمتاز به الأول من الصبر والتجلد ومع ما تتصف به الأخت من الجزع ، فيعمد كل منهما إلى قول الشعر والبكاء على الأخ الفقيد ، فهو صنو النفس ، وعديل الروح ، ورفيق الحياة والعشرة ، فالرزء جلل والمرء لا يتمالك نفسه عند الصدمة الأولى[1] كقول لبيد بن ربيعة في رثاء أخيه أربد [2] :

إنّ الرزيـــةَ لا رزيّـــةَ مثلهَـــا فقـــدانُ كـــلّ أخٍ كضـــوءِ الكوكـــبِ

ومن أبرز الأمثلة ما قالته الخرنق بنت بدر بن هفان[3] في رثاء أخيها طرفة بن العبد إذ تقـــــول[4] :

عَـــدَدْنَا لـــهُ خَمْســـاً وعِشْـــرين حِجَّـــةً فلمّـــا تَوَفّاهَـــا اسْـــتوَى سَـــيّداً ضَـــخْمَاً

فُجِعْنَـــا بـــهِ لمّـــا رَجَوْنَـــا إيَابَـــهُ علـــىَ خَيْـــرِ حَـــالٍ لا ولَيْـــداً ولا قَحْمَـــاً

---

[1] الرثاء في الجاهلية والإسلام ، حسين جمعة ، دار معد ، دمشق ، ط ١ ، ١٩٩١ ، ص ٧٠ .

[2] شرح ديوان لبيد بن ربيعة ، إحسان عباس ، التراث العربي ، الكويت، د ط ، ١٩٦٢م ، ص ١٥٥ .
الرزية : المصيبة .

[3] الخرنق بنت بدر بن هفان بن بن مالك من بني صبيعه ، البكرية العدنانية . شاعرة من الشهيرات في الجاهلية وهي أخت الشاعر طرفة بن العبد لأمه : تزوجها بشر بن عمرو بن مرثد (سيد بني أسد) وقتله بنو أسد يوم قلاب (من أيام الجاهلية) فكان أكثر شعرها في رثائه ورثاء من قتل معه من قومها ، ورثاء أخيها طرفة . (الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين ، خير الدين الزركلي ، دار العلم للملايين ، بيروت ط ٤ ، ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م ٣٠٣/٢).

[4] ديوان شعر الخرنق بنت بدر بن هفان ، تحقيق د. حسين نصار ، دار الكتب ، القاهرة ، د ط ، ١٣٨٩هـ ٩٦٩م ص ١٩ . القحم : الشيخ الكبير في السن

فالموت سبب فقدان الأمل والرجاء والبهجة وترك النفس حزينة كئيبة ، وقد وقع هذا في كثير من رثاء الأخوات للأخوة الذكور[١] ، وفي كثير من رثاء الأخوة الذكور بعضهم بعضاً [٢] .

مكانة رثاء الأخ في الشعر العربي :

هذا اللون من الرثاء قديم في الشعر العربي ، حيث أكثر الشعراء من النظم فيـــه ، وخاصة ً في العصر الجاهلي ففي هذا العصر كان رثاء الأخ ظاهرة عامة شاع القول فيه شيوعاً كبيراً ، مما حدّا بكثير من الأدباء العرب ومؤرخيهم على التركيز فيه ، والإحتفاظ بكم هائل من قصائده في مصنفاتهم[٣] ، وقد دفعت هذه الوفرة في مراثي الأخ بعض الباحثين إلى عد هذا اللون ظاهرة فريدة تميز بها الأدب العربي عن آداب الأمم الأخرى وبلغ به الأمر إلى القول " أن الرثاء العربي هو رثاء الأخ من الذكور والإناث "[٤] ، ولكن هذا الحكم ليس عاماً وربما يقتصر على العصر الجاهلي لوجود أسابه .

أسباب وازدهار رثاء الأخ :

لمعرفة عوامل ازدهار شعر رثاء الأخ لابد أن نتعرف على المجتمع العربي وأيام العرب في الجاهلية .

إن ظاهرة الحروب هي أبرز الظواهر في حياة العرب في الجاهلية التي اشتهرت بأيام العرب . لقد عرف المجتمع العربي في الجاهلية بأنه مجتمع محارب بسبب ظروفه الإقتصادية والإجتماعية ، وللتوسع في ذلك يجب علينا معرفة بعض أيام العرب وحروبهم .

---

[١] انظر مثلاً : أشعار النساء ، أبو عبيد الله محمد بن عمران المرزباني ، حققه وقدم له : د.سامي مكي العاني وهلال ناجي ، دار الرسالة ، بغداد ، د ط ، ١٣٩٦هـ١٩٧٦م ، ص ١٧١- ١٧٤ .وقصائد جاهلية نادرة ، يحيى الجبوري ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٢م ، ص ٦٩.

[٢] انظراً مثلاً : ديوان دريد بن الصمة ، حققه وجمعه ، : محمد خير البقاعي ، دار قتيبة ، دمشق ، د ط ، ١٩٨١م ص ٨٧-٩٤ . وشعراء الأعراب ، جمعه : خليل مردم ، وشرحه وقدم له : عدنان مردم ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط١، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨ ، ص ٧٠-٧٣ .

[٣] الرثاء في الجاهلية والإسلام ، ص ٧٠ .

[٤] نفسه ، ص ٧٠.

لقد عاش الإنسان الجاهلي على أرض صحراوية مجدبة ، شحيحة الموارد والمياه ، لذلك وجدنا أن العامل الأساسي في تقرير حياتهم وموتهم في تلك الصحراء إقتصادي بحت ويتركز حول الماء و الكلأ ، فحياته في تنقل وترحال مما أدى به إلى الإحتكاك مع القبائل الأخرى سواء العربية أو غيرها مثل الفرس والروم " وعلى هذا فالناحية الاقتصادية ، أوجدت كما يبدو الحرب الأولى ، ثم تطورت عنها الحروب الجديدة ، التي اندفعت بأسباب ودوافع خطيرة في الثأر والإنتقام ، وهذا ما حصل في يوم (اللوى) وكان لغطفان على هوازن ، فقد بدأ غزو قام به عبدالله بن الصمة ، ومعه بنو جشم ، وبنو نصر بن بكر من هوازن على غطفان ، فظفر بهم وساق أموالهم في اللوى ومضى بهم " [1] .

وقد قتل في هذا اليوم عبدالله بن الصمة ، ورثاه أخوه دريد بن الصمة [2] بأبيات مشهورة ، بدأها بالغزل إذ يقول [3] :

أَرَثّ جَدِيدُ الْحَبْلِ مِنْ أُمِّ مَعْبَدِ بِعَاقِبَةٍ وَأَخْلَفَتْ كُلّ مَوْعِدِ

ثم نشب اليوم الآخر بسبب جديد هو الثأر للقتيل السابق وهو عبدالله بن الصمة ، وقام بقيادة المعركة شقيقة دريد بن الصمة فقام بغزو قبيلة غطفان مطالباً بدم أخيه ، وقد انتقم منهم انتقاماً عظيماً ، وقتل العديد منهم في يوم سمي بيوم الغدير [4] حيث قال [5] :

قَتَلْنَا بِعَبْدِ اللهِ خيرَ لِدَاتِهِ وخَيرَ شبابِ الناسِ لو ضُمَّ أجمعا

ويوم آخر نشب أيضاً بسبب الأخذ بالثأر والانتقام ، وبسبب التزاحم حول الماء والكلاء هو يوم (منعج)[6]، ومن الأيام التي نشبت بسبب إقتصادي أيضاً يوم

---

[1] العقد الفريد ، أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي ، تحقيق ، د. مفيد محمد قميحه ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٠٤هـ -١٩٨٣م ، ٣٢/٦ .
انظر : الرثاء في الشعر الجاهلي وصدر الإسلام ، بشرى الخطيب ، مديرية مطبعة الإدارة المحلية ، بغداد ، د ط ، ١٩٧٧م ، ص ٣٣ .

[2] دريد بن الصمة الجشمي البكري ، من هوازن . غزا نحو مئة غزوة لم يهزم في واحدة منها . عاش حتى سقط حاجباه على عينيه أدرك الإسلام ولم يسلم فقتل على دين الجاهلية يوم حنين على يد ربيعة بن رفيع السلمي سنة ٨هـ . ، (الأعلام ٣٣٩/٢).

[3] ديوان دريد بن الصمة ، ص ٤٥.

[4] العقد الفريد ، ٣٣/٦ . انظر : الرثاء في الشعر الجاهلي وصدر الإسلام ، ص ٣٤ .

[5] ديوان دريد بن الصمة ، ص ٧٠ .

[6] العقد الفريد ، ٤/٦.

(النفروات) [1] وقد كانت الغلبة فيه لبني عامر على عبس وقد قتل فيه زهير بن حذيمة العبسي ، قتله خالد بن جعفر .

وقد نشب بسبب هذا اليوم يوم جديد بسبب جديد وهو الثأر وهو يوم بطن عاقل ، وقتل فيه خالد بن جعفر [2].

وبلغ من حرصهم على طلب الثأر أنهم كانوا يحرمون على أنفسهم الخمر والطيب والنساء والإغتسال حتى يأخذوا بثأرهم .

وهناك بعض أيامهم التي نشبت بسبب الثأر الفردي ، وهناك بعض أيامهم التي نشبت نتيجة لعامل الثأر القبلي بمفهومه الجماعي ، بأن تهاجم قبيلة قبيلة أخرى ، ومن هذه الأيام " إوادة الثاني ، ورأس العين ، ومبايض ، الشيطين ، وذوقار الأول ، والحاجز ، والكديد ، وبُرزة ، والفيفاء ، وشعب جبلة ، والجفار ، والنسار ، وذات الشقوق ، والنشأة ، وحروب الفجار ، وحرب البسوس ، وأيام الأوس والخزرج ، وأيام المناذرة ، والغساسنة ، ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن كل مجموعة من أيام بين قبيلتين أو عصبيتين ، كانت مسلسلة عن الأيام ، يرفع أحدها الآخر للثأر ، وكل يوم للثأر لليوم الذي سبقه ، سواء أكان ثأراً لشخص معين أو ثأر لقتلى القبيلة ، أو كرامتها من القبيلة الأخرى " [3].

أما في العصور التي تليه فقد تراجع هذا اللون من الرثاء إذ لم يعد القول فيه ظاهرة عامة ، وذلك بسبب مجيء الإسلام الذي حرم القتال بين المسلمين ولذلك اختفت الأيام وحروب الثأر ، ومن الأسباب أيضاً في تراجع هذا اللون من الرثاء " تغير طبيعة المجتمع من مجتمع بدوي غير مستقر إلى مجتمع حضري مستقر ، وشمول تلك الحياة الإقتصادية والإجتماعية والفكرية ، وأصبحت الدولة بقواتها وأنظمتها هي المسيطرة ، فضعفت حاجة الأخ لأخيه في مسائل الغزو فاختفت تلك

---

[1] العقد الفريد ، ٥/٦ . انظر : الرثاء في الشعر الجاهلي وصدر الإسلام ، ص ٣٤ .

[2] نفسه ٥/٦.

[3] الشعر وأيام العرب في العصر الجاهلي ، عفيف عبدالرحمن ، دار الأندلس ، بيروت ، د ط ، ١٩٨٤م ، ص ٨٣.

القيادة الفردية القبلية ، وبرزت قيادة الدولة ، ومن هنا برز دور القائد العسكري في ظل الدولة فكانت هناك مراثي القواد " [1] .

دواعي رثاء الأخ :

لقد تعددت الدواعي التي حفزت الشاعر على رثاء أخيه ، فهناك دواع ذاتية يشترك فيها الشعراء ، وذلك لأن الأخ يرتبط بأخيه روحياً وعاطفياً ، فقد ترعرعا وتربيا تحت سقف واحد ، وأكلا من طعام واحد وتقاسما السعادة والشقاء ، وتعاونا على مصاعب الحياة وشقائها ، فإذا رحل أحدهما رحلة أبديه لا رجعة فيها كان ذلك مأساة للباقين من إخوته " يعبرون عنها بحزنهم العميق وأساهم المؤلم فيسيل على ألسنة الشعراء منهم مراث مفجعة فيبكونه دموعاً ودماً " [2] .

ومما يدفع الشاعر إلى رثاء أخيه أيضاً شعوره بأنه أصبح مهيض الجناح يواجه الحياة ومصاعبها منفرداً بعد أن فقد أخاه الذي كان يشد من أزره ، ويقاسمه لقمة العيش ، ويحمل معه أعباء الحياة ، ومن الحوافز على رثاء الأخ بكاء قيمهم الخيـــــرة ، وأخلاقهم الحميدة التي سلبها الموت ، وخسرها الشاعر وأهل المرثي وأبناء قبيلته [3] .

فرثاء الأخ يرتبط بالنفس البشرية يعبر عن قيم الشاعر التعبيرية وصدقه الفنـــي ، فهو فن يوازي الحقيقة دون تزييف بالإضافة إلى ذلك فهو يحمل التجربة الشعرية المأساوية بصورة مؤثرة موحية ، فهو يمتاز بالصدق والتأثير والواقعية .

مكانة لبيد بن ربيعة بين الشعراء :

إذا عُد شعراء الرثاء في الجاهلية كان لبيد بينهم ، إن لم يكـــــن في طليعتهـــــم ، وهناك رواية عن لبيد نفسه يُعين مكانته بين الشعراء الفحول ، حيث "قيل أنه كان ماراً بالكوفة في آخر حياته فسئل من أشعر العرب ؟ فقال الملك الضليل

---

[1] الرثاء في شعر العصر العباسي الأول ، مظفر غانم ، رسالة ماجستير ، جامعة البصرة ، العراق ، ١٩٨٤م ، ص ٢٩٧ .
[2] المصدر نفسه ، ص ٣٢١.
[3] انظر : الرثاء في الشعر الجاهلي وصدر الإسلام ، ص ٥٧ - ٥٨ .

- يعني امرؤ القيس – فقيل ثم من ، فقال : الغلام القتيل - يعني طرفه بن العبد - فقيل ثم من ؟ فقال : الشيخ أبو عقيل صاحب المحجن - يعني نفسه .

واستشهد على تقدمه في الشعر بقصيدته في رثاء أخيه التي مطلعها :

إنَّ تَقْـــوَى رَبِّنَـــا خَيـــرُ نَفَـــلْ وبِـــإِذْنِ اللّـــهِ رَيْثِـــي وعَجَـــلْ " [1]

وقد امتدح الرسول صلى الله عليه وسلم شعره ، حيث قال " **أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد : ألا كل شيء ما خلا الله باطل "** [2] .

وقد شهد له النابغة الذبياني بأنه أشعر العرب [3] .

وقد عده ابن سلام في الطبقة الثالثة مع النابغة الجعدي وأبي ذؤيب الهذلي والشماخ ، إلا أنه فضله على الشماخ في سهولة المنطق في قوله : " فأما الشماخ فكان شديد متون الشعر ، أشد أسراً من كلام لبيد ، وفيه كزارة ، ولبيد أسهل منه منطقاً " [4]

وأيضاً قال عنه ابن سلام في طبقات الشعراء : " وكان لبيد بن ربيعة عذب المنطق ، رقيق حواشي الكلام ، وكان مسلماً رجل صدق ، وكان في الجاهلية خير شاعر لقومه ، يمدحهم ، ويرثيهم ، ويعد أيامهم ووقائعهم وفرسانهم " [5] .

وكان لبيد من الشعراء الذين يعجب الناس بهم ، ويجتمعون إليه لسماع شعره ، ويتناقلون أقواله معجبين برصانة لفظه ومتانة أسلوبه وروعة معانيه ، وقد كانت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ، تحب شعره وتحفظ الكثير منه وقيل إنها قـــالت " إني لأروي ألف بيت له " [6] وقد قيل " عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : رحم الله لبيداً ما أشعره في قوله : من قصيدة رثاء أخيه أربد :

ذَهَـبَ الَّـذينَ يُعـاشُ فـي أكنـافِهِم وَبَقيـتُ فـي خَلـفٍ كَجِلـدِ الأجـرَبِ

---

[1] الأغاني ، ٢٩٩/١٥.

[2] مختصر صحيح مسلم ، الإمام أبي الحسن مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري ، اختصره ووضع حواشيه : أحمد شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م ، ص ٤٩٢.

[3] الأغاني ، ٣٠٠/١٥.

[4] طبقات فحول الشعراء ، محمد بن سلام الجمحي ، شرحه : محمود محمد شاكر ، دار المعارف ، د ط ، د ت ، ص ١١٠.

[5] المصدر نفسه ، ص ٤٨.

[6] الأغاني ٢٣/١٧.

يَتَـــــأكَّلونَ مَغالَـــــةً وَخِيانَـــــةً وَيُعــابُ قــائِلُهُم وَإن لَــم يَشــغَبِ

ثم قالت : كيف لو رأى لبيد خلفنا هذا ؟ وقال الشعبي [1] كيف لو رأت أم المؤمنين خلفنا هذا " [2] .

ويروى عن المعتصم [3] أنه كان من أشد المعجبين بلبيد وكان يحفظ الكثير من شعره و "سأل يوماً بعض جلسائه قال : من منكم يروي قول لبيد :

بلينا وما تبلى النجوم الطوالع

فقال أحد الجلساء أنا فقال : أنشدنيها فأنشد :

بلينــا ومــا تبلــى النجــومُ الطَّوالِــعُ وتَبْقَــى الجِبــالُ بَعْــدَنَا والمَصــانِعُ

وقــد كنــتُ فــي أكنــافِ جــارِ مضــنّةٍ ففــــارقني جــــارٌ بأرْبَــــدَ نــــافِعُ

فبكى المعتصم حتى جرت دموعه وترحم على المأمون [4] وقال : هكذا كان رحمة الله عليه،ثم اندفع وهو ينشد باقيها ،وقالوا:فجعنا والله من حسن لفظه وصحة معانيه " [5]

---

[1] عامر بن عبدالله بن شراحيل بن كبار الشعبي الحميري . اختلفوا في اسم أبيه فقيل : سراحيل ، وقيل : عبدالله . ونسبته إلى شعب وهو بطن من همدان من التابعين ، كان فقيهاً وشاعراً ، وكان يضرب المثل بحفظه . وسئل عما بلغ إليه حفظه . فقال : ما كتبت سوداء في بيضاء ولا حدثني رجل بحديث إلا حفظته . وهو من رجال الحديث الثقات . اتصل بعبد الملك بن مروان ، فكان نديمه وسميره ورسوله إلى ملك الروم . استقضاه عمر بن عبدالعزيز . كان ضئيلاً نحيفاً . ولد لسبعة أشهر في الكوفة عام ١٩هـ وتوفي سنة ١٠٣هـ (البيان والتبيين ، أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، تحقيق : عبدالسلام هارون ، دار الجيل ، بيروت ، د ط ، د ت ، ١٩٤/١ الأعلام ، ٢٥١/٣) .

[2] جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام ، لأبي زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي ، حققه وعلق عليه : د. علي الهاشمي ، مطابع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية الرياض ، د ط ، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩ ص ٢٠٣.

[3] هو أبو إسحاق محمد بن الرشيد بن المهدي بن المنصور . وأمه أم ولد يقال لها ماردة ثامن خلفاء الدولة العباسية ولد سنة ١٧٩هـ فبينه وبين أخيه المأمون تسع سنوات وكان في عهد أخيه المأمون ولياً على الشام ومصر وكان يميل إليه لشجاعته فولاه عهده وترك ابنه ، وفي اليوم الذي توفي فيه المأمون بويع له بالخلافة ولقب بالمعتصم بالله ، توفي بمدينة سامرا في سنة ٢٢٧هـ فكانت خلافته ثماني سنين . (العقد الفريد ، ٤٩٥/٣ ، محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية الدولة العباسية ، تأليف الشيخ محمد الخضري بك ، تحقيق : الشيخ : محمد العثماني ، دار الأرقم ، د ط ، د ت ، بيروت ، ص ١٨٥) .

[4] هو عبدالله المأمون بن هارون الرشيد بن محمد المهدي وأمه أم ولد اسمها مراجل ، سابع خلفاء الدولة العباسية ، ولد سنة ١٧٠هـ في اليوم الذي ولي فيه أبو الخلافة ، وولاه أبوه العهد وعمره ١٣ سنة بعد أخيه الأمين ، ولما توفي أبوه لم يفِ له أخوه الأمين بوعده ، بل أراد أن يقدم في ولاية العهد ابنه موسى فأبى ذلك المأمون وكان وراء ذلك الحرب والقطيعة التي انتهت بقتل الأمين سنة ١٩٨هـ ، ثم بويع المأمون بالخلافة واستمر إلى أن توفي غازياً بطرسوس في سنة ٢١٨هـ (العقد الفريد ، ٤٩٤/٣ . محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية الدولة العباسية ، ص ١٤٢).

[5] الأغاني ٣٠٠/١٥.

وقد برع لبيد في الرثاء ، وجود فيه كل التجويد ، وقد أعجب القدماء ، فذكروا له شعره في الرثاء ، كما مر معنا في غير هذا الموضع قول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها والمعتصم بالله .

وإذا كانت الخنساء[1] أشهر شواعر رثاء الأخ في الجاهلية ، فإن لبيد أيضاً من أشهر شعراء رثاء الأخ في الجاهلية ، ومثلما بكت الخنساء أخاها صخراً[2] بكاءً مراً حزيناً وذاع اسم صخر بها ، بكى لبيد أخاه أربد بكاءً مراً وذاع اسم أربد ، حتى صار المتأخرون يرثون أخوتهم يتأسون ببكاء لبيد في أخيه[3] .

حيث نجد الصنوبري[4] عندما بكى يتشبه بلبيد حينما بكى أخاه أربد في قوله[5] :

سـأرثيك مـا حنـت حمامـة أيكـةٍ كـأني لبيـدٌ أو كأنـك أربـد

وكذلك قال ابن مقبل[6] في قوله[7] :

وإنـا وإيـاكم وموعـد بيننـا كمثـل لبيـد يـوم زايـل أربـد

فشهرة لبيد في مراثيه لا تقل عن شهرة الخنساء في مراثيها ، ولا أظن أن الخنساء تفوق لبيداً في حرارة الرثاء وشدة الحزن وكثرة التفجع إلا بقدر ، وإن كان

---

[1] تماضر بنت عمرو بن الحارث الشريد الرياحية السُّلمية ، من بني سليم ، من قيس عيلان ، من مضر ، وكان دريد بن الصمة خطبها ، فردته ، وقالت أتراني تاركة بني عمي ، كأنهم عوالي الرماح و مرتثنة شيخ بني جشم ، فخطبها ، رواحة بن عبدالعزى السلمي ، ثم خلف عليها مرداس بن أبي عامر السلمي . أشهر شواعر العرب على الإطلاق عاشت أكثر عمرها في الجاهلية وأدركت الإسلام فأسلمت ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يستنشدها ويعجبه شعرها ، فكانت تنشد وهو يقول : هيه يا خنساء . وأكثر شعرها وأجوده رثاؤها لأخويها (صخر ومعاوية) ، وكانا قد قتلا في الجاهلية ، وكان لها أربعة بنين شهدوا معركة القادسية وقتلوا فيها جميعاً وقالت : الحمد لله الذي شرفني بقتلهم (الأعلام ، ٥٦/٢ ، الشعر والشعراء ، لإبن قتيبه ، تحقيق : وشرح : أحمد محمد شاكر ، دار المعارف ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٦٦م ، / ٣٤٣-٣٤٤) .

[2] صخر بن عمرو شريفاً في بني سليم ، خرج في غزاة ، فقاتل فيها قتالاً شديداً ، وأصابه جرح رغيب ، فمرض من ذلك ، فطال مرضه ثم مات بعد ذلك من طعنته فكانت أخته الخنساء ترثيه (الشعر والشعراء ٣٤٤/١) .

[3] انظر : لبيد بن ربيعة العامري ، د . يحيى الجبوري ، مكتبة الأندلس ، بغداد ، د ط ، ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م ، ص ٣٠٧ .

[4] أحمد بن محمد الحسن بن مرار الضبي الحلبي الأنطاكي ، أبو بكر المعروف بالصنوبري ، وصُحّف لقبه " الضبي " نسبة إلى قبيلة ضبة أما لقبة الثاني والأكثر شهره " الصنوبري " فزعم هو نفسه أن جده كان يعمل في دار الحكمة لعهد المأمون فاشترك في مناظرة بين يديه وأعجب به فقال : إنك لصنوبري الشكل دلالة على ذكائه وحدة مزاجه شاعر اقتصر في أكثر شعره على وصف الرياض والأزهار ، ومدح ورثاء أهل البيت وللحسين خاصـــة (الأعلام ، ٢٠٧/١ ، تاريخ الأدب العربي العصر العباسي الثاني ، شوقي ضيف ، دار المعارف ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٧٣م ، ص ٣٤٧) .

[5] لبيد بن ربيعة العامري ، ص ٣٠٧ .

[6] تميم بن أبي مُقبل من بني العجلان ، من عامر بن صعصعة ، أبو كعب ، شاعر جاهلي ، أدرك الإسلام وأسلم ، فكان يبكي أهل الجاهلية ، عاش مائة وعشرين سنة ، وعُد في المخضرمين وكان يهاجي النجاشي الشاعر (الأعلام ، ٨٧/٢ ، الشعر والشعراء ، ٤٥٥/١).

[7] ديوان ابن مقبل ، تحقيق : عزت حسن ، دمشق ، د ط ، ١٣٨١هـ - ١٩٦٢م ، ص ٦٤.

ثمة فرق بين الخنساء ولبيد ، فهو الفرق بين جزع المرأة وتجلد الرجل[1] . " وذلك هو الذي ميز الخنساء فذكرها الناس ببكائها ، فهي امرأة نواحة نادبة ضعيفة تبكي في أخيها العطف والحنان والرحمة والرجولة ، أما لبيد فقد كان يتحسر على فقد أخيه ، فيذكر فيه البطولة والجود والنجدة ، ويرى فيه الرجـــل والقـــدوة والفـــارس البطـــل" [2].

وقد أشاد الدكتور طه حسين بمنزلة لبيد في هذا الفن وقدمه على الخنساء حيث قال : " ولست أدري كيف يمكن أن تتقدم الخنساء عليه - يعني لبيد - في رثائها وهو عندي أبرع منها في تصوير الحزن وصب اليـــأس في القلوب صبـــاً من غير ضعـف ولا وهن " [3].

وقدمه بطرس البستاني على الخنساء حيث قال : " ورثاؤها - أي الخنساء - عاطفي بحت ، ولا يشوبه تكلف ولا يرتفع بها الفكر إلى المعاني الحكيمة السامية التي نجدها في رثاء لبيد " [4].

أهمية الأخ (أربد) عند لبيد :

سبق وأن تحدثنا عن منزلة الأخ وأهميته لدى الأهل والقبيلة ، وسأشير هنا إلى أهمية الأخ (أربد)[5] عند لبيد بن ربيعة .

فأربد أخ لبيد لأمه فقد " تزوجت - أمه - قيس بن جزء بن خالد فولدت له أربد ثم تزوجها بعده ربيعة بن مالك فولدت له لبيد " [6]، وربيعة بن مالك والد لبيد قتلته بنو سعد في الحرب التي كانت بينها وبين قومه ، ولم يكن ابنه لبيد قد تجاوز سن الطفولـــة ، حيث كان عمره تسع سنوات ، فصار لبيد في رعاية أخيه أربد وعمه أبي البراء[7] ، وكان أربد يحب لبيد ويعطف عليه ، ويملأ عليه حياته وينزله من نفسه منزلة

---

[1] انظر : المرأة في الشعر الجاهلي ، أحمد الحوفي ، نهضة مصر ، القاهرة ، د ط ، ١٩٥٤م ، ص ٤٨٩ .

[2] لبيد بن ربيعة العامري ، ص ٣٠٨.

[3] حديث الأربعاء ، طه حسين ، دار المعارف ، القاهرة ، ط١٥، د ت ، ٥١/١.

[4] أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام ، بطرس البستاني ، دار المكشوف ودار الثقافة ، بيروت ، ط ١٠ ، ١٩٦٨م ، ص ٢٣٣.

[5] هو أربد بن قيس بن جزء بن خالد بن جعفر بن كلاب ، من بني عامر بن صعصعة ، كان فارساً وشجاعاً وكريماً ولأربد ابن اسمه (رز) ، وقيل إن أربد شاعر . (لبيد بن ربيعة العامري ، ص ٨٧).

[6] لبيد بن ربيعة العامري ، ص ٦٩.

[7] هو عامر بن مالك بن جعفر بن كلاب . أبو براء ، فارس قيس ، أحد أبطال العرب في الجاهلية ، وهو خال عامر بن الطفيل . أدرك الإسلام وقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم بتبوك ، ولم يثبُت إسلامه (الأعلام ٢٥٥/٣).

كبيرة ولبيد يجله ويحبه فهو الأخ الأثير الذي يرعاه ويعطف عليه ، ومن هنا كان إعجاب لبيد بأربد وتعلق به ، فقد تمثل لبيد فيه الرجولة والبطولة والكرم والوفاء والرحمة .

فقد كان موت أربد في حادثة سقوط صاعقة عليه ، إثر دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقد ذكر أنه وعامر بن الطفيل[1] وفدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانا يريدان الغدر به ، فعصمه الله منهما ، حيث مات عامر بن الطفيل بمرض الطاعون وكان من أمر أربد ما كان[2] ، ولبيد يؤكد مقتل أربد بالصاعقة في قوله[3] :

أخشى على أربد الحتوف ولا أرهب نوء السماك والأسد
فجَّعني الرعد والصواعق بالـ فارس يوم الكريهة النَّجِدِ

وأشار إلى مصرعه أيضاً في قوله [4] :

فإنْ يَكُ نَوءٌ مِنْ سَحابٍ أصابَهُ فقد كانَ يَعلُو في اللِّقاءِ ويظفَرُ

ويقال نزلت فيه الآية الكريمة **"وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ "**[5] ، وقد وقع موت أربد على لبيد أشد الوقع ، فبكى عليه بكاءً مراً وحزن عليه حزناً شديداً ورثاه في إحدى عشرة قصيدة ، فيها حزن لبيد وأسفه ، وفيها حكمته وفلسفته في الحياة تلك الفلسفة المستمدة من حياته البدوية البسيطة كل ذلك بجزالة لفظ وجمال أسلوب وروعة معنى .

---

[1] هو عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر العامري من بني عامر بن صعصعة ، ابن عم لبيد بن ربيعة فارس قومه ، كان أعور عقيماً لا يولد له ولم يعقب ، أحد فتاك العرب وشعرائهم وساداتهم في الجاهلية . كنيته أبو علي ، ولد ونشأ في نجد ، وكان يأمر منادياً في " عكاظ " ينادي هل من راجل فنحمله ؟ أو جائع فنطعمه ؟ أو خائف فنؤمنه ؟ خاض المعارك كلها . أدرك الإسلام شيخاً ولم يسلم . (الأعلام ٢٥٢/٣ . الشعر والشعراء ٣٣٤/١).

[2] لبيد بن ربيعة العامري ، ص ٦٩.

[3] شرح ديوان لبيد ، ص ١٥٨ . الحتوف : الآجال.

[4] المصدر نفسه ، ص ١٦٧.

[5] سورة الرعد الآية ١١ ، أنظر أسباب نزول القرآن ، تصنيف : الإمام أبي الحسن علي أحمد الواحدي ، تحقيق : كمال بسيوني زغلول ، دار الكتب العلمية ، ط ١ ، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م ، ص ٢٧٨ .

وسأتناول فيما يأتي مضامين ذلك الرثـــاء :

قيم تأبين أخيه :

التأبين في اللغة : اقتفاء أثر الشيء والثناء على الشخص بعد موته ، وقيل هو يقرض الأحياء ويؤبن الأموات[١] ، ولهذا قيل لمادح الميت : مؤبن ، لإتباع آثار أفعاله وصنائعه [٢] .

وفي الاصطلاح : الثناء على الميت والذكر الحسن لأفعاله وصفاته ، وتعداد فضائله وإشهار محامده ، تصويراً لمدى خسارتهم له [٣] .

أومأ بعض النقاد القدامى إلى ثمة علاقة بين الرثاء والمدح فجعلوا الرثاء فناً تابعاً للمديح ، لأن الشاعر عند ما يرثي الميت يجمع فيه القيم والمبادئ والأخلاق العليا فكأنه بذلك يمدحه ، وإن اختلفت صياغة ألفاظه عن ألفاظ المديح[٤] .

وأول هؤلاء النقاد ابن سلام عند ما قال " إن التأبين مدح للميت والثناء عليـــــه ، والمدح للحي " [٥] .

وأيده قدامة بن جعفر في ربط الرثاء بالمديح ، ثم كشف عن الموضوع الذي يتشابه فيه الرثاء والمدح وهو التأبين " إنه ليس بين المرثية والمدحة فصل إلا أن يذكر في اللفظ ما يدل على أنه هالك ، مثل : كان ، تولى ، قضى نحبـــه ، وما أشبـــه ذلك ، وهذا ليس يزيد في المعنى ولا ينقص منه ، لأن تأبين الميت إنما هو بمثل ما كان يمدح في حياتـــه " [٦] .

وأسامة بن منقذ له رأي يشابه رأي قدامة بن جعفر إذ يقول : " وأما الرثاء فلا فرق بينه وبين المدح إلا بذكر الموت " [٧] .

---

[١] القاموس المحيط ، لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي ، قدم له وعلق عليه الشيخ أبو الوفاء نصر الهوريني المصري الشافعي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م ، ص ١١٨٤ . انظر : المعجم الوسيط ، قام بإخراجه ابراهيم مصطفى وآخرون ، المكتبة الإسلامية ، استانبول ، ط٢ ، ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م ، ص ٣ .

[٢] انظر : الاقتضاب في شرح أدب الكاتب، لأبن السيد البطليوسي ، دار الجيل ، بيروت ، ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م ، ص ١٥٨ .

[٣] انظر : فن الرثاء شوقي ضيف ، دار المعارف ، ط ٤، د ت ، ص ٥٤ . انظر : الرثاء في الجاهلية والإسلام ، ص ١٦٦.

[٤] انظر : شعر الرثاء في العصر الجاهلي دراسة فنية ، د. مصطفى الشورى ، الدار الجامعية ، بيروت ، ط ٣ ، ١٩٨٣م ، ص١٥٨ .

[٥] طبقات فحول الشعراء ، ص ١٧٤.

[٦] نقد الشعر ، قدامة بن جعفر ، تحقيق : كمال مصطفى ، مكتبة الخفاجي ، القاهرة ، ط ٣ ، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م ، ص ١٠٠.

[٧] البديع في نقد الشعر ، أسامة بن منقذ ، تحقيق : أحمد بدوي وآخرين ، مطبعة الباب الحلبي ، القاهرة ، د ط ، ١٩٦٠م ، ص ٣٩٣ .

وقال أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدي : " أعلم أن التأبين كمدح الحي ، ولا فرق بينهما إلا ما يفترق بذلك من ذكر التوجع وأنواعه "[١].

ونهج ابن رشيق القيرواني المنهج نفسه في تلك الأحكام حيث قال : " وليس بين الرثاء والمدح فرق إلا أنه يخلط بالرثاء شيء يدل على أن المقصود به ميت مثل " كان " أو " عندما به كيت وكيت " وما يشاكل هذا وليعلم أنه ميت " [٢] .

وجاء بعد ذلك الباحثون المحدثون ، فاعتمدوا على الآراء النقدية السابقة ، فالدكتور مصطفى الشكعة يرى أن الرثاء ضرب من المديح إذ يقول : " والرثاء ضرب من المديح ، ولكنه يختص بالأموات دون الأحياء " [٣] .

ومن نقادنا من اعتبر أن فن المديح يشبه الرثاء ، لولا الفارق الزمني بينهما ، حيث يقول الدكتور عثمان موافي : " ويشبه المديح فن الرثاء ولولا اختلاف زمن كل منهما لأصبحا فناً واحداً " [٤] .

ومنهم من أكد أرتباط المديح بالرثاء بشكل أكثر تأكيد حيث يقول الدكتور عزالدين اسماعيل : " فالرثاء فن شعري يلتقي في كثير مع فن المدح ، أليس هو تعداد لفضائل المتوفى ومآثره " [٥] .

ومنهم من جعل فن الرثاء يسير في فلك فن المديح فينحط بإنحطاطه ويرقى بإرتقائه ، كما قال الدكتور بيومي السباعي " إن الرثاء في رقيه وانحطاطه كان سائراً وراء المديح " [٦] .

وفي الجانب الآخر هناك من النقاد من رأى سمة اختلاف بين الرثاء والمديح ومن هؤلاء النقاد ابن طباطبا ، حيث ذكر أن الخلاف ليس فقط في أبنية الألفاظ بين

---

[١] الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري ، لأبي القاسم الحسن بن بشر الآمدي ، دراسة وتحقيق : د.عبدالله حمد محارب ، مكتبة الخانجي : القاهرة ، ط١ ، ١٤١٠هـ -١٩٩٠م ، ٤٦٩/٣.

[٢] العمدة في صناعة الشعر ونقده ، أبي علي الحسن بن رشيق القيرواني ، حققه وعلق عليه : د. النبوي عبد الواحد شعلان ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط١ ، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م ، ٨٣١/٢.

[٣] فنون الشعر عند الحمدانيين ، مصطفى الشكعة ، مكتبة الأنجلو ، القاهرة ، د ط ، ١٩٥٨م ، ص ١٣٣.

[٤] من قضايا الشعر والنثر ، عثمان موافي ، مؤسسة الثقافة الجامعية ، الأسكندرية ، د ط ، ١٩٧٥م ، ص ٣٥ .

[٥] في الشعر العباسي الرؤيا والفن ، عز الدين إسماعيل ، دار المعارف ، القاهرة ، ط ٨ ، ١٩٦٢م ، ص ٣٦٢-٣٦٣ .

[٦] نفسه ، ص ٣٦٣.

دلالتها على الحاضر والماضي ، بل يكون في مقتضى الحال فالنفس " تسكن إلى كل ما وافق هواها وتقلق كل ما يخالفه ... وهي موافقة للحال التي يعد معناها لها وكالمراثي في حال جزع المصاب وتذكر مناقب المفقود عند تأبينه والتعزية عنه " [١] .

ويرى الدكتور محمد غنيمي هلال الإختلاف في الموقف الذي يعيشه الشاعر عبر عن هذا في قوله : " كما غاب معنى الموقف كذلك عند قدامة بن جعفر حيث قرر أن الرثاء والمديح شيء واحد فقال : " ليس بين المرثية والمدحة فصل " وفي هذا الكلام غفلة عن الموقف" [٢] .

ويرى أحمد الشايب الموقف (المبعث) اختلافاً بينهم في قوله : " إن المديح فن الحياة ، والرثاء فن الممات ، والمدح يبعثه الإعجاب والأمل ، والرثاء يبعثه اليأس والوفاء " [٣] .

وعلى ما يبدو فهنالك اختلافات بين الرثاء والمديح ، فالمعاني التي تأتي في الرثاء تختلف عن المعاني التي ترد في المديح ، فالرثاء يظهر فيه الحديث عن فراق المرثي ولواعج الحزن والدمع والسهر ، وأثر فراقه في أهله ومجتمعه ، وفي الجمادات من حوله وذكر بكائها عليه ، أما المديح فلا يرد فيه شيء من ذلك ، وأكثر ما يركز عليه هو الثناء على الممدوح والرفع من منزلته .

وبناءً على آراء النقاد التي تجعل المديح والرثاء فناً واحداً ، يعد شاعر المديح شاعراً للرثاء ، ومن يبدع في قول المديح ، لابد وأن يبدع في وقول الرثاء وهذا القول ليس صحيحاً على إطلاقه ؛ لأن الواقع الأدبي للشعر العربـــــي يخالف هذا وينكـــــره ، فهناك شعراء أجادوا في فن المديح ، ولكنهم لم يجيدوا في فن الرثاء والعكس صحيح [٤].

---

[١] عيار الشعر ، محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي ، تحقيق : د. عبدالعزيز بن ناصر المانع ، دار العلوم ، الرياض ، د ط ، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م ، ص٢٣.

[٢] الموقف الأدبي ، محمد غنيمي هلال ، دار النهضة ، القاهرة ، د ط ، ١٩٧٣م ، ص ٣٠ .

[٣] الرثاء في شعر أبي العلاء المعري ، أحمد الشايب ، مجلة الهلال : مصر ، ج ١٠ ، س ٤٦ ، أول أغسطس ١٩٣٨م ، ٥ جمادى الآخرة ١٣٥٧هـ - ص ١١٦٢ .

[٤] رثاء الأبناء في الشعر العربي إلى نهاية القرن الخامس الهجري ، مخيمر صالح ، مكتبة المنار ، الزرقاء – الأردن ، ط ١ ، د ت ، ص ٦١-٦٢.

والرثاء يختلف عن المديح في كثير من الأمور ، وأهمها وأبرزها الدوافع والبواعث النفسية الأليمة للرثاء ، والمشاعر والأحاسيس والعواطف الحزينة فالراثي عندما يذكر آثار الفقيد لمن حوله من المستمعين فيريهم فيه أسماء صور الكمال التي تثير فيهم عاطفة الإعجاب والحزن الممزوجة بخسارة الميت فيدفعهم ذلك إلى بكائه إعجاباً بما يملك من صفات وحزناً وأسفاً وحسرة على فقده ، وعند ما يمدح الشاعر الممدوح فهو يرسم صور الإعجاب فيه بأعلى درجات الكمال ، فإن المادح والمستمعين سيكونون مدفوعين بعاطفة الإعجاب ، ومتوسمين عمل الممدوح بالفضائل الجلية والمآثر العريقة التي أشاد بها الشاعر ، ليعمل الممدوح جاهداً على تحقيقها[1] .

وموقف الشاعر الراثي موقف حزين ، بينما موقف الشاعر المادح موقف فرح وسرور ، وشتان بين الحالين والموقفين .

والشاعر عندما يعدد فضائل الميت ومناقبه يكون بدافع الوفاء " لئن فرق النقـــاد بين الرثاء والمدح فقالوا :لا فرق بينهما ، فإن المدح ذكر مناقب الإنسان الحـــي ، والرثاء تعداد ذكر مناقب الميت ، فإن هذا التعريف الشكلي ، وما دروا أن ما وراء ذكر المناقب وتعداد الفضائل أهم بكثير من هذا التعريف القاصر ، إذ أن عنصر الوفاء هو الذي يفصل بين المدح والرثاء ، ناهيك عما في إظهار الحسرة والألم أمر حرص عليه الراثي ، وخاصة في إسبال العبرات ، وزوغان النظرات وزيـــادة الآهـــات" [2] و" الشعر في المرثي ، إنما يقال على الوفاء " [3] .

وبتتبعنا لتأبين لبيد بن ربيعه لأخيه أربد يؤبنه بقيم وصفات فرضتها عليه الحياة الجاهلية ، حيث عاش الإنسان الجاهلي في الجزيرة العربية حياة قاسية ، على صحراء مجدبة شحيحة الماء وقليلة الموارد وهذا الجفاف مع وعورة الحياة هي التي حددت القيم الأخلاقية عند العرب ، " وكانت تسود بين العرب في الجاهلية ، قيم خلقية

---

[1] انظر : الرثاء في الشعر الجاهلي وصدر الإسلام ، ص ٥٧ . انظر : الرثاء في العصر الجاهلي دراسة فنية ، ص ١٥٨ .

[2] - الرثاء في الشعر العربي أو جراحات القلوب ، د . محمد حسن أبو ناجي ، مكتبة دار التراث ، المدينة المنورة ، ط ٣ ، ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤م ، ص ١١.

٣ تاريخ الأدب العربي ، مصطفى صادق الرافعي ، راجعه واعتنى به : درويش الجويدي ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ ، ٩٤/٣ .

رفيعة ، طالما تمدحوا بها في أشعارهم ، كالشجاعة والإباء وحماية الجار ، والتسامح ، والعفة والوفاء والكرم ، ولا يعني هذا أن مجتمعهم كان يخلو من أخلاق ذميمة تنتشر بينهم كشرب الخمر ، والزنا ، والقمار ، والميسر ، وما كانوا لينعتوا بالجاهلية لولا مثل هذه الأخلاق وغيرها " [1] .

وعندما جاء الإسلام أبقى على الأخلاق الحميدة ، ونهى عن الأخلاق الذميمة ، قال صلَّ الله عليه وسلم : **" إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق "** [2] .

ولقد كان الإنسان العربي بطبيعته حراً أبياً ، عزيزاً كريماً ، يأنف من الذل والهوان ، لذلك اتخذ الفروسية مثله الأعلى ، والجراءة والشجاعة سبيله إلى نيل المجد والعلاء ، وكان يرى الجبن عاراً ، والفرار مذلة ، فهو دائماً في حروب مع غيره أو مع جيرانه من الأمم الأخرى [3] .

وقد أمتاز بصفات حميدة وشمائل طيبة منها الوفاء ، حيث كان يحرص الواحد منهم على ما استخلف من أمانة ، ولو أدى به ذلك إلى المهالك والعواقب وإلى القتل ، ومن تلك الصفات الحميدة الصفح عن الزلات والعفو عند المقدرة .

وكان من عادة العرب في الجاهلية ، أن يقفوا على قبر الميت فيذكروا مناقبه ويعددوا فضائله ، ويبكوا فيه الكرم والشجاعة والوفاء وحماية الجار ، وإغاثة الملهوف والحلم ، وكل ما يزين المرثي في رأيهم من صفات[4] .

وسأحاول في الصفحات القادمة ، دراسة أهم هذه المناقب والفضائل التي تطرق لها لبيد بن ربيعة في رثائه لأخيه أربد :

---

١ قضايا الشعر الجاهلي ، علي العتوم ، جامعة اليرموك ، ط ١ ، ١٩٨٢ م ، ص ٣٧٧ .

[2] مختصر المقاصد الحسنة في بيان الأحاديث المشتهرة على الألسنة ، محمد بن عبدالباقي الزرقاني ، تحقيق : محمد الصباغ ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ط ٣ ، ١٤٣٠هـ ، ص ١٨٤.

٣ انظر : شعرية الفقد جدل الحياة والموت في شعر الخنساء ، د. خالد الجبر وَ د. رزان إبراهيم ، ، دار جليل ، عمان ، ط ١ ، ١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م ، ص ٩٢ وما بعدها .

[4] فن الرثاء ، ص ٥٤ .

الكرم :

كان لطبيعة الصحراء الشحيحة بالماء دور في توليد الشعور بالحاجة لواجب مقدس ، هو واجب الضيافة ، فهذه الأرض الصحراوية الممتدة الواسعة عندما تضيـــق ، بجفافها ووعورتها وجدبها بأحد هؤلاء البدو ، فإنه لا يعدم أن يجد العون والجوار وحسن الضيافة عند الكرماء منهم فهو خلق ولـّدته الطبيعة عندهم ، والإخلال به فضيحة وعار وجريمة أخلاقية تتنافى مع الخلق العربي ومن هنا عظمت هذه القيمة في أعينهم ، وأجل المتصفون بها إخلالاً شديداً[1].

وقد عرف الجود عند العرب في فصل الشتاء معرفة خاصة ،فقد كان الكرماء منهم يبذلون أموالهم للفقراء الذين تضيق بهم الأحوال في هذا الفصل ، فبرد الصحراء شديد، وإذا لم ينزل المطر أصابهم الجدب والقحط فهلكت ماشيتهم لقلة العشب والماء ، ولم يكونوا قادرين على الخروج للصيد " وفي هذه الظروف أيضاً نجد البخلاء من الأغنياء قابعين في بيوتهم ، مقتسمين الذبائح فيما بينهم غير عابئين بالجياع الطارفين في هذه الأوقات" [2] .

وقد أجاد لبيد في وصف صورة الكرم في الشتاء وخاصة كرم أخيـــه أربـــــد ، عندما يندفع الناس إليه طمعاً في كرمه ، ومقارنتها ببخـــل الأغنيـــاء ، واحتمائهم في بيوتهم ، التماساً للدفء والراحة ، وتقسيم الذبائح بينهم ،عندما رثى أخاه أربد قائلاً[3] :

أبْكـــي أبـــا الحَـــزَّاز يَـــوْمَ مَقَامَـــةٍ ... لمُنَـــاخ أضـــيافٍ ومـــأوى مُقْتِـــرِ
والحـــيِّ إذْ بكـــرَ الشـــتاءُ علـــيهمُ ... وعـــدتْ شـــآميةٌ بيـــومٍ مقمـــرِ
وتقنـــعَ الأبـــرامُ فـــي حجـــراتهمْ ... وتَجَـــزَّأ الأيْســـارُ كـــلَّ مُشَـــهَّرِ

---

[1] انظر قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث ، محمد زكي العشماوي ، دار الشروق ، القاهرة ، د ط ، ١٩٩٤ م ، ص ١٢٦ .
[2] الرثاء في الشعر الجاهلي وصدر الإسلام ، ص ٤٦ .
[3] شرح ديوان لبيد ، ص ١٦٦ . مقامة : حين يجلس الناس في مجلسه . الأبرام : اللئيم . تجزأ : تقسم . المشهر : يعني الذبيحة .

وفي هذه الظروف التي تبلغ الأمور ذروتها من الجدب ، عندما تأتي رياح الشمال الباردة في ليله مقمرة ، التي يندر فيها الطعام ، ويبخل الأغنياء ، فأربد الذي يقدم طعامه في هذه الظروف القاسية ، ولكل هؤلاء الناس فهو جواد إلى درجة الإيثار، كما قال لبيد[1] :

ألفَــتُ أربَــدَ يُستَضــاءُ بوَجْهِــهِ كالبــدرِ، غيــرَ مقتّــرٍ مُســتأثرِ

حيث قسم حكماء العرب مراتب السخاء إلى ثلاث مراتب : سخاء وجود وإيثــار ، فأمثلها مرتبة السخاء وهو إعطاء الشيء القليل وإمساك الأكثر ، وأوسطها مرتبة الجود وهو إعطاء الأكثر وإمساك الأقل بينما أعلاها مرتبة الإيثار وهو إعطاء الكل من غير إمساك بشيء ، وهو أشرف درجات الكرم و به استحقوا ثناء الله عز وجل : " وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ "[2] .

ويصف لبيد أيضاً وقت كرم أخاه في السنين المجدبة عندما تهب رياح الشتاء الباردة المحملة معها أوراق الشجر اليابس وتنثرها على منازل الحي في قوله :[3]

يــا عَــينِ هــلاّ بكيــتِ أربَــدَ إذ ألــوَت ريــاحُ الشــتاء بالعَضَــد

فلبيد يُشّعرنا بأنه يعيش في ذكريات الماضي التي تجمعه وأخيه أربد الكريم وكل من شملهم كرمه .

وعندما يصف لنا الرياح وهي تداهم الأعراب ، وما تفعله بخيامهم ومواشيهم وأشجارهم ، فكأنه يصف لنا موقف العرب منها ، فهم يسمون الشمائل شامية لأنها تهب من الشمال .[4] والشمال الشامية تعرف برياحها الباردة المحملة بالصقيع المتجمد ،

---

[1] شرح ديوان لبيد ، ص ١٦٦ ، مستأثر : يؤثر نفسه دون غيره .
٢ سورة الحشر ، الآية (٩) ، انظر : الرثاء في الشعر الجاهلي وصدر الإسلام ، ص ٧٦ .
[3] - شرح ديوان لبيد ص ١٦٠ . ألوت : ذهبت به وطارت . العضد : الشجر اليابس .
[4] - الأنواء في مواسم العرب ، لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ، تحقيق : محمد شكري الألوسي ، حيدر آباد ، الهند ، ط ١ ، ١٣٧٥ هـ - ١٩٥٦ م ، ص ١٥٩ .

فتصيب الإنسان في أعز ما يملك مما يؤدي إلى تبدد الثروة الحيوانية نتيجة الجدب وجفاف النبات ، فتتوقف الحياة وتضيق أحوال الناس فإذا أقبلت تطير العرب منها وأصابهم القنوط ، لأنها ستجلب الأذى والخراب [1] " وهم يتيمنون باليمن ويتشاءمون بالشمال ، ولذا قالوا : اليمن والشؤم ، فاليمن من اليمين والشؤم من اليد اليسرى وهي الشمال،والجانب الأيسر هو الجانب الأشأم،وقد يتشاءمون بها أيضاً من جهة البرد " [2].

لم يغفل لبيد عن ذكر الآنية التي كان أربد يقدم الطعام فيها للأضياف أثناء المآدب ، بل تطرق إليها وأعطاها جل اهتمامه ، حيث قال :[3]

فتــىً عــارفٌ للحَــقّ لا ينكِــرُ القِــرَى تــرَى رَقْــدَهُ للضّــيفِ مــلآنَ مُتْرَعَــا

فلبيد بعد ما ذكر لنا موقف أخيه من الضيف ، بأن إكرامه واجب فرضته الطبيعة عليه لا منــّاً ولا صدقة ، نعت القدح الذي يقدم فيه الطعام ، فوصفه بأنه مملوء بالطعام .

وهنا يصف الجفنه ومقدار ما فيها من الطعام ، في قوله : [4]

الســابلَّ الفَضَــل إذا مــا عُــدِّدَا ويمــلأُ الجَفْنَــةَ مَــلاءً مَــدَدا

والجفنة تشبع السبعة إلى العشرة من الرجال،وقيل الجفنة أكبر آنية الطعام [5].
فقد وصف لنا لبيد جفان أخيه المترعة باللحم ، فكلما كانت القدور أضخم كان ذلك أدعى للفخر ، وأدل على علوه في الجود ، وسعة القدور وضخامتها مبعث الكرم ودليل على كثرة عطائه وسخائه .

---

[1] - شعر القرى قبل الإسلام ، د. جواد كاظم الشيباني ، دار الرضوان ، عمان ، ط ١ ، ١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م ، ص ٧٦ .
[2] - الأنواء في مواسم العرب ، ص ١٥٨ .
[3] - شرح ديوان لبيد ، ص ١٧٣ . الرفد : القدح العظيم .
[4] - المصدر نفسه ، ص ١٦٤ . المدد : المكثر .
[5] - بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب : تأليف محمود شكري الآلوسي البغدادي ، عني بشرحه وتصحيحه : محمد بهجة الأثري ، المكتبة الأهلية ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٣٤٢ هـ - ١٩٢٤ م ، ١/ ٣٨٧ .

وقد أولى العرب الإبل عناية خاصة " وتعهدوها بالرعاية الكريمة للمنافع التي عادت بها عليهم ، فقد استعانوا بها في التنقل والأسفار واتخذوها موارد رزقهم يأكلون لحمها ويشربون لبنها ، ويصنعون من أوبارها ألبسة تهون عليهم شدة الحر وتقيهم لذعة البرد كما كانت عوناً لهم في الحروب ،ولقيمتها العظيمة تلك كانوا يوزنون ثروة المالكين بأعدادها عندهم حتى إذا ما قالوا:مال فلان عنوا به ما يملك من الإبل " .[1]

ولأربد في تلك الإبل شأن عند ما وصفه لبيد في قوله : [2]

كـــأنَّ هِجانَهَـــا، مُتَأبِّضَـــاتٍ وفـــي الأقـــرانِ، أصـــورَةَ الرَّعـــامِ
وقـــدْ كـــان المُعصَّـــبُ يعتفيهَـــا وَتُحْـــبَسُ عِنْـــدَ غايـــاتِ الـــدِّمامِ
علـــى فَقْـــدِ الحَريـــبِ إذا اعْتَرَاهـــا وعنـــد الفضْـــلِ فـــي القحـــمِ العظـــامِ
خُبَاسَـــاتُ الفـــوارسِ كـــلَّ يـــومٍ إذا لـــم يُـــرْجَ رِسْـــلٌ فـــي السَّـــوَامِ
إذا مـــاتَعْزُبُ الأنعـــامُ راحَـــتْ عَلـــى الأيْتَـــام والكَـــلِّ العِيَـــامِ
فيحمـــدُ قـــدرَ أربـــدَ مَـــنْ عَرَاهَـــا إذا مـــا ذُمَّ أربَـــابُ اللِّحـــامِ
وجارتُـــــهُ إذا حلَّـــــتْ إليْـــــهِ لهـــا نَفَـــلٌ وَحَـــظٌّ فـــي السَّـــنَامِ

فإبله مال واسع للفقراء ،يأتيها أهل الحاجة يطلب خيرها فيجاب طلبهم ، وإذا ما أصاب الناس القحط والجدب فإنها تنحر للآكلين ولبنها موقوف على اليتامى والبائسيـن ، وقدر أربد مملؤة من لحوم تلك الإبل ، يحمدها الآكلـون وتبذل للطالبيـن ، وجارته لها حق في خير لحم الإبل وهو السنام .[3]

وضخامة الإبل فضلا عن بياض لونها كانتا تستهويان العربي فيزداد بها تشبثاً وتعلقاً ،[4] غير أن أربد يصرف همه إليها ليجعلها في دائرة اهتمامه لعطاياه ، كما في قول لبيد : [5]

يُحْـــذِي وَيُعْطِـــي مَالَـــهُ لِيُحْمَـــدَا أُدْمًـــا يُشَـــبَّهْنَ صُـــوَارًا أَبَّـــدَا

---

[1]- قراءات نصية في الشعر الجاهلي ، د. جليل حسن محمد ، دار جرير ، عمان ، ط ١ ، ١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م ، ص ٣٧ .
[2]- شرح ديوان لبيد ، ص ٢٠٢ -٢٠٤ . الهجان : العتاق الكريمة . متأبضات : مشدودة بالحبل . الرعام : المخاط ، المعصب : الفقير ، يعتفيها : يطلب خيرها . الذمام : الحقوق . الحريب : الذي قد سلب ماله . اعتراها : أتاها . القحم : عظائم الأمور وشدائدها . خباسات : غنائم . الرسل : اللبن . السوام : المواشي التي ترعى . تعزب : تبتعد في المرعي . الكل : العيال . العيام : الذي يشتهي اللبن . عراها : أتاها طالباً خيرها .
[3]- لبيد بن ربيعة العامري ، ص ٣١٠ .
[4]- قراءات نصية في الشعر الجاهلي ، ص ٣٨ .
[5]- شرح ديوان لبيد ، ص ١٦٤ . الأدم : الإبل البيض . الصوار : جماعة بقر الوحش .

فعطايا أربد تكون من الإبل البيض التي تشبه بقر الوحش .

فأربد الجواد المعطاء يفزع الإبل عندما تراه ؛ لأنه يكثر من نحر الإبل إلى درجة الإدمان ، في قول لبيد : [1]

يَـــدْعَرُ البَـــرْكَ فَقَـــدْ أفْزَعَـــهُ نـــاهضٌ يَـــنهَضُ نَهـــضَ المُختَـــزَلْ

مُـــدْمِنٌ يَجْلُـــو بـــأطْرَافِ الـــدُّرَى دَنَـــسَ الأسْـــوُقِ بالعَضْـــبِ الأفَـــلْ

هناك صفات سجلها شعر رثاء لبيد في أخيه تكشف عن المثالية التي كان لبيد يرغب في إبرازها تمجيداً لأخيه ، وهي مرتبطة بالخصال التي قدمناها آنفاً وتضفي على أخيه هالة من التقدير [2].

ومن تلك الصفات إغاثة أخيه أربد للحريب والمنكوب الذي قد سُلب ماله فأصبح في أحوج ما يكون للسؤال فيعده أربد بالعطاء والنصرة في قوله : [3]

والحـــــاربِ الجـــــابرِ الحريـــــبِ إذا جـــاء نَكيبـــا وان يَعُـــدْ يَعُـــدِ

بل إن عطاياه لا يقتصر على شيء ، فكل من سأله أعطاه مسألته في قوله : [4]

فتـــىً كـــانَ؛ أمّـــا كُـــلّ شـــيء ســـألْتَهُ فيُعْطـــي، وأمّـــا كُـــلّ ذَنْـــبٍ فيَغْفِـــرُ

وهذه من أنواع البطولة ، فلا تنحصر دلالتها عند مجرد الكرم وحده ، كما لا تكسب صاحبها صفة الجود فحسب ، وإنما فيها من الشجاعة والمروءة ، ما لا يقل عن معاني الإستبسال في القتال . [5]

---

[1]- شرح ديوان لبيد : ص ١٩٨ . البرك : الإبل الباركة . المختزل : المضطرب غير المستوي . مدمن : مكثر لهذا الفعل حتى أصبح له عادة . الغضب : القاطع . الأفل : الكثير الفلول لكثرة ما ضرب به .

[2]- شعر الرثاء في العصر الجاهلي دراسة فنية ، ص ١٨٣ .

[3]- شرح ديوان لبيد ، ص ١٨٥ ، الحارب : يحرب الأموال . الجابر : الذي يجبر من قد حرب ماله . الحريب : الذي قد سلب ماله . النكيب : المصاب .

[4]- المصدر نفسه ، ص ١٦٧.

[5]- قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث ، ص ١٣٢ .

الشجاعة

الشجاعة من أكثر الخصال التي أحبها العربي في جاهليته وتعلمهـــا منذ نشأتـــــه ، بحكم بيئته التي رأينا كيف اشتعلت فيها نيران الحروب أياماً وسنوات عـــــدة ، بدوافع إقتصادية أو دواعي الأخذ بالثأر الذي ينتج عنها .[١]

وفي الحروب تتبين شجاعة الفرسان فيها من تجلدهم وصبرهم ، وحسن بلائهم ولقد " كان الفارس منهم يخوض مغامرات القتال ، وهو مدرك أنه قاتل أو مقتـــول ، ومع ذلك فإنه يقتحم الموت ، فشجاعته ، شجاعة فيها قوة ، وفيها تحد للموت ، ولكنها فيها أيضاً إنسانية وكرم ، وإنصاف للأعداء ، ووفاء للوعد " .[٢]

والشجاعة عند العرب لها أهمية كبرى وعظيمة في تحديد مصير كثير من الناس ، ولأهمية الشجاعة عدها قدامة بن جعفر من الخصال الخُلقية الأساسية ، حيث جعلها أحد أربع خصال أصلية ، بإجتماعها تتكون شخصية الرجل الكامـــل تقريبـــاً ، وهي العقل ، والشجاعة ، والعدل ، والعفة .[٣]

معنى الشجاعة :

وللعرب في الشجاعة آراء توضح وجهة النظر العامة لمعناها ،حيث قالوا : "حد الشجاعة سعة الصدر بالإقدام على الأمور المتلفة "[٤] وقالوا أيضاً:"إنها جبلة نفس أبية "[٥].

يتضح من المعاني السابقة أن الشجاعة تعني الإقدام على الموت دون خوف أو وجل .

---

[١]- الرثاء في الشعر الجاهلي وصدر الإسلام ، ص ٧٥ .
[٢]- الشعر وأيام العرب في العصر الجاهلي ، ص ٣١٤ .
[٣]- نقد الشعر ، ص ٦٦.
[٤] نهاية الأرب فنون الأدب شهاب الدين أحمد عبدالوهاب النويري ،نسخه مصورة عن مطبعة دار الكتب المصرية المؤسسة العامه للتأليف والترجمة وللطباعة والنشر ، د ط ،١٣٧٤هـ ١٩٥٥هـ ٢٢٠/٣.
[٥] نفسه ٢٢٠/٣

ولكن هل معنى ذلك أن الشجاع يقدم على الموت ، دون تفكر ، أو وقاية لمجرد إثبات أنه شجاع ؟ .

لقد رد أبو هلال العسكري ، على هذا التساؤل حول الشجاعة حيث قال : "ليس الشجاعة أن يحمل الرجل نفسه على الهلكة ، إنما ذلك هوج ،والشجاعة أن يتقدم ،وغالب ظنه أن يظفر فإما إذا علم أنه إذا أقدم هلك ،ثم أقدم فإن ذلك جنون ؛ لأن كل أحد يقدر أن يقدم على الهلكة فيهلك ، إنما الشأن في أن يحمد غب إقدامه "[١].

والعرب تؤكد هذه الفكرة ،التي تعد أساسا معنى الشجاعة ، حيث قالت العـــــرب :"إن الشجاعة وقاية والجبن مقتلة ؛ ولذلك فإن من يقتل مدبراً أكثر ممن يقتل مقبلاً "[٢] وقالوا : "الشجاع موقي والجبان ملقي "[٣].

وهناك أمران مهمان في الشجاعة وهما التعقل والحكمة ،ولهما دور كبير في الشجاعة ، وأشجع الناس الذي يصمد طويلاً محافظاً على حياته ،ومحتفظاً بها للأيام المقبلة ،حيث قال رسول الله صلى الله علية وسلم : **" ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب "**[٤].

فلا "بأس من أن يتوقى الفارس الموت ، بلبس الجنة في الحرب لدرء الخطر عن نفسه مع التحلي بالحزم ،والتعقل ،وذلك مما أكدته قصص الأبطال وقواد العرب العظماء"[٥].

فالشجاعة إذن : هي إقدام مع العزم والتصميم وقوة الإرادة ، مع قوة التدبر والتفكير ، اللذين يمنعان التهور والهوج ، فسلاح العقل واستخدامه مع قوة الجسد والسيف يحققان لصاحبهما النصر المؤزر [٦].

---

١. ديوان المعاني ، ابو هلال العسكري مكتبة القدس القاهرة ، ط١ ، ١٣٥٢هـ ص ١٢١ . انظر : الرثاء في الشعر الباهلي وصدر الإسلام ، ص ٨٧

[٢] العقد الفريد ،٩١/١ . انظر : الرثاء في الشعر الجاهلى وصدر الإسلام ،ص٧٨.

[٣] -المصدر نفسه ، ٩٢/١.

[٤] صحيح الأدب المفرد ، للإمام البخاري ، محمد ناصر الدين الألباني ، دار الصديق ، ص ١ ، ١٤١٤هـ ، ص ٩٨٩.

[٥] الرثاء في الشعرا الجاهلي وصدر الإسلام ،٧٨.

[٦] نفسه ، ص ٧٨.

والشجاعة لها درجات عند العرب وقد تأكدت لديهم نتيجة لممارستهم الطويلة للحروب في ميادين القتال وكانت آراؤهم فيها ، نتيجة لخبرة واقعية وعملية .

ولهذا قال بعض أهل التجارب : " الرجال ثلاث : فارس ، وشجاع ، وبطل ، فالفارس : الذي يشد إذا شدوا ، والشجاع : الداعي إلى البر والمجيب داعيه ، والبطل : الحامي لظهور القوم إذا ولوا " [١] ، وبذلك يكون البطل هو أشجع هؤلاء جميعاً ، لأنه يتحمل كل التبعات ، ويقوم بمسؤلية الحماية لظهور القوم ، ولابد أن يكون رجلاً حازماً ، يملك سلاح العقل والسيف [٢] .

كما أن أهل اللغة شاركوا أهل التجارب في قياس درجات أهل الشجاعة فقالوا : " شجاع بهمة لأنه بهيم لا موضع فيه للجبن ، وبطل ؛ لأنه يبطل القران ، وصمة لأنه يصمم ولا ينثني ، وأشوس يعرف الغضب في عينيه وحاجبيه من تشاوسه ... " [٣] ومن درجات الشجاعة عندهم " النجد ويطلق على الشجاع السريع الإجابة إلى الداعي بخير أو شر " [٤] .

وقد تحدث شعراء العرب عن الشجاعة في مراثيهم من ناحيتين :

أولاً : شجاعة الفارس في الحرب والمعارك وتشمل الهجوم على الأعداء ، والدفاع عن القبيلة .

فدور الفارس في الدفاع عن قبيلته من الهجمات المغيرة وحماية ممتلكاتها ونسائها وأطفالها وحماية الجار ، والمستغيث به ، وفك الأسرى ، أما دوره في الهجوم يكون في السلب والنهب ، واغتصاب ممتلكات القبائل الأخرى[٥] .

---

[١] نهاية الأرب في فنون الأدب ، ٢٢٠/٣.
[٢] الرثاء في الشعر الجاهلي وصدر الإسلام ، ص ٧٩.
[٣] متخير الألفاظ ، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا ، دار أحياء الكتب العلمية ، القاهرة ، د ط ، ١٣٦٩هـ ، ص ١٠٧ .
[٤] المخصص ، علي بن إسماعيل بن سيدة ، المطبعة الأميرية ، بولاق ، ط ١ ، ١٣١٧هـ ، ٥٥/٣.
[٥] الرثاء في الشعر الجاهلي وصدر الإسلام ، ص٨١.

وقد رثى لبيد بن ربيعة أخاه أربد ذاكراً شجاعته التي تتجلى في الدفاع ورفع الضيم والأذى عن العشيرة حيث قال [1]:

ألاَ ذَهَــبَ المُحــافِظُ والمُحــامِي وَمَــانعُ ضَــيْمِنَا يَــوْمَ الخِصَــامِ

وأرْبَــدُ فــارسُ الهَيْجَــا إذا مــا تَقَعَّــرَتِ المَشــاجِرُ بِالْخِيَــامِ

لقد ذهب أربد المحافظ والمحامي ، ومانع الضيم عن قبيلته ، وفارس الهيجاء يوم الفزع حين تسقط الهوادج والخيام ، ومنقذ النساء الجميلات من السبيء .

وهنا يرثي أخاه ، واصفاً شجاعته ، وحمايته ونجدته لأهله وقومه ، إذ يقول [2]

فجَّعنــي الرعــدُ والصّــواعقُ بالــ فــارس يَــوْمٍ الكريهــة النَّجِــدِ

فقد كان أربد سريع النجدة في الدفاع عن المحارم ، فبذلك يحتل في قلوب قبيلته مكانه سامية ، لأنه كان لا يتوانى عن تلبية استغاثاتهم ، الملهوفة في ميادين الوغى ، فيدافع عنهم وينقذهم ويحميهم من كل أذى ليبرهن بذلك عن شجاعة إنسانية نبيلة .

وقد أسهب في وصف شجاعة أخيه ، ونحس في كلامه الأليم الحاد والشعور الحزين بالخسارة الفادحة ، لكونه فقد أخاً فارساً وشجاعاً وحامياً للحمى في قوله [3] :

لــــنْ تفنيَــــا خيــــراتِ أرْ بــــدَ فابكِيَــــا حتّــــى يعــــودَا

قُــــولا هُــــوَ البَطَــــلُ المُحَــــا مــــي حِــينَ يُكْسَــوْنَ الحَديــدَا

وَيَصُــــدُّ عَنَّــــا الظّالِميــــ ــــنَ إذا لَقِينَــــا القَــــوْمَ صِــيدَا

لقد خاطب لبيد هؤلاء الذين غمرهم خير أربد بالبكاء عليه ، وفاء بحق خيره العميق الذي لا يفنى (لن تفنيا خيرات أربد) ووصف لنا شجاعته ، فهو البطل ، وحامي الحقيقة حين يتدرع الأبطال ويستعدون للقتال .

---

[1] شرح ديوان لبيد ، ص ٢٠١ . تقعرت : تقوضت من أصلها . المشاجر : خشب توضع عليه أمتعتهم : والشجار : قبة الهودج .
[2] المصدر نفسه ، ص ١٥٨.
[3] المصدر نفسه ، ص ١٦٣.

وقد أبرز علوه وانتصاره في الحرب ، في قوله[1] :

فـإنْ يـكُ نـوءٌ مـن سَـحابٍ أصـابَهُ فقـد كـانَ يَعْلُـو فـي اللّقـاءِ وَيَظْفَـرُ

ثانياً : شجاعة الفارس في السلم :

تبرز شجاعة الفارس في السلم ، بشكل ، دفاع عن النفس ضد الهجمات الخارجية مهما كان مصدرها ، فيدافع عن نفسه إذا كان منفرداً أو عن جماعته إذا كان في جماعة .

والسلم هنا يعني البعد عن الحرب بكل أشكالها ويكون في ناحيتين :

أ- عندما يسير منفرداً في الصحراء ، حيث يواجه الموت في كل لحظه وبصورة مفاجأة متمثلاً في الحيوانات المفترسة ، أو في عدو يرتقبه لأخذ ثأر ، فيقوم بالدفاع عن نفسه ضد هؤلاء الأعداء ، ثم قتلهم والتخلص منهم[2] .

ب- " أثناء رحيل القبيلة وانتجاعها إلى مواطن الكلأ فهو يقوم بدور الدليل لهم أولاً والمحامي من الوحوش والحيوانات المفترسة ثانياً " [3] .

وفي هذا نقرأ قول لبيد في رثائه لأخيه أربد[4] :

ويهْـدي القـومَ، مُضْـطَلِعاً، إذا مـا رَئـيسُ القـومِ بالمَوْمـاةِ حَـارَا

فقد أكد شجاعة أخيه بهداية جماعته إلى الطريق السليم .

صفات مقترنة بالشجاعة

لقد وردت أبيات في شعر رثاء لبيد في أخيه ، بعض من الصفات مقترنة معها .

---

[1] شرح ديوان لبيد ، ص ٦٧.
[2] الرثاء في الشعر الجاهلي وصدر الإسـلام ، ص ٩٣.
[3] نفسه ، ص ٩٣.
[4] شرح ديوان لبيد ، ص ١٦٧.

فقد صور لنا لبيد أخلاق أخيه ، وسيرته في الناس ، حين تقوم الحرب أو حين السلم ، فهو فارس شديد وحليم عادل شديد من غير ظلم وحليم من غير ضعف في قولـــــــه[1] :

إنْ يَشْـــغَبُوا لَـــا يُبَـــالِ شَـــغْبَهُمْ أوْ يَقْصِـدُوا فِـــي الْحُكُـــومِ يَقْتَصِـدْ

حُلْـــوٌ كـــــريمٌ وَفِـــي حَلَاوَتِـــهِ مُـــرّ لَطِيـــفُ الْأَحْشَـــاءِ وَالْكَبِـــدِ

ويقول راثياً أخاه ذاكراً حزمه وعزمه في السلم والحرب جامعاً له بين المرارة أو الضرر على العدو والحلاوة أو النفع على أهله في قوله[2] :

إذا اقْتَصَـــدوا فمُقْتَصِـــدٌ أريـــبٌ وإنْ جـــاروا سَـــواءَ الحَـــقّ جـــارَا

وأكد هذا المعنى بقوله[3] :

مُمْقِـــرٌ مُـــرٌ علـــى أعدائـــه وعلـــى الأدْنَـــينَ حُلْـــوٌ كالعســـل

وهذا الجمع بين الحلاوة والمرارة والسلم والحرب نوع من الطباق ، الذي يرمي فيه لبيد إلى توكيد تلك الصفات في ذات المراثي ، وذلك لأن ؛ الشيء لا يعرف إلا بضده .

إن قرن صفة الحزم والعقل عند أربد ، يسبب الرعب والفزع للعدو من جهة و من جهة أخرى يشعر أهل أربد وقبيلته بالإطمئنان والراحة بتسليم أنفسهم ومصائرهم بأيدي أربد ، الذي يحكم عقله في كل خطوة يقوم عليها .

دوره الذي كان يشغله :

يشكل التأبين بالشجاعة ، جانباً مهما من جوانب الشعور بالوحشة أو ضعف السند ، فهو يبكيه لشجاعته التي ولت كما يبكيه لأنه فقد من القوة التي كانت من دعائم فخر وجود قبيلته ، حيث قال[4] :

---

[1] شرح ديوان لبيد ، ص ١٦١-١٦٢.
[2] المصدر نفسه ، ص ١٦٧.
[3] المصدر نفسه . ص ١٩٧.
[4] المصدر نفسه ، ص ١٦٦ ألد : شديد الخصومة .

يُـــذكِّرُنـي بأربَـــدَ كُـــلَّ خَصْـــمٍ ألَـــدّ تَخَـــالُ خُطَّتَـــهُ ضِـــرَارَا

إن إضفاء صفة الشجاعة والقوة على الخصم ، يسبغ هذه الصفات على أخيه من جهة أخرى ، بحيث يوحي بأن من انتصر على خصم ذي تلك الصفات ، إنما يتمتع بالقدرة وأسباب التفوق ، ولولا ذلك ما استجاب له الظفر ولا كتبت له الغلبة [١] .

وقال فيه مبيناً أهمية الدور الذي كان يشغله ، ثم ذهب بفقده[٢] :

وكنـــتَ إمامَنـــا ولَنـــا نِظامـــاً وكـــان الجَـــزْعُ يُحْفَـــظُ بالنِّظَـــامِ

ولـــيسَ النـــاسُ بعـــدَكَ فـــي نقيـــرٍ ولا هُـــمْ غَيْـــرُ أصْـــدَاءٍ وَهَـــامِ

لقد كان أربد إمام قومه ونظاماً لهم ، يتمسكون به كالخيط الذي ينظم فيه اللؤلـــؤ ، ولمامات أربد لم يعد للقوم إمام ولا قائد وليس الناس بعده في شيء " لم يعودوا ينفرون بعده في غزو أو غارة ، ولا هم غير أصداء وهام أي أنهم ليسوا سوى أشبـــــاح "[٣].

حق الجار وحمايته :

الجوار لغة : الجار الذي يجاورك ، جاور بني فلان تحرم بجوارهم ، والجار الحليف والناصر ، والجار الجنب ألا يكون له مناسباً فيجيء إليه ويسأله أن يجير[٤] .

ومن خلال ذلك التعريف يكون معنى الجوار : الحماية والنصر من القوي القادر للضعيف والغريب ، ومن لا تجب حمايته بسبب الجوار .

والجار في نظرهم ، له قيمة عليا يقدسها المجتمع الجاهلي ، فهو المفضل والمقدم على غيره ، ولأجله تفدى النفوس ، ويرخص المولى ، ولا نبعد عن سمت الحقيقة إذا قلنا : أن أيامهم الطاحنة والمشهورة في الجاهلية تجد بعضها في منع الجار والانتصار لكرامته ، فحرب البسوس ، بين بكر وتغلب دامت أربعين عاماً[٥] ، وسببها

---

[١] قراءات نصيه في الشعر الجاهلي ، ص ١٥٦.
[٢] شرح ديوان لبيد ، ص ٢٠٩.
[٣] شرح ديوان لبيد ، د.عمر الطباع ، بيروت ، ط١، ١٤١٧هـ ، ص ١٧٢.
[٤] لسان العرب ، أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الأفريقي المصري ، دار صادر ، بيروت ، ط ٦ ، ٢٠٠٨ م ، ٢٣٦/٣.
[٥] الأغاني ، ٣٩/٥ الكامل في التاريخ ، لأبي الحسن علي بن أبلي الكرم الشيباني ، المعروف بابن الأثير ، دار الفكر ، بيروت ، د ط ، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م ٣١٢/١.

أن البسوس[1] خالة جساس[2] نزلت في جواره ، وكانت لها ناقة تسمى سراب ، دخلت على مرعى كليب بن ربيعه[3] ، فأنكرها وأمر أحد غلمانه أن يعقرها ، وأبت أنفة وحمية جساس إلا أن يثأر لجارته ، فقتل كليب ، واضطربت نار الحرب بين القبيلتين وأنشد جساس في حق الجار[4] :

إنَّمـــــا جَـــــارِي لَعَمـــــري فَـــــاعلَموا أدنَـــــى عِيـــــالِي

وَأرَى ناقـــــــةَ جَـــــــارِي فَـــــاعلَموا مِثـــــلَ جِمـــــالِي

إنَّ لِلجـــــــــارِ عَلَينـــــــا دَفـــــعَ ضَـــــيمٍ بِـــــالعَوالِي

وحدث ما تغنى به جساس ، فهو المقدم السائد بينهم ، ولا يخالفــه رأي آخـــر ، فحماية الجار ، ورفع الضيم عنه لا يتم إلا بأسنة الرماح ، وهو القانون الأوحد الذي يحتكمون إليه بعد نفاذ كل السبل الموائمة لمنطق العقل ، لأن إهانة الجار في حمى مُجيرة هي إهانة مباشرة للمجير وقبيلته .

فليس من الجائر عندهم أن يضام الجار وتنهب حقوقه ، وإذا ما حصل ستلحقهم سبة الأقوام ولعنتهم ما لم يتداركوا أمرهم ، فيثاروا لأنفسهم أولا ولجارهم المضام ثانياً [5] .

أما بعد الإسلام فقد تطور مفهوم الجوار ، ولم يعد من الضرورة أن تكون الحماية أهم عناصره ، وإن أقر الإسلام الحماية فقد جعلها حماية تحث على إكرام الجار ، وتجعل ذلك من كمال الخلق ورسخ الإيمان بمضمونه الاجتماعي ، فقد نصت

---

[1] هي : بسوس بنت منقذ التميمية ، شاعرة ، يضرب بها المثل بشؤمها ، وهي خالة جساس ، هاجت حرب بكر وتغلب أبني وائل بسببها أربعين سنة وعرفت حرب البسوس باسمها .(الأعلام ، ٥١/٢) .

[2] جساس بن مرة بن ذهل بن شيبان من بني بكر بن وائل ، شجاع ، شاعر ، من أمراء العرب في الجاهلية ، شعره قليل ، وهو الذي قتل كليب بن وائل فنشبت حرب طاحنة بين بكر وتغلب دامت أربعين سنة ، وقتل جساس في آخرها . (الأعلام ، ١١٩/٢).

[3] كليب بن ربيعة بن الحارث بن مرة التغلبي الوائلي ، سيد الحيين (بكر وتغلب) في الجاهلية ومن الشجعان الأبطال ، وأحد من تشبهوا بالملوك في امتداد السلطة بلغ من هيبته أن كان يحمي مواقع السحاب ، فيقول : ما أظلته هذه السحابة في حماي ، فلا يرعى أحد ما تظله وكان يقول : وحش أرض كذا في جواري ، فلا يصاد ، وكان لا يورد أحد مع أبله ولا توقد نار مع ناره . وهو أخو مهلهل بن ربيعة ، وخال أمرؤالقيس بن حجر الكندي ، قتله جساس بن مره (وكان أخا زوجة كليب) . ويقال اسمه وائل وكليب لقبه (الأعلام ٢٣٢/٥).

[4] تاريخ الأدب العربي ، حنا الفاخوري ، بيروت ، ط ٦ ، د ت ، ص ٧٣.

[5] العقد الفريد ١٣٥/١.

وثيقة المدينة في عهد الرسول صلّ الله عليه وسلم على حقوق الجار ونظّمتها وجعلت الجار كالنفس الواحدة .[1]

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" **من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره**"[2].

وكاد الإسلام أن يجعل حق الجار كحق قرابة النسب في الورث في قول رسول الله صلّ الله عليه وسلم : " **مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه**" .[3]

أما الجارة فإن العرب في جاهليتهم ، نظروا إلى حرمتها نظرة لا تنفصل عن النظرة العامة لحقوق الجوار ، والمرأة تكون أضعف مستجير وبذلك اهتموا بحمايتها وحفظ كرامتها ، ومدحوا من يحفظ حق جوارها ،[4] وشهد شعرهم في ذلك مثل رثاء الخنساء لأخيها صخر إذ تقول : [5]

لـــم تَـــرَهُ جـــارَةٌ يَمشـــي بســـاحَتِها لريبـــةٍ حـــينَ يخلِـــي بيتـــهُ الجـــارُ

وعندما جاء الإسلام نهى عن الأخلاق الذميمة ، فقد جاء في الحديث الشريـــف " **لأن يزني الرجل منكم بعشرة نسوة خير له من أن يزني بحليلة جاره** " .[6] فعظم حق الجارة فصار صون عفة الجارة خلقاً دينياً وسلوكياً واجتماعياً .

وبتتبعنا في شعر رثاء لبيد لأخيه أربد الذي تطرق فيه لمكانة الجارة ، نجده يكمن في محورين :

١- القيام بإكرامها حتى لا تجوع وهي بجواره :

---

[1]- انظر السيرة النبوية ، بن هشام ، علق عليها وخرج أحاديثها : عمر عبدالسلام ، تدمري ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط ٤ ، ١٤١٣هـ -١٩٩٣م ، ١٤٦/٢.

[2]- المستدرك على الصحيحين ، الإمام أبي عبد الله النيسابوري ، دار المعرفة ، بيروت ، د ط ، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م ، ص ٥٥ .

[3]- شعب الأيمان ، أحمد بن حسين البيهقي ، تحقيق : حمدي الدمرداش ، دار الفكر ، بيروت ، ط١ ، ١٤٢٤هـ ، ٢٨٦٨/٦

[4]- انظر شعرية الفقد جدل الحياة والموت في شعر الخنساء ، ص ٩٦ .

[5]- ديوان الخنساء ، حققه كرم البستاني ، دار صادر ، بيروت ، د ط ، ١٩٦٣ م ، ص ٢٧ .

[6]- صحيح الأدب المفرد ، ص ٨٥٠

فقد وصف لنا لبيد أخاه أربد بعد موته بأنه كامل المروءة ، فقد خلع عليه صفات الرجال الكملة ، وأضفى على كرمه حق جارته في طعامه ، بقوله :[1]

وجارتُـــــهُ إذا حلّـــــتْ إليْـــــهِ لهـــا نَفَـــلٌ وَحَـــظٌ فـــي السّـــنَامِ

فجارة أربد لها حق في طعامه ؛ بل خير طعامه ، وخير الطعام السنام .

٢- عفتها وعدم النيل منها وهي بجواره .

والعفة من صفات الفرسان الكملة ، فإذا كان يثور الفارس حمية في الدفاع عن أعراض رجال قبيلته في الحرب فإنه يظل عفيف النفس عن أعراضهم في السلم ، وقد وصف لبيد عفة أخيه أربد في قوله : [2]

فـــإنْ تَقَعُـــدْ فمُكْرَمَـــةٌ حَصَـــانٌ وإن تظعـــنْ فمحســـنةُ الكـــلامِ

فقد وصف لنا لبيد عفة أخيه أربد في أيام السلم ، بأن تبقى جارته موفورة العرض مصونة الجانب ، وافرة الشرف حصان لا تمسها يد لامس ، بعيدة عن كل ريبة .

والعفة إحدى الخصال التي كان عرب الجاهلية يحبونها ، ويطمعون إلى تحقيقها في المجتمع ، فهم غالباً ما يخرجون للصيد أو الغزو ، أو التجارة أو الأسواق ، فقد فرضت طبيعة البيئة هذه الصفة وأعلت من شأنها. [3]

وستر الجارة عند الإنسان الجاهلي ، له دلالة معنوية قوية تحددها التقاليد الجاهلية ، وتدفع للمحافظة عليها ، مخافة العار ، فيرسم الشعر لها صور جميلة حتى يبدو حرص الرجل على اكتساب المحامد من ثناء الجارة علية بما أوليت منه ، وهذا ما أكده قول لبيد : " وإن تظعن فمحسنة الكلام " .

---

[1]- شرح ديوان لبيد ، ص ٢٠٤ . نفل : عطيه . حظ : نصيب .
[2]- نفسه ، ص ٢٠٤ . حصان : عفيفة .
[3]- انظر شعرية الفقد جدل الحياة والموت عند الخنساء ، ص ٩٦ .

موقف لبيد من الموت (موت أربد) :

من أهم القضايا التي برزت في شعر رثاء لبيد في أخيه ، الموقف من المـــوت (موت أربد) الذي ألم به وأجرى الشعر على لسانه ، فمما لا شك فيه أن " الموت يجعل الشاعر ينعكس على نفسه بالتأمل " [١] .

فكيف يكون تأمل لبيد من الموت وهو يفقد أخاه ؟ وما مستوى هذا التأمل وما الأفكار التي راودته كما بانت في شعره ؟ [٢].

حين نتحدث عن موقف لبيد إزاء الموت ، لابد من الحديث عن موقف الإنسان الجاهلي من الموت ، لقد أحاطت بالإنسان الجاهلي ظروف قاسية جعلته يحس أنه أمام تهديد الموت الذي يأتيه من كل مكان بشتى الطرق ، فإما بالحرب أو الثأر أو الجوع او الهرم ، فأصبح أينما يولي وجهه يرى الموت أمامه سد عليه آفاق صحرائه الواسعة التي أضحت قبراً سحيقاً لا يرجع من يهوى فيه ، أو قد يصبح تراباً أو عدماً بمجرد أن تزل قدمه فيه . [٣]

ولهذا كان الجاهلي يخشى الموت ، ويشعر بالتعاسة والفجيعة ، على الرغم من اعتياده على رؤية صور عديدة له ،فقد كان يشعر أنه أمام الموت، تلك القوة الهائلة المجهولة ، التي تأتي فجأة لتهلك من تشاء ،وتترك من تشاء على أن تعاوده ليلاً أو نهاراً ، ولم يكن هناك ما يوضح ما هيتها ويفك رموزها ويحل ألغازها . [٤]

ومما يلفت انتباهنا " غياب أثر الآلهة التي كان الجاهليون يعتقدون بها ، من أصنام وغيرها ، وبالرغم من اعتقادهم بأثرها في حياتهم إيجاباً أو سلباً ، وحرصهم على نيل رضاها وطلب ودها ، فلم يبينو مثلاً غضب الآلهة أو سخطها في شعرهم أو انتقامها منهم "[٥] ، ولم يجل في خاطر الإنسان الجاهلي أو فكرة أن يقدم تفسيراً لما

---

[١]- دراسة الأدب العربي ، مصطفى ناصف ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، د ط ، د ت ، ص ٣٩ .
[٢]- رثاء الأبناء في الشعر العربي إلى نهاية القرن الخامس الهجري ، ص ١٠١ .
[٣]- المراثي الشعرية في عصر صدر الإسلام ، مقبول علي النعمة ، دار صادر ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٩٧ ، ص ١٨ .
[٤]- المصدر نفسه ، ص ١٩ .
[٥]- رثاء الأبناء في الشعر العربي إلى نهاية القرن الخامس الهجري ، ص ١٠٢.

يراه من هيمنة الموت وسطوته أو " يفكر في القوة التي تقف وراء هذه الظاهرة ولكنه أسلم إلى حقيقة ما يراه واقعاً في حياته ، بالرغم من مرارة هذه الحقيقة " [1]، وهي حقيقة محتومة لا بد من تذوقها طال العمر أم قصر ؛ لأنه النهاية التي تؤول إليها الأحياء ، وليس للإنسان مفر ومهرب من الموت مهما اتخذ من حيل ، كما قال الحارث بن عبـــاد : [2]

وَأرَى النّـــاسَ يَنظُـــرونَ جَميعـــاً لَـــيسَ فـــيهِم لِـــذاكَ بَعـــضُ احتِيـــالِ

ولقد أحس الإنسان الجاهلي بعجزه ، مما أدى به إلى التسليم بقوة الموت وضعف أمامه ، فهو ينسب هذه القوة إلى الدهر .

ولبيد بن ربيعة عاش في ذلك العصر الجاهلي ، فلابد من أن يرتبط به ارتباطاً موضوعياً وفكرياً بالظروف الإجتماعية التي عاشها ، لذلك فهو يعبر في محتواه ومضمونة عن خصوصية تلك الظروف من خلال آراءه وأفكاره والمعتقدات التي يطرحها .

لا يختلف لبيد بن ربيعة عن غيره من شعراء عصره ، فهو ينسب الموت إلى المنون والدهر ، ويصوره بشتى الصور ، فهو أمر محتوم ومحتم واقع دون شك في قوله :[3]

مـــا إن تُعَـــرَّى المَنُـــونُ مـــن أحَـــدٍ لا والـــــدٍ مُشـــــفِقٍ ولا ولَـــــدِ

لقد أفصح لبيد بالحقيقة الناصعة ، وهي أن الموت يطول كل من على هذه الأرض ، بحيث لا يترك أحداً عارياً من المصائب لا والد مشفق و لا ولد فهو سنة الحياة الخالدة .

---

[1]- رثاء الأبناء في الشعر العربي إلى نهاية القرن الخامس الهجري ، ص ١٠١.

[2] - هو الحارث بن عباد بن قيس بن ثعلبة البكري ، أبو منذر ، حكيم جاهلي ، كان شجاعاً من السادات ، وفي أيامه كانت حرب البسوس ، فأعتزل القتال ، مع قبائل بكر ، ثم إن المهلهل قتل ولداً له اسمه بجير ، فثار الحارث ونادى بالحرب ، وارتجل قصيدته المشهورة (قربا مربط النعامه) أكثر من خمسين مرة والنعامة فرسه ، فجز ناصيتها وقطع ذنبها وهو أول من فعل ذلك من العرب ، فاتخذت سنة عند إرادة الأخذ بالثأر ، ونصرت به بكر وأسر المهلهل فجزّ ناصيته وأطلقه ، وعمر الحارث طويلاً (الأعلام ، ٢/ ١٥٦) ، بكر وتغلب ، المؤلف مهول (بمبي ، ١٩٣٥ م ، ص ٦١) .

[3]- شرح ديوان لبيد ، ص ١٥٨ . تعرى : تترك .

ويتابع لبيد حديثه عن الموت وتربص المنايا بالناس جاعلاً ذلك في قالب من الحكمة في قوله : [1]

كُــلّ بَنِــي حُــرّةٍ مَصِــيرُهُمْ قُــلّ وَإنْ أكْثَــرَتْ مِــنْ الْعَــدَدِ

فكل قوم مهما كثروا سيغدرون عما قريب قلة مبعثرة ، ذلك بسبب الموت .

وهنا ينسب الموت إل ريب البرية ، وأنه متسلط على أخيه ، حيث منعه من تحقيق أربه ، في قوله : [2]

فاعتاقَــــهُ ريْــــبُ البــــريّ ـــــــةِ إذْ رَأى أنْ لا خُلُــــــودَا

إن خوف لبيد وإحساسه بأزمته كامن في اعتقاده بفنائه وعدميته ، فكان يعتقد أن الإنسان بموته يصير إلى العدم ، حيث قال : [3]

حبائِلُــــهُ مبثُوثَــــةٌ بســــبيلهِ ويَقْنَــى إذا مــا أخطأتْــهُ الحَبَائِــلُ

فالموت مترصد للإنسان ، ويبث في طريقة حبائله فلا حيلة له إذا أخطأه الموت فلا مهرب من الفناء .

ولقد توجع لبيد من الدهر كثيراً ، فنظر إليه نظرة العداء والسخط ، حتى وصل به الحال إلى شتمه ، في قوله :[4]

لحَــا اللّــهُ هَــذا الــدّهرَ إنّــي رَأيْتُــهُ بصِــيراً بمــا سَــاءَ ابــنَ آدَمَ مُولعــاً

ويؤكد لبيد أن الفناء يطول كل شيء حتى الجمادات ، فهذا قصر ناعط الذي شيّده قوم همدان ، الذي كان يسمع عنه لشهرته ، وكل من رآه يطّلع إليــــه لعظمتــــه ، فأصبح مصيره إلى الفناء والزوال في قوله :[5]

وأفنــى بَنــاتُ الــدّهر أرْبــابَ نــاعطٍ بمُسْــــتَمَع دونَ السّــــماء ومَنْظَــــر

---

[1]- شرح ديوان لبيد ، ص ١٦٠ . قل : قليل .
[2]- المصدر نفسه ، ص ١٦٣ . اعتاقه : أي منعه وقصده .
[3]- المصدر نفسه ، ص ٢٥٤ . الحبائل : جمع حبائل وهي الشرك .
[4]- المصدر نفسه ص ١٧٣ .
[5]- المصدر نفسه ، ص ٥٥ . بنات الدهر : الأيام والليالي ويقال الأحداث . أرباب ناعط : هم من همدان . ناعط : قصر كان لهم .

الصبر :

الصبر والتجلد من الصفات العامة التي يستحب وجودها في كل الرجال المحاربين منهم وغير المحاربين ؛ لأن الصبر في ميداني السلم والحرب تعدّان من أسباب النصر أما الجزع والحزن ، فلا يجديان ويظهران الإنسان بمظهر الضعيف المتخاذل [١] .

فقد وضّح لنا لبيد صبره على الملمات وعلى فقد أخيه أربد في قوله : [٢]

فبــرَى عظــاميَ بعــدَ لحمــيَ فقــدُهم والــدّهرُ إنْ عاتَبْــتُ لَــيسَ بمُعْتِــبِ

حيث أوجز لبيد كل ما يريد قوله في (والدهر إن عاتبتُ ليس بمِعتِب) وهو أنه ليس من المفيد في شيء التحسر والحزن على ما أحدثه الدهر ، ولماذا الحزن إذا كان الدهر لا يعبأ بحزن أو غيره ، فهو ماضٍ في طريقة ولن يلتفت إلى من سخط أو عتب .

ولا يستسلم لبيد لما أصابه ولا يجزع على فراق أخيه ؛ ليس لأنه لا يهتم لما حدث له ، بل لأنه لا أحد يسلم من نوازل الدهر ، فقد كتب على الناس العذاب ، ووقف لهم بالمصائب في كل مرصد ، فصار مستهيناً بالدنيا ، لا يفرح بشيء من متاع الدنيا ، و لا يجزع إن ألمت به المصائب ونزلت عليه الكوارث [٣]، في قوله : [٤]

فَــلا جَــزِعٌ إنْ فَــرّقَ الــدّهْرُ بَيْنَنــا وكُــلُّ فَتــىً يَوْمَــاً بــهِ الــدّهْرُ فــاجِعُ

فَــلا أنَــا يــأتيني طَريــفٌ بفَرْحَــةٍ وَلا أنــا مِمّــا أحــدَثَ الــدّهرُ جــازِعُ

ويتصبر لبيد بأن القوارع تصيب كل كريم ، في قوله :[٥]

أتجــزَعُ مِمّــا أحــدَثَ الــدّهرُ بــالفَتى وأيُّ كَــريمٍ لَــمْ تُصِــبْهُ القَــوارِعُ

---

[١]- الرثاء في الشعر الجاهلي وصدر الإسلام ، ص ١٠١ – ١٠٢ .
[٢]- شرح ديوان لبيد ، ص ١٥٧ .
[٣]- لبيد بن ربيعة بن العامري ، ص ٣٣٤ .
[٤] شرح ديوان لبيد ، ص ١٦٨ .
[٥]- المصدر نفسه ، ص ١٧٢ .

فهو ينكر أن يجزع الرجل من أحداث الدهر ؛ لأن لم يكن هناك كريم لم تصبه قوارع الدهر وأحداثه ، ويتضمن أنه لا أحد يفلت من الزمن ، فما دام من يستحق الحياة والمتعة من أحداث الدهر في إطار الرؤية الجاهلية ، وهم الكرماء قد أصابتهم القوارع فإن الجميع لن يفلتوا منها .[1]

وربما جاء " إنكار الجزع نتيجة تأثير الدين الجديد ، وإن كنا نجد له نظائر في الشعر الجاهلي ، ولكن الروح الجاهلية تبدو ظاهرة جلية في نسبة الفعل للدهر ، وفي اختيار الكريم لإثبات أنه ليس في مأمن من قوارع الدهر ، وكأن الكريم ينبغي أن يكون في مأمن منها ، متميزاً عن غيره من الناس " [2] .

ومن أساليب لبيد في الصبر والتخلص من الحزن والجزع ، ذكر مآثر أخيه وتأبينه بالصفات التي تحلى بها في حياته إذ يقول[3] :

والحـــــاربِ الجـــــابرِ الحريـــــبِ إذا جـــاء نَكيبـــا وان يَعُـــدْ يَعُـــدِ

يعفـــو علـــى الجَهـــدِ والســـؤالِ كمـــا أنـــزِل صَـــوْبُ الربيـــعِ ذي الرَّصـــدِ

وقد يظن السامع لهذه الأبيات أن لبيد غير حزين بما أصابه على فقد أخيه ، وفي الحقيقة غير ذلك ، فذكر هذه الصفات والتغني بها وسيلة لجأ إليها لبيد ليصبر نفسه على فراق أخيه أربد .

---

[1]- انظر : أساليب الاستفهام في الشعر الجاهلي ، د. حسني عبد الجليل ، مؤسسة المختار ، القاهرة ، ط ١ ، ٢٠٠١ م ، ص ١٢١ .

[2]- المصدر نفسه ، ص ٤٣ .

[3] شرح ديوان لبيد : ص ١٥٨.

العــزاء

العزاء لغة : الصبر على كل ما فقدت . ويقال : عزيت تعزية وعزاء : أي أسيته وضرب له الأسى ، وصبرته ، وتعازي القوم : عزى بعضهم بعضاً [١]. ومنه قول الخنســاء [٢] :

ألا يـــا عَـــينِ فـــانهمري بغُـــزرِ وفِيضـــي عبـــرةً مـــن نـــدر

ولاَ تعـــدِي عـــزاءً بعـــدَ صـــخرٍ فقـــد غُلـــبَ العـــزاءُ وعيـــلَ صَـــبري

فالخنساء لا تستطيع أن تصبر فقد عجزت عن العزاء والصبر .

كل ما في الوجود يولد ويكبر إلا المصيبة ، فإنها تولد كبيرة ، ثم تصغر شيئاً فشيئاً حتى تتلاشى هي الأخرى بفعل العزاء ومرور الزمن ، والاعتبار بمن مضى من الأقوام ، وبمن قضى من المخلوقات ، فحين يأتي الناعي بخبر النعي ، فإن الأسى يعظم في نفس المصاب ، وتكبر المصيبة ، وتلتهب العواطف ، ثم تأخذ حدة العواطف بالإضمحلال لحظة إثر أخرى ، وتدرج الرضا في النفس البشرية إلى مرحلة النسيان [٣].

فالرثاء قد خرج من دائرة التفجع والبكاء بفعل العزاء ، وخرجت النفس الإنسانية من حالة الندب والإنفعال والحزن إلى حالة الأمل والرجاء التي تقوي النفوس على الصبر والعزاء ثم النسيان .

ولقد كان العزاء " من أكثر الموضوعات التي تحدث الناس فيها في الجاهلية ولا يزال إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وكل امرئ يتكلم إما معزياً أو متعزيـــاً ، مسلياً أو متسليا ، ويتعزى بالأقوام ، والأفراد ، والمخلوقات على الســـواء " [٤] . وقد ذكر فوزي عطوي ، أن الرثاء العربي كان بمجملة رثـــاء يائســـاً ، دافعاً إلى اليأس والقنوط [٥] ، ووصفه هذا قد ينطبق على بعض شعر الرثاء لا على جميعه .

---

[١] لسان العرب ، ١٤١/١٠ ، القاموس المحيط ، ص ٩٨.
[٢] ديوان الخنساء ، ص ١٧٧.
[٣] الرثاء في الجاهلية والإســـلام : ص ١٨٣ .
[٤] المصدر نفسه ، ص ١٨٤.
[٥] ابن الرومي " شاعر الغربة النفسية " ، فوزي عطوي ، دار الفكر العربي ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٩٨م ، ص ٨٥.

ويرى لبيد بن ربيعة من العزاء مواساة نفسه والآخرين ، صابغاً ذلك بحديث عن فلسفة الموت ، بحيث ينطلق من حادثة الموت إلى التفكر في الحياة ومصير الإنسان ، فنرى لبيد بعد أن يحزن على أخيه ويبكي لفراقه ويعبر عن أساه ، ما يلبث أن يحكم عقله ، بأن الموت حتم لازم لكل إنســـان مهما طال عمره ، فالعزاء ، إذاً ينبع من نظرة لبيد إلى الحياة على أنها دار زوال وانتقال ، وليست دار بقاء واستمرار[١] .

والتعزية عند لبيد بشكل عام ، صادرة عن تعقل وتروٍّ ، حيث ينتج لنا حكماً بليغة خالدة تدل على نظرات عميقة في الحياة وحتمية الموت .

وقد استمد لبيد ألوان العزاء من مظاهر البيئة التي عاش فيها ، من الحياة الإنسانية وموت الناس وزوال الممالك والدول العظيمة ، كما يستمد ألوانه من مظاهر الطبيعة الحيوانية أو الصحراوية ، وكان ذلك شائعاً عند شعراء العرب القدماء ، حيث قال ابن رشيق : " ومن عادة القدماء أن يضربوا الأمثال في المراثي بالملوك الأعزة والأمم السابقة والوعول الممتنعة في قلل الجبال ، والأسود الخادرة في الفيافي ، وبحمر الوحوش المنصرفة بين القفار ، والنسور والعقبان والحيات لبأسها وطول أعمارها ، وذلك في أشعارهم كثير موجود ولا يكاد يخلو منه شعر "[٢] .

أ- نماذج العزاء في مظاهرة الحياة الإنســـانية :

استمد لبيد عزاءه من موت العظماء من الناس مثل الملوك وذوي الشأن العظيم من الناس في هذه الحياة ، وزوال الممالك والدول العظيمة . وذلك لأن لبيد عاش بعض فترات عمره بالقرب من بيئات متحضرة أو شبه متحضرة[٣] ، حيث أراد لبيد إعطاء صورة عامة عن النعيم الذي عاشه الملوك والسلاطين ثم التذكير بنوبات الدهر

[١] فن الرثاء ، ص ٨٦.
[٢] العمدة ، ٨٣٦/٢.
[٣] انظر لبيد بن ربيعة العامري ، ص ٩١.

التي لن يسلم منها أحد ، وقد نجح لبيد في تسخير مظاهر الممالك الزائلة لتعزية نفسه وغيره من الناس ما يفعله الدهر في قوله [1] :

غَلَبَ اللّيالي خَلْفَ آلِ مُحَرِّقٍ ... وكمَا فَعَلْنَ بتُبَّعٍ وبهِرْقِلِ

وغَلَبْنَ أبْرَهَةَ الذي أَلْفَيْنَهُ ... قد كان خَلَّد فوقَ غرفةِ موكلِ

والحارثُ الحرَّابَ خلَّى عاقِلاً ... داراً أقامَ بها ولَم يَتَنَقَّلِ

تَجري خَزَائِنُهُ على مَنْ نَابَهُ ... مجْرى الفراتِ على فِرَاضِ الجدوَلِ

حتى تحملَ أهلُهُ وقطينُهُ ... وأقامَ سَيِّدُهُمْ ولَم يَتَحَمَّلِ

والشّاعِرُونَ النّاطِقونَ أراهُمُ ... سلكوا سبيل مرقّشٍ ومهلهلِ

فالشاعر يتأسى بموت السابقين من آل محرق وتبع وهرقل وأبرهه الحبشي ، والحارث الحراب بن عمرو حجر الكندي وكذلك يتأسى بموت الشعراء الذين سلكوا طريق مرقش الأكبر والأصغر ومهلهل أخو كليب وائل الشاعر المشهور ، وكأنه يذكر من غفل عن الموت بمصارع الغابرين ، وأن الحياة قصيرة ، وعليهم أن يعتبروا ويستعدوا .

فهو " يتأمل حياة الملوك الذين شيدوا القصور وعمروا الجنان ، وأقاموا الحصون والأسوار ، وذاع صيتهم وامتلأت قلوب الناس رهبة منهم وإجلالا لهم ومع ذلك أفناهم الدهر وجعلهم خبراً مجرداً فامتلأت القلوب خشية ورهبة من الدهر حينا واستسلاماً للقضاء والقدر حيناً آخر " [2].

نماذج العزاء في مظاهر الطبيعة :

يستمد لبيد هذا اللون من بيئته البدوية الساذجة وأول من يمثل هذا اللون عنده الوعل " وقد ضرب بالوعل المثل في المقاومة والمواجهة إلى أقصى حد " [3] .

---

[1] شرح ديوان لبيد ، ص ٢٧٥-٢٥٦ . الخلف : البقية من الناس ، خلد : أقام وسكن ، الفراض : فوهة النهر ، تحمل : ارتحل .
[2] رثاء الممالك والملوك في الشعر الجاهلي ، عبدالخالق عيسى ، الجامعة الأردنية ، الأردن ، د ط ، ١٩٩٤م ، ص ٣١.
[3] شعر الرثاء في العصر الجاهلي ، دراسة فنية ، ص ١٢٦.

حيث يصور لبيد الوعل متحصناً بأعالي الجبال الوعرة التي لا يستطيع أن يرتقيها أحد ولا يتهتدي إليها ، وهو آمن فيها منعم ، ولديه من النبت ما يشاء ، ومع هذا التحصن والأمان يأتيه الموت فيفنيه ، ولهذا كان فناء الوعل أقصى درجة يمكن للموت أن يصل إليها حيث قال[1] :

لـــو كـــان شـــيءٌ خالـــداً لتواءَلَـــتْ عصْـــماءُ مُؤلِقَـــةٌ ضـــواحيَ مأسَـــلِ

بظُلُوفِهـــا ورَقَ البَشَـــامِ ودُونَهـــا صَـــعْبٌ تَـــزِلُّ سَـــرَاتُهُ بالأجـــدَلِ

ولم يكتف لبيد بنموذج واحد بل ذكر النسر رمزاً للخلود وطول العمر ؛ لأنه من الطير المعمر لقدرته على مقاومة الزمن أطول مدة ممكنة ، وكذلك تقترن بالنسر صفة أخرى وهي صفة الارتفاع والعلو ، فهو يطير دائماً على ارتفاع عال ، ويقترن هذا الارتفاع في ذهن الشاعر الجاهلي بالبعد والتمنع كما عند الوعل[2] وفي ذلك يقول لبيـــد[3] :

ولقـــد جـــرى لُبـــدٌ فـــأدركَ جريَـــهُ رَيْـــبُ الزَّمـــانِ وكـــانَ غَيـــرَ مُثقَّـــلِ

لمّـــا رأى لبـــدُ النســـورَ تطـــايرتْ رفـــعَ القـــوادمَ كـــالفقيرِ الأعـــزلِ

ولـُبد هذا كان نسراً للقمان بن عاد ، عاش دهراً طويلاً [4] ، ولكن الزمن لم يفلته كما لم يفلت الوعل السابق .

فلما أعجز الدهر لبيد ، تفكر في مظاهر الطبيعة من نجوم وأنواء وجبال ومخلوقات ، فتأكد له ، ما يلقاه من هذا المصير . ولهذا أخذ يعزي نفسه ، ويعزي الآخرين من جهة أخرى ، بأن الموت مصير كل حي ولا مجال للخلود ، في قوله[5] :

بلينـــا ومـــا تبلـــى النجـــومُ الطَّوالِـــعُ وتَبْقَـــى الجِبـــالُ بَعْـــدَنَا والمَصـــانِعُ

---

[1] شرح ديوان لبيد ، ص ٢٧٢ . تواءلت : نجت ، العصماء : أنثى الوعل ، ضواحي : نواحي ، مأسل : اسر ، الأجدل : الصقر .

[2] شعر الرثاء في العصر الجاهلي دراسة فنية ، ص١٣٠.

[3] شرح ديوان لبيد ، ص ٢٧٤ . لبد : أحد النسور السبعة .

[4] هو لقمان بن عاد بن ملطاط من بني وائل ، من ملوك حمير في اليمن ، يلقب بالرائش الأكبر ، زعم أصحاب الأساطير أنه عاش عمر سبعة نسور ، وهو غير لقمان الحكيم المذكور في القرآن (الأعلام ٢٤٣/٥).

[5] شرح ديوان لبيد ، ص ١٦٨.

فهو ينظر إلى نفسه وإلى الناس ، فكلهم أبناء فناء وجميعهم صائرون إلى البلـــى ، وتبقى حركة الزمان خالدة مستمرة تدور ولا تتعب ، فالنجوم طوالع والجبال والبيوت ثابتة[1] .

وقد ذكر لبيد أن كل أخوين ستنتهي حياتهما ، ولا يستثنى من الفناء ، إلا مظاهر الطبيعة من جبال ونجوم ، فهي ثابتة لا تزول ولن يطرأ عليها مجرد تحدث بانهدامها في قولـــه[2] :

فَهَـلْ نُبِّئْـتَ عَـنْ أخَـوَيْنِ دَامـا علـــى الأيّـــام إلاَّ ابْنَـــي شَـــمَامِ

وإلاَّ الفَرْقَـــــدَيْنِ وآلَ نَعْـــــشٍ خَوَالِـــدَ مـــا تَحَـــدَّثُ بانْهِـــدَامِ

يتضح مما تقدم أن العزاء والخلود ، موضوعان متكاملان في شعر رثاء الأخ عند لبيد وقد تركزت المعاني فيه ، حول العبرة من الحيـــاة واليـــأس من الخلـــود ، وضرب الأمثال بذلك من الأقوام والديار ، والحيوان وما يحيط بالإنسان من الطبيعة وغيرها .

الحكمة :

تعرف الحكمة لغة بأنها : المنع ، فأصل الحكم المنع ، حكمت الرجل تحكيما : إذا منعته مما أراد .[3]

وقد وردت كلمة (الحكمة) دالة على عدد من المعاني ، منها :

- العدل : الكلام الموافق للحق ، وضع الشيء في موضعه ، كما أنها عند اليونان القدامى ترادف الفلسفة .[4]

---

[1] لبيد بن ربيعة العامري ، ص ٣٣٤.

[2] شرح ديوان لبيد ، ص ٢٠٨ .

[3] - الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية ، إسماعيل بن حماد الجوهري ، تحقيق : أحمد عبد الغفور ، دار الملايين ، بيروت ، ط ٢ ، ١٣٩٩- ١٩٧٩ ، ٥/ ١٩٠٢.

[4] - الصحاح في اللغة والعلوم ، تجديد صحاح العلامة الجوهري ، عبد الله العلايلي ، إعداد : نديم مرعشلي وأسامة مرعشلي ، دار الحضارة العربية ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٧٤ م ، ص ٢٨٦ .

- الفهم والتفقه [1]: قال تعالى : (وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ) [2] يعني العلم والفهم .

- والحكمة إصابة الحق بالعلم والعمل ، ومعرفة الحقائق على ما هي عليه بقدر الاستطاعة ، كما أنها الحلم وهو ضبط النفس والطبع عن هيجان الغضب .

- كما جاءت بمعنى العلم الذي يأتي به الله على من يشاء من عباده ، قال تعالـــــى : (يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ) .[3]

أما تعريفها اصطلاحاً ، فقد تعددت تعريفاتها فمنها ، الحكمة : قول بليغ موجز يحاول سن نظم خلقية يتبعها الناس ، فيما يرضونه من خصال وسلوك ، أو ما ينكرونه من أفعال وعادات ، تصاغ في بيت شعر أو مثل أو عبارة أنيقة موجزة غزيرة المعنى ، ذات دلالة بعيدة . [4]

ويعرفها أحمد الزيات : " هي قول رائع موافق للحق ، سالم من الحشو ، وهي ثمرة الحنكة ، ونتيجة الخبرة وخلاصة التجربة " .[5]

وحد الحكمة أنها اتفاق المعاني اللائقة بأحوال الناس ، والتعبير عما يحدث لهم في غالب الأمور ولا تصدر في الغالب إلا من العقلاء المجربين المتبصرين بعواقب الأمور فينطلق الإنسان عن أحوال الناس بكلمة تجمع أنواعاً كثرة . [6]

---

[1]- الصحاح في اللغة والعلوم ، تجديد صحاح العلامة الجوهري ، ٢٨٦ .
[2]- سورة لقمان ، آيه : ١٢ .
[3]- سور البقرة ، آيه ٢٦٩ ، انظر : حركة الشعر في نجران في الجاهلية وصدر الإسلام ، فائزة رداد العتيبي ، نادي نجران الأدبي ، نجران ، ١٤٣٠ هـ ، ٢٠٠٩ م ، ص ٢٠٢ .
[4]- الشعر الجاهلي ، خصائصه وفنونه ، يحي الجبوري ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط ٧ ، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م ، ص ٤٠٣.
[5]- تاريخ الأدب العربي ، أحمد حسن الزيات ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر ، القاهرة ، ط ٥ ، د ت ، ص ١٨ .
[6]- حركة الشعر في نجران في الجاهلية وصدر الإسلام ، ص ٢٠٣ .

والناس متفاوتون في ذلك ، فمنهم من يتوسط ومنهم من يجيد [1] وتأتي الحكمة نثراً ، كما تأتي شعراً .

والحكمة تمثل قيماً كثرا منها : دينية وتاريخية واجتماعية وسياسية وعقلية وتربوية ، لأنها تعكس بيئة المجتمع وحياته الأخلاقية وتصرفات الفرد فيه ؛ لأنه ابن البيئة .

ويمكن تعريف الحكمة الشعرية بأنها : تلخيص الفكر العميق والمعاني العظيمة في الأبيات الشعرية باللفظ الدقيق الموجز ، في دلالته على المعنى ، أو هي إيراد المعاني العظيمة التي أعجب بها العرب ودرجوا على تسميتها جوامع الكلم ، في الأبيات القليلة الموجزة ، والدالة على المراد .[2]

وقد عرف العرب في الجاهلية كثيرا من الحكماء ذاع صيتهم وعرفت حكمتهم مثل قس بن ساعده ، ولقمان بن عاد ، ولقيم بن لقمان ، وعامر بن الظرب ، ومجاشع بن دارم ، وأكثم بن صيفي ، وربيعة بن حذلر ، وهرم بن قطبة .[3]

وظهرت الحكمة في شعر شعراء الجاهلية ، إذ كانوا يختتمون بها قصائدهم ، وفيها وعظ وإرشاد ونظرات في الحياة يعتمدها الشاعر من تجاربه الخاصة أو من تجارب الآخرين ، مما تمدهم به البيئة الصحراوية القاسية ، وأنها لم تكن غرضا مقصورا من أغراض الشعر ، وقد انفرد بعض الشعراء الفحول بالإكثار من ذكر أبيات حكيمة ، كزهير بن أبي سلمى ، وعدي بن زيد العبادي ، وشاعرنا لبيد وغيرهم والمتفحص لشعر لبيد يجد أن نظراته الحكيمة ومعانية كانت قريبة من المعاني الإسلامية ، وذلك لأن الفترة التي سبقت عهد الرسالة الإسلامية فترة إرهاص وتهيوء

---

[1] - جوهر الكنز ، نجم الدين أحمد إسماعيل بن الأثير الحنبلي ، تحقيق : محمد زغلول سلام ، دار منشأة المعارف ، ط ١ ، د ت ، ص ٥٦٧ ، انظر : حركة الشعر في نجران في الجاهلية وصدر الإسلام ، ص ٢٠٣ .

[2] - الأدب الجاهلي ، غازي طليمات و عرفان الأشقر ، دار الفكر ، دمشق ، ط ١ ، ١٤٢٢ هـ ، ص ٢٦٠ .

[3] البيان والتبيين ، ١/ ٣٦٥ .

فقد كان هناك إحساس بقرب هذا العصر وتبدل في القيم والمعايير ونبذ التوحش والعصبية والجهل وانتشار الحلم والعدل وتهذيب الخلق وجمع الشمل وتكتيل للجهود وما حلف الفضول إلا مثل لتلك الفترة فليس غريبا أن تظهر معان قريبة من المعاني الإسلامية في شعر لبيد وغيره من الشعراء .[١]

ويظهر في شعر لبيد كثير من السمو إلى ما وراء الطبيعة ، والتأمل والتروي في آيات الله وهدف الإنسان في الحياة ، ونهايته ومصيره بأسلوب فيه قوة وعاطفة شديدة التأثير ، و " كان يتسامى في شعره وينفرد بهذه الخاصية عن زهير بن أبي سلمى الذي يلتمس الأمور المادية البشرية ، وعن أمية بن أبي الصلت الذي يصور وخبر ، وعن عدي بن زيد الذي اتبع طريق التشـــــاؤم واليـــأس ، فلبيد يجمع بين هذه الطرائق الثلاث ... ويؤمن بالله إيمانا تاما ويتكل على عنايته اتكالا وثيقا حتى يمكن القول أن لبيد خالق الشعر الوعظي "[٢] وقد عد الجاحظ لبيدا في جملة الحكماء والخطباء والبلغاء والحكام والرؤساء .[٣]

وكان طبيعيا أن تظهر الحكمة على لسان لبيد ، لأن لبيد قد عاش عمراً طويـــلاً ، وعاصر أجيالاً عديدة ، وشارك في أسفار ووفود كثيرة ، وقد أدى ذلك لإزدياد تجاربه بالناس والحياة ، وتوسع مداركه ، وامتداد أفقه .[٤]

وحكم لبيد منثور في قصائد كثيرة ، يهمنا منها ما جاء في رثاء الأخ ، حيث سأحاول تتبعها في السطور التالية مبيناً نظرة لبيد في الحياة والموت .

---

[١]- لبيد بن ربيعة العامري دراسة أدبية ،يحيي الجبوري ، مطبعة المعارف ، بغداد ، ط ١ ، ١٣٨٢ هـ - ١٩٦٢ م، ص ١٠٠.
[٢]- الروائع طرفة ولبيد ، فؤاد أفرام البستاني ، بيروت ، المطبعة الكاثوليكية ، د ط ، ١٩٢٩م ، ٢٤١/٢٤ .
[٣]- البيان والتبيين ١٢/ ٣٦٥ .
[٤]- انظر : لبيد بن ربيعة العامري ، ص ٣٣٢ .

وليس من الغريب أن يرتبط الرثاء بالحكمة " فالرثاء يدعو إلى التفكير في الحياة والموت والزمان وتذكر الماضين الذاهبين ، فهو يسجل في هذا تجاربه وخبراته في حكم يسوقها وأمثاله يضربها " .[1]

فقد أثر فيه فقد أخيه أربد أعظم تأثير ، مما أضفى على نفسه طابعاً من الكآبة والآسى جعله يطيل التأمل والتفكير في الحياة والموت الذي هو مصير كل حي .

وقد قال لبيد في ذلك : [2]

ومَـــا النّـــاسُ إلاّ كالـــدّيارِ وأهْلُهـــا ... بهـــا يَـــوْمَ حَلّوهـــا وغَـــدْواً بَلاقِـــعُ
ومَـــا المَـــرْءُ إلاَّ كالشِّـــهابِ وضَـــوْئِهِ ... يحـــورُ رَمَـــاداً بَعْـــدَ إذْ هُـــوَ ســـاطِعُ
ومَـــا البِـــرَّ إلاَّ مُضْـــمَراتٌ مـــنَ التَّقَـــى ... وَمَـــا المَـــالُ إلاَّ مُعْمَـــراتٌ وَدائِـــعُ
ومَـــا المـــالُ والأهْلُـــونَ إلاَّ وَديعَـــة ... وَلابُـــدَّ يَوْمـــاً أنْ تُـــرَدَّ الوَدائِـــعُ

فهو ينظر إلى الديار فيراها عامرة زاهرة وما هي إلا أيام حتى لا تجد منها غير رسوم مقفرة ، وآثار بالية تتلاعب بها الرياح ويسفى عليها التراب ، والإنسان في نظر لبيد في سرعة زواله وفنائه يشبه النار ، فهو ما إن يراها ساطعة منيرة حتى تعود بعد لحظات رمادا هادئاً بالياً لا خير فيه . وإن كان يدافع عن نفسه ، فالإنسان في هذه الحياة لا يملك بيده سلاحاً يستطيع أن يدافع به عن نفسه وإن ما يجمعه من مال ما هو إلا وديعة مستردة في يوم من الأيام حتى هو نفسه وديعه أيضاً علـــى هذه الأرض ، ولابد له من يوم يعود فيه إلى بارئه وخالقه ، فيمضي مع أقرانه وخلانه وجيرانه إلى وادي الفناء ، وكأنهم إبل يزجرها راعيها ، يسوق ما تفرق منها ليضمه إلى القطيع السائر ، وهو هنا يؤكد حقيقة كبرى وهي : أن الموت يصيب كل حي ولا ينجو منه أحد .[3]

---

[1]- لبيد بن ربيعة العامري ، ص ٣٣٣.
[2]- شرح ديوان لبيد ، ص ١٦٩ – ١٧٠ . غدواً : غداً . الشهاب : النار ، يحور : يصير .
[3]- لبيد بن ربيعه العامري ، ص ٣٣٤ – ٣٣٥ .

وقد ظهرت النظرة الحزينة التي اتسم بها شعر رثاء الأخ عند لبيد في نظرته إلى الحياة ، وسأمه من طولها ، وتذمره من الشيخوخة كما في قوله : [1]

ألـــيْسَ ورائـــي، إنْ تراخَـــتْ مَنيّتـــي لُـــزُومُ العَصَـــا تُحْنَـــى علَيهـــا الأصـــابعُ

أخبّـــرُ أخبـــارَ القـــرونِ التـــي مضـــتْ أدبُّ كـــأنّي كُلّمـــا قمـــتُ راكـــعُ

فلبيد ينظر للحياة نظرة كئيبة عابسة ، فليس فيها وإن طالت إلا البـؤس والشقـاء ، فإذا أخطأه الموت وامتد به العمر داهمته شيخوخة ثقيلة مملة .

فقد عاش لبيد زمناً طويلاً مملاً حتى سئم من الحياة وطولها ، فهو لذلك لا يحفل متى هلك وحسبه من أيامه ما مضى ، لان طول العمر يورث السآمـه والممـل ، في قوله : [2]

فمَتَـــى أهْلِـــكْ فَـــلا أحْفِلْـــهُ بَجَلَـــي الآنَ مِـــنَ العَـــيشِ بَجَـــلْ

مـــنْ حيـــاةٍ قـــدْ مَلِلْنـــا طُولَهَـــا وجَـــديرٌ طُـــولُ عَـــيْشٍ أنْ يُمَـــلّ

فهو يستثقل طول العمر ، وما نتج عنه من سأم وضيق شديدين ، ومن شيخوخة محملة بهموم الأيام الخوالي .

ولماذا هذا العمر الطويل والنهاية واحدة هي الموت والفناء عاجلاً أو آجلاً في قوله : [3]

فَلَـــا تَبْعَـــدَنْ إنّ الْمَنِيّـــةَ مَوْعِـــدٌ عَلَيْنَـــا فَـــدَانٍ لِلطُّلُـــوعِ وَطَـــالِعُ

فهو يرى أن المنية موعد للمرء يلقاه وتلقاه عاجلاً أو آجلاً، فالموت حتم لا مفر منه .

---

[1]- شرح ديوان لبيد ، ص ١٧٠ - ١٧١.
[2]- المصدر نفسه ، ص ١٩٧ .
[3]- المصدر نفسه ، ص ١٧١ .

مل لبيد من الحياة ، حتى إنه ليفضل الموت عليها ، لكن من يعلم متى يكون هذا الأمر وما علم ذلك إلا في كتاب عند الله – عز وجل - ؟ لا يعلمه أحد غيره ، لا القائف و لا الحازر والكاهن ، ولا زاجرات الطير الضاربات بالحصى ، يعلمن الغيب الذي هو طي المجهول ، والذي مفاتيحه عند الله ، حيث يقــول : [1]

أعــــاذلَ مـــــا يُـــــدريكِ، إلاَّ تظنيّـــــاً إذا ارتحـــلَ الفتيـــانُ مـــنْ هـــوَ راجـــعُ

لعَمْـــرُكَ مـــا تَـــدري الضَّـــوَاربُ بالحصَـــى وَلا زاجِـــراتُ الطّيـــرِ مـــا اللّـــهُ صـــانِعُ

سَـــلُوهُنَّ إنْ كَـــذَّبتموني متـــى الفتـــى يـــذوقُ المنايـــا أوْ متـــى الغيـــثُ واقِـــعُ

حيث كانت العرب تزجر الطير للتنبؤ بالآتي ، وهو يسفه هذه العادة ، لأنها لا تبدل الواقع والمصير ، ويسخر من اللواتي يزجرن الطير لأنهن لا يعرفن متى تكون منية الفتـــى ، ومتى تأتي السماء بالغيث .

ثم ينظر لبيد نظرة أخرى إلى الناس في حياتهم ، كيف يحيون ، وما نصيبهم من السعادة والشقاء ، فما السعادة إلا في العمل الصالح وما الشقاء إلا في التواكل والتخاذل والتكاسل والرضى بخسيس العيش ، وما الناس إلا عامل يرفع البناء وآخر قانع يهدم ما بناه ، وشتان بين الاثنين ، في قوله : [2]

ومَـــا النـــاسُ إلاَّ عـــاملانِ: فعامِـــلٌ يتبِّـــرُ مـــا يبنـــي ، وآخـــرُ رافِـــعُ

فمِـــنْهُمْ سَـــعيدٌ آخِـــذٌ لنَصِـــيبِهِ وَمِـــنْهُمْ شَـــقيٌّ بالمَعيشَـــةِ قـــانِعُ

ومن الحكم التي جاءت في شعر رثاء الأخ ، قوله : [3]

واكـــــذِبِ الـــــنّفْسَ إذا حَـــــدّثْتَها إنّ صِـــدْقَ الـــنّفسِ يُـــزْري بالأمـــلْ

---

[1]- انظر : شرح ديوان لبيد ، ص ١٧٣ .
[2]- المصدر نفسه ، ١٧٠ .
[3]- المصدر نفسه ص ١٨٠ .

فلبيد يرى أن على الإنسان أن يكون قوي الإرادة ماضي العزيمة ، لا يطاوع شهوات نفسه فتقعد به دون آماله .[1]

يتضح مما تقدم تميز اسلوب حكم لبيد في شعر رثاء الأخ بالوضوح ، إذ لا غلو فيه ولا تعقيد ، وهذه ميزة اسلوبية يشترك فيها شعره الجاهلي وشعره الإسلامي ، وربما يرجع تميزه هذا إلى الموضوعات التي طرحها في حكمه ، والتي كان لها انعكاسات على نفسيته .

ويغلب على شعر الحكمة في رثاء الأخ عند لبيد أن يكون عاماً لا خاصاً ، إذ يتحدث فيه عن أمور تهم الناس جميعاً ، كقضية الموت والحياة ، مما أكسبه خلوداً وانتشاراً على الرغم من اختلاف الزمان والمكان .

ويظهر من خلال استقصاء شواهد الحكمة في شعر رثاء الأخ الإسلامي عند لبيد ، زيادة حكمته الإسلامية نضجاً ، فهي ثمرة تجارب طويلة في الحياة والناس ، ومن خلال إطلاعه على القرآن ومعانيه .

وهذه التجارب التي كان لها أكبر الأثر في رقي عقلية لبيد ،ونفاذ بصيرته وسداد رأيه وزاد من نضج حكمته الإسلامية بأنه توجه بها إلى الله فاكتسب ثواباً دينياً لا تبليه الأيام أو تغير لونه السنون .

الفراغ :

يترك الميت مهما كان قدره فراغاً في حياة أهله وذويه ، فكلما عظم قدر الميت في حياته عظم ذلك الفراغ ، وقد ركز لبيد في رثاء أخيه على هذا الجانب وبالغ فيه أحيانا ، حيث خلع على أخيه كثيراً من أوصاف الكرم والشجاعة[2] وغير ذلك من

[1]- لبيد بن ربيعة العامري ، ص ٣٤٤ .

[2] انظر : المراثي في جمهرة أشعار العرب ، محمد علي الشهري ، رسالة ماجستير ، جامعة أم القرى ، كلية اللغة العربية ، ١٤٢٣هـ -٢٠٠٣م ، ص٧٢.

خلال الخير كما مر معنا . ويخصص لبيد أكثر من ثلثي قصيدته الميمية عن مآثر أخيه ، إذ يقول : [1]

ألاَ ذَهَـــبَ المُحَـــافِظُ والمُحَـــامِي	وَمَـــانعُ ضَـــيمِنَا يَـــومَ الخِصَـــام
وأربَـــدُ فـــارس الهَيجَـــا إذا مـــا	تَقَعّـــرت المشَـــاجرُ بالخيَـــام
تَطِيـــرُ هيجانهَـــا مُتَأبّضَـــات	وفـــي الأقـــرانِ أصـــورَهُ الرِّعَـــام
علـــى فَقـــدِ الحَريـــبِ إذا اعتراهـــا	وعنـــد الفَضـــلِ فـــي القُحَـــمِ العِظَـــام
خُبَاسَـــاتُ الفـــوارسِ كـــلّ يـــوم	إذا لـــم يُـــرجَ رســـلُ فـــي السَّـــوام
إذا مـــا تعـــزُبُ الأنعـــام راحـــت	علـــى الأيتـــام والكَـــلّ العيـــام
وَ جَارَتُـــــهُ إذا حلّـــــتِ إليـــــه	لهـــا نَفَـــلُ وَحَـــظّ فـــي السَّـــنَام
فإن تَقعُد فَمُكرَمَـــةٌ حَصَـــان	وإن تَظعَن فَمُحسِنِـــةُ الكـــلام
و إن تَشرَب فنعم أخُـــو النَّدامـــى	كريـــمٌ مَاجـــدٌ حُلـوُ النَّـــدم
وكنت إمامنـــا ولنـــا نِظامـــاً	وكان الجَزعُ يُحفَـــظُ بالنِّظـــام
وَ لَيسَ َ الناسُ بَعدَكَ َ في نَقِيـــرٍ	ولا هُم غَيـــرُ أصـــداء وَهَـــام

حيث لجأ لبيد إلى التنويه بمأثر أخيه الذي ترك فراغاً كبيراً في نفسه بعد موته فحاول الحديث عن تلك المآثر لتسلية نفسه عن الحزن والألم الذي حل به بتكرار تلك المناقب والخصال النبيلة التي تحلى بها أخاه في حياته ، فهو المحافظ والمحامي ومانع الضيم ، وأربد فارس الهيجاء يوم الفزع حين تسقط الهوادج والخيام ويكلب الشتاء أو الحرب ، فكأن القبيلة فقدت حياتها بفقده ، وذبحها الزمان بمداه المسنونة ، لقد نجح لبيد في تعميم الخاص ، بل لقد عم بالفقد القبيلة كلها .

ويتخذ لبيد من تلك المناقب وسيلة للقضاء على الفراغ الذي حل به بعد موت أخيه ، ومن جهة أخرى يشعر لبيد بأنه يعيش في ذكريات الماضي التي تجمعه وأخيه وكل من شملهم خصاله النبيلة . [2]

---

[1]- شرح ديوان لبيد ، ص ٢٠١ – ٢٠٦ . حصان : أي عفيفة . محسنة الكلام : أي تثني ثناء حسنا . النظام : هو الخليط الذي ينظم فيه اللؤلؤ ، الجزع : الخرز النقير : النقرة خلف النواة . أصداء : نوع من أنواع الطير .

[2]- انظر : الرثاء في الشعر الجاهلي وصدر الإسلام ، ص ٦٨ .

حال لبيد بعد الحدث (موت أربد) :

كان لبيد أقرب الناس لأخيه أربد ، وألصقهم به ، فمن الطبيعي أن يكون وقع الحدث (موت أربد) أكثر ما يكون على لبيد ، ومن الطبيعي أيضاً أن يؤثر الحدث على لبيد إلى أخر حد ، وأبعد مدى ، ويصبح حاله غيره الحال التي كان عليها ، حيث تختفي الآمال وتسيطر الآلام .[1]

فقد كشف لبيد عن مظاهر حزنه وآثاره فيه كشفاً صادقاً ، وقدم شرائح في نفسه بانت عليها قروح المأساة وبقعها ، في قوله : [2]

فَبَرَى عِظامَي بعد لحمَي فَقدُهُم والدهرُ إن عاتبتُ ليس بِمعتِب

فهو يخبرنا بما أصابه من الوهن والضعف بعد فقد أقربائه الذين من بينهم أخيه أربد . ويتجه لبيد إلى تصوير حزنه ، ونقل احساسه بالمحنة والشعور بالفقد من القلب إلى سطح القصيدة في كلمات قادرة على نقل تلك المشاعر والأحاسيس في قوله : [3]

لَعَمرُ أبيكِ الخير يا ابنة أربـــد لقد شَفَّنِي حُزنٌ أصابَ فَأوجَعَا

فراقُ أخٍ كان الحبيب فَفَاتَنِي وَ وَلَّى بهَ رَيبُ المَنونِ فَأسرَعَا

حيث وضح لنا لبيد سبب حزنه وهو فقد أخيه ، الذي تعلق به تعلقاً شديداً ، وهذه المكانة التي أحتلها أربد ، تتضح في مناداته ووصفه له " أخ كان الحبيب " فكلمة الحبيب تؤكد المكانة المعنوية لهذا الأخ ، وكذلك المكانة المادية التي احتلها وشغلها في حياته .[4]

---

[1] - رثاء الأبناء في الشعر العربي إلى نهاية القرن الخامس الهجري ، ص ١٩ .
[2] - شرح ديوان لبيد ، ص ١٥٧.
[3] - المصدر نفسه ، ص ١٧٣ .
[4] - انظر شعرية الفقد جد الحياة والموت في شعر الخنساء ، ص ٥٧ . .

وكان من مظاهر حزن لبيد وتحسره البكاء ، وذلك لأن " الرثاء حزن وبكاء ولوعة وتفجع " [1] وقد تحدث لبيد " عن العين والدموع وغزارتها " [2] ويكثر لبيد من هذا لأن الناس بعامة ، والشعراء بخاصة تعارفوا على أن الدموع تطفي حرقة القلب كما قال ذو الرمة : [3]

خَليليّ عُوجَا من صُدورِ الرّواحلِ بجمهورِ حزوى فابكيا في المنازلِ

لعل انحدارَ الدّمعِ يُعقِبُ راحـــةً من الوجدِ أو يشفي نجيّ البلابــلِ

وجاء في صحيح البخاري ما نصه (حدثنا الحسن بن عبد العزيز ، حدثنا يحي بن حسان ، حدثنا قريش هو ابن حيان عن ثابت عن أنس بن مالك - رضي الله عنه – قال دخلنا مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – على أبي سيف القين ، وكان ظئراً لإبراهيم ابن الرسول صلى الله عليه وسلم فأخذه الرسول - صلى الله عليه وسلم – فقبله وشمه ، ثم دخلنا عليه بعد ذلك وإبراهيم يجود بنفسه . فجعلت عينا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – تذرفان ، فقال له عبد الرحمن بن عوف – رضي الله عنه - : وأنت يا رسول الله ؟ فقال يا بن عوف : إنها رحمة ، ثم أتبعها بأخرى ، فقال - صلى الله عليه وسلم – إن العين تدمع والقلب يحزن ، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون . رواه موسى عن سليمان بن المغيرة عن ثابت عن أنس – رضي الله عنه – عن النبي - صلى الله عليه وسلم -).[4]

---

[1] - الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه ، ص ٢١٨ .

[2] - نفسه ، ص ٢١٨ .

[3] - هو غيلان بن عقبه بن نهبس بن مسعود العدوي ، من مضر ، أبو الحارث ، ذو الرمة ، شاعر من فحول الطبقة الثانية في عصره . كان شديد القصر ، ذميماً ، كان مقيماً بالبادية ، يحضر إلى اليمامة والبصرة كثيراً ، أكثر شعره تشبيب وبكاء أطلال . (الأعلام ٥/ ١٢٤ . الشعر والشعراء١/٥٢٤). ديوان ذو الرمة ، تحقيق : عبد القدوس أبو صالح ، مطبعة طربين ، دمشق ، ١٩٧١ م ، ٢ / ١٣٣٢ .

[4] - صحيح البخاري (المتن) ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، د ط ، د ت ، ١/ ٢٢٦ ، انظر : رثاء الأبناء في الشعر العربي إلى نهاية القرن الخامس الهجري ، ص ٢٢- ٢٣ .

وقد حفلت مراثي لبيد في أخيه بالبكاء والدموع ، وجاءت في صور مختلفة ، حيث تحدث عن دموعه وغزارتها التي ما أن تجمد فتنسكب كلما ذكر فراق أربد في قوله :[1]

فَعَينَيّ إذا أودَىَ الفراقُ بأربدٍ فَلا تجمُدَا أن تَستَهِلاّ فَتَدمعَا

وبالرغم من غزارة دموع لبيد على فراق أخيه ، وعدم بخله بها ، فإنه يشعر بأنها لم تشف غليله ، فلم يكتف بما سكبه من دموع ، بل يطلب من عينيه أن تبكيا أخاه الذي يعدد مناقبه في قوله [2] :

يا عينِ هلاّ بكيتِ أربَدَ إذ قُمنَا وقامَ الخصومُ في كَبَدَ

ياعَينِ هلاّ بكيتِ أربَدَ إذ ألوَت رياحُ الشتاء بالعَضَدَ

وفي قوله [3]:

لَن تُفنِيا خَيراتِ أر بُدَ فابكِيَا حَتَّى يَعودَا

اشتمل البيت على أمر البكاء (فابكيا) وقد جاء به لبيد تعبيرا عن حزنه وحسرته على فراق أخيه ، ومفاده هو طلب استمرار البكاء واستمرار ترديد محامد أخيه ، وقد بدأ لبيد البيت بقوله (لن تفنيا خيرات أربد) " وهذا القول لا يحمل على المن ، وإنما هو استثارة للبكاء على أربد ذي الخيرات ، ولعله لا يقصد إلا نفسه ، وإن ثنى الكلام " [4] وعلق أمر البكاء بقوله (حتى تعودا) أي "حتى يوم الدين وبعث الناس من قبورهم" [5] ويحتمل المعنى مخاطبة الشاعر هؤلاء الذين غمرهم خير أربد أن يوفوه حقه وأن يبكوه .

---

[1]- شرح ديوان لبيد ، ص ١٧٣ .
[2] المصدر نفسه ، ص ١٦٠
[3]- المصدر نفسه ، ص ١٦٣.
[4]- نفسه ، ص ١٦٣.
[5]- نفسه ، ص ١٦٣ .

ولئن قصر لبيد في طلبه من عينه بالبكاء فإنه أمر ابنت أربد أن تبكيه في المآتم وتندبه في قوله :[1]

يا مَيَّ قُومِي في المآتمِ وَ اندُبِي فتى كانَ مِمَّن يَبتنَي المجدَ أروَعَا

ويبدو لنا أن هذه الوصية لا تعني البكاء لذاته وإنما تعداد مآثر أخيه أمام الناس أي تأبينه .

ومثلما صور لبيد حزنه الأليم ، وعينه السيالة الباكية وأرقه الملم به ، فإنه تناول كذلك حياته المنغصة وأيامه المكروبة ، بعدما فقد أخيه أربد فلقد تكأكأت عليه الحياة ففقد كل ناصر بل لم يجد له معين وانقلبت أيامه ولياليه هما عليه في قوله : [2]

يـــا أربَـــدَ الخيـــر الكـــريمَ جُـــدُودُهُ خَلَّيتنَـــي أمشِـــي بِقَـــرنِ أعضَـــبِ

وهكذا نرى لبيد يبكي أخاه أربد بكاءً حاراً صادقاً ، فيه لوعة وتفجع وحزن شديد ، يدل على مدى حب لبيد وتعلقه به ، ويشعر أنه فقد المعين والحامي والنـــاصر ، فقال يندبه ، ويذم الدهر ، ويذكر مفاخره وفضائله ، لم يغادر لبيد خصلة من خصال الخير ، أو فضيلة من الفضائل ، إلا وينسبها لأخيه ، فقد صوّرهُ بصورة الرجل الكامـــل ، الذي تجمعت فيه كل خصال الخير ، بل لقد عم بالفقد القبيلة كلها ، فنوافل أربد وعطاياه كانت تأتي إلى الأرامل والأيتام وأهل الحاجة .

ولبيد في شعر رثاء الأخ يتفكر في مصير الماضين من ملوك وعظماء ، يذكرهم للعبرة والعزاء في مصيبته .

وتأتي الحكمة في شعر رثاء الأخ عند لبيد ، في نغمة روحية فيها تسبيح لله وذكر الديـــن ، وتأتي تأمل في الماضيين والغابرين من الملوك والعظماء ، كيف وأين كانـــوا ؟ وأين هم الآن ؟ وتأتي محملة بأثقال السنين فيها سأم وتضجر من الحياة .

---

[1]- شرح ديوان لبيد ، ص ١٧٣.
[2]- المصدر نفسه ، ص ١٥٤ .

المبحث الثاني

- رثاء الأهل والعشيرة

- رثاء جماعي
- رثاء فردي

- أبو البراء عامر بن مالك

- الطفيل بن مالك

- حيان بن معاوية

- عوف بن الأحوص

رثاء الأهل والعشيرة

إن ارتباط الشاعر بأهله وعشيرته حمّله تبعات كثيرة ، حيث كان ينهض بهم مختاراً في السلم والحرب . فهو في السلم لسانها الناطق بالمفاخر ، وفي الحرب شعلتها التي تضرم الغضب في النفوس ، وبعد الحرب نادبها الباكي على القتلى ، ولما كانت حياة العرب في الجاهلية حروباً كثيرة ، فقد كثر في شعرهم الرثاء ، ومن ألوانه رثاء الأهل والعشرة ، وبرز فيه الشعراء ، ومن ضمنهم شاعرنا لبيد بن ربيعة حيث رثى أهله وعشيرته في قسمين :

أ- رثاء جماعي :

رثى لبيد عدداً لا بأس به من الذين قضوا من بني قومه ، وكانوا في نظره من فضلاء القوم ، وأعيانهم ، وأسيادهم ، وأجوادهم ، وأبطالهم وحكمائهم . فهو يذكرهم عادة في مجال الذكرى ، فيعدهم واحداً بعد الآخر ، ويذكر شيئاً من مناقبهم أو سبب موتهم ، وقد يستطرد لذكر أقوام آخرين بادوا يلتمس بذكرهم الصبر والعزاء[1] .

قال لبيد يذكر أعمامه وقومه بين جعفر بن كلاب ، ويأسى لفقدهم[2] :

أصْبَحْتُ أمْشي بَعْدَ سَلْمى بن مالكٍ ... وبَعْدَ أبي قيسٍ وعُرْوَةَ كالأجَبّ
يضجُّ إذا ظلَّ الغُرابِ دَنا لَهُ ... حِذاراً على باقي السَّنَاسِنِ والعَصَبْ
وَبَعدَ أبي عمرٍو وذي الفضْلِ عامِرٍ ... وبَعدَ المُرَجَّى عُرْوَةَ الخَيرِ للكُرَبْ
وبعدَ طفيلٍ ذي الفعالِ تعلقَتْ ... بهِ ذاتُ ظُفْرٍ لا تُوَرَّعُ باللَّجَبْ
وبَعدَ أبي حَيّانَ يَوْمَ حَمُومَةٍ ... أتِيحَ لَهُ زَأوٌ فأزْلِقَ عَنْ رَتَبْ
ألَمْ تَرَ فيما يَذكُرُ النَاسُ أنّني ... ذكرْتُ أبا لَيلى فأصبَحْتُ ذا أرَبْ
فهوَّنَ ما ألْقَى وإنْ كُنْتُ مُثبتاً ... يَقيني بأنْ لا حيَّ يَنجو من العَطَبْ

---

[1] لبيد بن ربيعة العامري ، ص ٣١٤ – ٣١٥.
[2] شرح ديوان لبيد ، ص ١.

في هذه الأبيات يذكر لبيد من فقد من أعمامه وقومه ، ومن هؤلاء كلاً من سلمى بن مالك بن جعفر عم لبيد ، وكان يلقب بنزال المضيق ، لشجاعته ، وأبو قيس عامر بن الطفيل ، زعيم قبائل عامر ، وعروة الملقب بالرحال ، قتله البراض الكناني ما جر إلى اندلاع حروب الفجار التي سبقت مبعث الرسول صلى الله عليه وسلم بقليل[1] ، وعامر بن مالك ، ملاعب الأسنة ، عم لبيد ، وطفيل بن مالك عم لبيد ، فارس قرزل ووالد عامر بن الطفيل ، وأبو حيان معاوية بن مالك ، وكان شاعراً فارساً ، يلقب بمعود الحكماء لقوله[2] :

أُعَــوِّدُ مِثْلَهــا الحُكَمَــاءَ بَعْــدِي إذا مــا مُعْضــلُ الحــدثان نَابَــا

ويصف حاله بعد فقدهم ، فقد أصبح يمشي كالأجب ، أي : البعير المقطوع السنـــام ، الذي يرغو حين يداخله إحساس باقتراب ظل الغراب ليقــع على ظهـــره ، حذاراً منه على باقي السناسن والعصب .

وفي قوله[3] :

بعــدَ طفيــلٍ ذي الفعــالِ تعلقَــتْ بــهِ ذاتُ ظُفْــرٍ لا تُــوَرَّعُ باللَّجَــبْ

امتداح لمناقب فارس قرزل ، وفي قوله (تعلقت ذات ظفر) إستعارة للمنية شبهها بذوات الأظفار من السباع والوحوش .

وبعد أن ذكر لبيد قومه راح يقرر أنه بات ذا أرب ، أي : ذا حاجة ، لفقد صاحبه أبي ليلى في قوله[4] :

ألَــمْ تَــرَ فيمــا يَــذكُرُ النَــاسُ أنّنــي ذكــرْتُ أبــا لَيلــى فأصــبَحْتُ ذا أرَبْ

---

[1] انظر السيرة النبوية ، ٢٠٩/١.

[2] سمط الآلي : أبو عبدالله بن عبدالعزيز ، بعناية : عبدالعزيز الميمني ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، د ط ، ١٣٥٤هـ ، ١٩٠/١ . انظر : لبيد بن ربيعة العامري ، ص ٨٥ .

[3] شرح ديوان لبيد ، ص ١ . ذات ظفر : المنية . لا تورع : لا تكف . اللجب : ارتفاع الأصوات واختلاطها .

[4] المصدر نفسه ، ص ٢ . ذات أرب : ذا حاجه .

" وقوله فيما يذكر الناس : كناية عن أنه ذكره في أمور حسنه وخيره ، وقيل في بعض الروايات : أن الشاعر عبّر في هذا البيت عن انقطاع رجائه بعودة أبي ليلى ، وأنه لذلك بات ذا أرب " [1] .

وبعد أن استوفى لبيد من ذكر قومه ، وتحسر على فقدهم وبكى لبعدهم ، راح يلتمس العزاء ، بأن لا أحد ينجو من الموت ، ولو كان حياً ناجياً لنجى هؤلاء الذين تحدث عنهم ، في قوله [2]:

فهــوَّنَ مــا أَلْقَــى وإنْ كُنْــتُ مُثبتــاً يَقينــي بــأنْ لا حــيَّ يَنجــو مــن العَطَــبْ

ومن هذا النمط أيضاً ، قصيدة ثانية بلغت واحداً وأربعين بيتاً ، وهي أجود قصائد هذا القسم ، وأطولها وأكثرها شمولاً في ذكر الذاهبين من أهله وعشيرته .

فقد بدأ القصيدة بقوله[3] :

أعــاذِلَ قُــومي فاعــذُلي الآنَ أو ذري فَلَسْــتُ وإنْ أَقصَــرْتِ عَنِّــي بِمُقْصِــرِ

استهل لبيد القصيدة في عتاب امرأة تلومه على الانفاق وبذل المال ، فهو يتغزل في مطلع قصيدة رثاء ، وهذا ينكره ابن رشيق القيرواني حيث قال : " إن المتعارف عليه عند أهل اللغة أنه ليس للعرب في الجاهلية مرثية أولها تشبيب إلا قصيدة دريد بن الصمه " [4] في قوله[5] :

أرَثَّ جَديــدُ الحَبــلِ مِــن أُمِّ مَعبَــدٍ بعاقِبَــةٍ وَأَخلَقَــت كُــلَّ مَوعِــدِ

---

[1] شرح ديوان لبيد ، عمر الطباع ، ص ٢٦ .
[2] شرح ديوان لبيد ، ص ١ . العطب : الموت .
[3] المصدر نفسه ، ص ٤٦.
[4] العمدة ، ٨٣٩/٢.
[5] ديوان دريد ، ص ٤٥.

ويرى ابن رشيق القيرواني في هذا مخالفة للشعر ، حيث قال : " وليس من مادة الشعراء ، أن يقدموا قبل الرثاء نسيباً ، كما يصنعون ذلك في المدح والهجاء " [1] .

وقد اعتذر ابن رشيق لدريد " وإنما تغزل دريد بعد قتل أخيه بسنة ، وحين أخذ بثأره ، وأدرك طائلته " [2] .

ويذهب حازم القرطاجني إلى ما قال به ابن رشيق القيرواني ، إذ يقول : " وأما الرثاء فيجب أن يكون شاجي الأقاويل مبكي المعاني مثير للتباريح ، وأن يكون بألفاظ مألوفة سهلة في وزن متناسب ملذوذ ، وأن يستفتح فيه بالدلالة على المقصود ولا يصدر بنسيب : لأنه مناقض لغرض الرثاء ، وإن كان هذا قد وقع للقدماء نحو قصيدة دريد يرثي أخاه ، التي أولها :

أرَثَّ جَديدُ الحَبلِ مِن أمِّ مَعبَدٍ بِعاقِبَةٍ وَأخلَفَت كُلَّ مَوعِدِ

وقصيدة النابغة يرثي آل جفنة :

دعاكَ الهَوَى ، واستَجهَلَتكَ المنازلُ، وكيفَ تَصابي المرء، والشّيبُ شاملُ؟

وقصيدة عدي بن زيد يرثي ولده علقمة :

أعَرفتَ أمس من لَمِسَ طل مثل الكتاب الدارس الأحوَلْ " [3]

---

[1] العمدة ، ٨٣٧/٢ .

[2] المصدر نفسه ، ٨٣٩/٢ .

[3] منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، أبي الحسن حازم القرطاجني : تحقيق : محمد الحبيب ابن خوجه ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط ٣ : ١٩٨٦م ، ص ٣٥١-٣٥٢ . ديوان دريد ، ص ٤٥ . ديوان النابغة الذبياني ، تحقيق وشرح ، كرم البستاني ، دار صادر ، بيروت ، د ط ، د ت ، ص٨٧ .
النابغة الذبياني : هو زياد بن معاوية بن ضباب الذبياني الغطافي المضري ، أبو أمامة ، ويقال أبا ثمامة ، شاعر جاهلي ، من الطبقة الأولى من أهل الحجاز ، كانت تضرب له قبة بسوق عكاظ فتقصده الشعراء فتعرض عليه أشعارها ، شعره كثير كان أحسن شعراء العرب ديباجه ، عاش عمراً طويلاً ، ومات سنة ١٨ ق.هـ (الشعر والشعراء . ١٥٧/١ . الأعلام ٥٤/٣-٥٥) .
عدي بن زيد بن حماد بن زيد العبادي التمتمي . شاعر من دهاة الجاهليين ، كان يسكن الحيرة ويدخل الأرياف يحسن العربية والفارسية والرمي بالنشاب. وهو أول من كتب العربية في ديوان كسرى ، الذي جعله ترجماناً بينه وبين العرب . سجنه النعمان بن المنذر وقتله في سجنه بالحيرة سنـــــة ٣٦ ق.هـ (الشعر والشعراء ، ٢٢٥/١ . الأعلام ٢٢٠/٤) .
لم يعثر الباحث على ديوانه .

ويرى الدكتور يحيى الجبوري ، أن ابن رشيق القيرواني لم يكن دقيقاً في حكمـــه ، إذ يقول : " إن ابن رشيق القيرواني لم يكن دقيقاً في حكمه ، فقد سقط في الشعر الجاهلي أشعاره مبدوءة بالغزل - واستشهد لذلك - قصيدة المرقش الأكبر ، الذي رثى ابن عمه ، وقد بدأها بذكر الديار والغزل بأسماء ، والقصيدة هي التي أولها:

هــلْ بالــدِّيارِ أنْ تُجِيــبَ صَــمَمْ لــو كــانَ رَسْــمٌ نَاطِقــاً كلَّــمْ

ومهد أبو ذؤيب الهذلي لرثاء نشيبه بن محرث بالغزل بأم عمرو في قصيدته التي أولها :

هَــلْ الــدّهْرُ إلاّ لَيْلَــةٌ ونَهارُهــا وإلاّ طُلُــوعُ الشّــمْسِ ثُــمّ غِيارُهــا"[1]

والباحث يرى الرأي نفسه إذ أن أسماء الشعراء الذين ذكرهم حازم القرطاجني وكذلك أسماء الشعراء الذين ذكرهم الدكتور يحيى الجبوري ، شعراء جاهليون ، مما يؤكد عدم دقة ابن رشيق في حكمه .

ثم ينتقل إلى رثاء أهله وعشيرته : بعد خمسة أبيات فيقـول[2] :

فإمّــا تريــنــي اليــومَ عنــدكِ ســالِماً فلســتُ بأحْيــا مِــنْ كــلابٍ وجعفــرِ

وَلا مــنْ أبــي جــزءٍ وجــاريْ حمومــةٍ قتيلِهِمَــــا والشّــــاربِ المُتَقَطّــــرِ

ولا الأحْوَصــينِ فــي لَيــالٍ تتابعَــا وَلا صــاحبِ البَّــراضِ غيــرِ المغمَّــرِ

---

[1] الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه ، ص ٣٣١ – ٣٣٢ . المرقش الأكبر : هو عوف بن سعد بن مالك بن ضبيعه من بني بكر بن وائل . شاعر جاهلي من الطبقة الأولى وسمي المرقش لقوله : الدار قفر والرسوم كما رقش في ظهر الأديم قلم .
أحد عشاق العرب الشجعان عشق ابنة عم له أسمها (أسماء) وقال فيها شعر كثير . كان يحسن الكتابة ولد باليمن ونشأ في العراق . اتصل مده بالحارث أبي شمر الغساني . نادمه ومدحه واتخذه كاتب له ، تزوجت عشيقته أسماء برجل من بني مراد ، ومرض زمن ثم قصدها فمات في حيها . ومن المؤرخين من يسميه عمرو بن سعد ، وربيعه بن سعد . ويقال أنه أخو المرقش الأصغر ويقال أنه عمه . وهذا عم طرفه بن العبد (الأعلام ٩٥/٥ . الشعر والشعراء ٢١٠/١) . ديوان المرقشين " المرقش الأكبر والمرقش الأصغر " تحقيق : كارين صادر ، دار صابر ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٩٨م ، ص ٦٧ .
أبو ذؤيب : هو خويلد بن خالد بن محرث ، من بني هذيل بن مدركه من مضر ، شاعر فحل مخضرم ، أدرك الجاهلية والإسلام . وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة وفاته فأدركه وهو مسجى وشهد دفنه . سكن المدينة أشترك في الغزو . وعاش إلى أيام عثمان رضي الله عنه ، فخرج في جند عبدالله بن أبي سرح إلى أفريقيه (سنة ٢٦ هـ) غازياً فشهد فتح أفريقية وعاد مع عبدالله بن الزبير وجماعة يحملون بشرى الفتح إلى عثمان رضي الله عنه فلما كانوا بمصر مات أبو ذؤيب (الأعلام ٣٢٥/٢) . ديوان أبي ذؤيب الهذلي ، تحقيق وشرح : د. انطونيوس بطرس ، دار صادر ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٢٤هـ -٢٠٠٤م ، ص ١٠٨ .

[2] شرح ديوان لبيد بن ربيعة ، ص ٤٧-٤٨ .

فهو يأسى لفقد كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعه ، ومن فقد ابنه أيضاً جعفر بن كلاب ، ويمضي يذكر رجالاً من أهله وعشيرته ، فأبو جزء هو خالد بن جعفر بن كلاب ، فقد قتله الحارث بن ظالم فتكاً ، وجاراه هما مالك بن جعفر ومعاوية بن مـــالك ، قتيلي حمومة ، ويريد بالشارب المتقطر معاوية بن مالك الذي أتى مع أبيه ملكاً من ملوك الحبشة فسقاه شراباً حتى سكر ، فسقط من فوق بيت فمات ، فخشي أن يرسل الملك مالكاً فقتله خنقاً[1] ، ولذلك قال قتيلهما . والأحوصان : الأحوص بن جعفر بن ربيعة بن كلاب ، وكان اسمه ربيعة فسمى الأحوص ، لأن عينيه كانت كأنهما مخيطة[2] ، والأحوص الآخر ابنه عمرو بن الأحوص الذي قتلته تميم يوم المرّوت . وصاحب البراض عروة بن جعفر ، المعروف بالرحال ، الذي قتله البراض الكناني ، وبسببه قامت حرب الفجار .

وبعد أن أحصى هذه المجموعة من أهل وعشيرته ، وأشار إلى مقتلهم ، رثى أباه ربيعة وأشار إلى كرمه فجعله ربيع المقترين ، وبين مقتله في يوم ذي علق ، فقد قتلته بنو أسد[3] . وذكر قيس بن جزء بن خالد بن جعفر ، والد أربد ، أخي لبيد لأمـــــه ، هذا الفارس الذي خرج غازياً ، فظفر ، فلما رجع مات فجأة على ظهر فرسه ، حيث هرأ البرد جسمه فقتله ، حيث قال[4] :

وَلا مِـــنْ رَبيـــع المقتـــرينَ رزئْتُـــهُ بـــذي علـــقٍ فـــاقنيْ حيـــاءَكِ واصْـــبري
وقـــيسِ بـــنِ جـــزءٍ يـــومَ نـــادى صـــحابهُ فعـــاجُوا عليـــهِ مـــن ســـواهمَ ضـــمَّرِ
طوتْـــهُ المَنَايَـــا فـــوقَ جـــرداءَ شـــطبةٍ تَـــدِفُّ دَفيـــفَ الـــرَّائح المُتَمَطِّـــرِ
فبـــاتَ وَأسْـــرَى القَـــوْمُ آخِـــرَ لَـــيلِهِمْ ومـــا كـــانَ وقافـــاً بـــدارِ معصّـــرِ

---

[1] شرح ديوان لبيد ، ص ٤٨.
[2] نفسه ، ص ٤٨.
[3] نفسه : ص ٤٨ ، فعاجوا : عطفوا عليه . ضمر : خيل قد غيرها السفر . شطبة : طويلة .
[4] نفسه ، ص ٤٨-٤٩.

ثم يذكر عمه أبا البراء عامر بن مالك ، ويصفه بالجود والكرم ، إذ جعله نفسه ضياء للطارق الذي يأتي ليلاً بحثاً عن الطعام ، لأن الكرماء " يوقدون النيران في هداية الناس الذين ظلوا طريقهم في الصحراء ، فكانت النيران بمثابة اللغة الإرشادية الداعية إلى الحول بمنازل القوم التي تؤمن الطعام ، وتجنبهم كل مخافة " [1] وأشار إلى كرمه إذا أقحط الناس وأجدبوا . وكذلك عمه عبيدة بن مالك ، وسلمى بن مالك الذي يجيب الناس ويهب لنصرتهم ، ويذكر طفيل بن مالك فارس قرزل عم لبيد ، وأبنه سهيل بن طفيل ويشير إلى موضع قبريهما ، بقوله[2] :

وبـــالفُورَةِ الحَـــرَّابُ ذو الفَضْـــلِ عـــامِرٌ ... فَـــنِعْمَ ضِـــياءُ الطّـــارقِ المُتَنَـــوِّرِ
ونِعْـــمَ مُنَـــاخُ الجـــارِ حَـــلَّ ببَيْتِـــهِ ... إذا مـــا الكعـــابُ أصـــبحتْ لـــم تســـترِ
ومَـــنْ كـــانَ أهـــلَ الجـــودِ والحـــزْمِ والنـــدى ... عُبَيْـــدَةُ والحـــامي لَـــدَى كـــلِّ محْجَـــرِ
وَسَـــلْمَى ، وسَـــلمَى أهـــلُ جـــودٍ ونائـــلٍ ... متـــى يـــدعُ مـــولاهُ إلـــى النصـــرِ ينصـــرِ
وبَيْـــتُ طُفَيْـــلٍ بالجُنَيْنَـــةِ ثاويـــاً ... وبَيـــتُ سُـــهَيْلٍ قـــد علِمـــتِ بصَـــوْءَرِ

فعلى هؤلاء جميعاً يكثر البكاء ، وتذرف الدموع ، وتدمي النساء خدودهن لطماً ونوحـــاً [3] :

فلـــمْ أرَ يوْمـــاً كـــانَ أكثـــرَ باكيـــاً ... وحســـناءَ قامـــتْ عـــن طـــرافٍ مجـــوّرِ
تَبُـــلَّ خُمُـــوشَ الوَجـــهِ كُـــلَّ كريمَـــةٍ ... عَـــوانٍ وبِكْـــرٍ تَحْـــتَ قـــرٍّ مُخَـــدَّرِ

ومن هؤلاء المرثيين من أهله وعشيرته ، كلّ من صاحب ملحوب عمرو بن خالد بن جعفر ، ويبكي صاحب الوداع عوف بن الأحوص ، ويقال بل هو حبان بن عتبة بن مالك قتله بنو هوازن من عنزه وقبره باليمامة[4] : حيث قال[5] :

وصـــاحبُ ملحـــوبٍ فجعنَـــا بيومـــهِ ... وعنـــدَ الـــرّداع بيـــتُ آخـــرَ كـــوثرِ

---

[1] قراءات نصيه في الشعر الجاهلي ، ص ٣٣ .
[2] شرح ديوان لبيد ، ص ٥٠-٥١ .
[3] نفسه ، ص ٥١-٥٢ . حسناء : حسنة . الطراف : البيت من أدم . مجوّر : مقوض ساقط . عوان : نصف . القر : الهودج
[4] انظر معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع ، أبو عبيد عبدالله بن عبدالعزيز البكيري ، تحقيق : مصطفى السقا ، د ط ، ١٣٦٤هـ - ١٩٤٥م ، ١٠٣١/٣ .
[5] شرح ديوان لبيد ، ص ٥٢ . ملحوب : اسم فرس .

وكذلك يذكر أبن عمه كنانة بن عبيدة بن مالك في قوله[1] :

أُولئِـكَ فـابكي لا أبَـا لَـكِ وانْـدُبي أبَـا حـازمٍ فـي كُـلِّ يَـوْمٍ مُـذَكَّر

فقد طلب لبيد من عاذلته البكاء (فابكي - واندبي) على ابن عمه كنانة بن عبيدة بن مالك ، وربط هذا البكاء بقوله (في كل يوم مذكر) أي : مذكور معروف وهو بهذا يريد أن يعيش مظللاً بذكريات مجده ومآثره .

وقال في بداية البيت : أولئك ، لاستحضار هؤلاء المرثيين واستحضار مآثرهم ، وأن هذا البكاء والندب لهم جميعاً ، فهم يستحقون ذلك ، لأنهم أهل الشجاعة والجود والحزم والندى .

وهؤلاء تبعهم الثناء الحسن ، وزينت شجرة الريحان قبورهم ، حيث قال[2] :

فشَـيَّعَهُمْ حَمْـدٌ وزانَـتْ قُبـورَهُمْ سـارةُ ريحـانٍ بقـاعٍ منـوّر

فقد كان الجاهليون يدعون لموتاهم بالسقيا ، فزاد لبيد هذه الصورة ليضفي التتويج والتكريم اللائق لمن يرثيهم . وكان هذا التتويج من عادات العرب في العصر الجاهلي ، يكرمون به موتاهم ، ويكشفون به عن مكانتهم في نفوسهم وكأنهم وجدوا في رائحة هذه النباتات العطرية معادلاً للذكرى الرائعة التي يتركها هؤلاء الأبطال ، وغالباً ما يجيء ذكر التتويج تابعاً للسقيا[3] .

بعد أن استوفى لبيد من ذكر أهله وعشيرته ، وتحسر على فقدهم وبكى لبعـدهـم ، راح يلتمس العبرة من ملوك الحيرة الذين مضوا وعفى على ذكرهم الزمان . وهذا ضرب من العزاء قديم ، يقول ابن رشيق القيرواني : " وكان من عادة

---

[1] شرح ديوان لبيد ، ص ٥٣ .
[2] نفسه ، ص ٥٣ .
[3] انظر : لبيد بن ربيعة العامري ، ص ٣١٩ .

القدماء أن يضربوا الأمثال في المراثي بالملوك والأعزة والأمم السالفة " [1] حيث يجد لبيد العزاء والسلوان على مصيبته بأهله وعشيرته ، حين يذكر هؤلاء العظام ، فقد كانوا ذوي ملك وسلطان . وكانت الدنيا مقبلة عليهم والحياة زاهية بهم ، في قوله [2] :

وشمط بني ماءِ السماءِ ومردَهُمْ ... فهَل بَعْدَهُمْ مِنْ خالدٍ أوْ مُعَمَّرِ

وَمَنْ فادَ مِن إخوانِهِمْ وبَنيهِمِ ... كهولٌ وشبّانٌ كجنّةِ عبقرِ

مَضَوْا سَلَفاً قصْدُ السّبيلِ عَلَيهِمِ ... بهيٌّ منَ السّلاّفِ ليسَ بحيدرِ

فكائِنْ رَأيْتُ مِنْ بَهاءٍ ومَنْظَرٍ ... ومفتح قيدٍ للأسيرِ المكفّرِ

وكائنْ رأيْتُ منْ ملوكٍ وسوقةٍ ... وراحلةٍ شدّتْ برحْلٍ محبّرِ

ثم يتفكر في مصير أقوام آخرين من ذوي القوة والسلطان ، وكيف أفناهم الموت على أذقانهم ، ليلتمس عزاءه في ذلك ، فذكر ملوك همدان وملوك كندة ، مثل الحارث بن عمرو الكندي ، وأبنه حجر والد عمر وامرئ القيس ، ورب معد حذيفة بن بدر ، وملك دومة الجندل ، وصاحب المشقر بالبحرين . قال ابو عمرو : " كان ربه رجلاً من الفرس" [3] وفي ذلك قال [4] :

وأفنى بَناتُ الدّهرِ أرْبابَ ناعطٍ ... بمُسْتَمَعٍ دونَ السّماء ومَنْظَرِ

وبالحارثِ الحرابِ فجعنَ قومَهُ ... ولَوْ هاجَهُمْ جاءُوا بنَصْرٍ مُؤزَّرِ

وأهلَكْنَ يوماً ربَّ كندَةَ وابنهُ ... وربَّ مَعَدٍّ بينَ خَبْتٍ وعَرْعَرِ

وأعوَصْنَ بالدُّوميّ من رَأسِ حِصْنِهِ ... وأنزلْنَ بالأسبابِ ربَّ المشقرِ

---

[1] العمدة ، ٨٣٦/٢ .
[2] شرح ديوان لبيد ، ص ٥٤-٥٥ . فاد : مات . عبقر : موضع كثير الجن . قصد السبيل : طريق الموت .
[3] المصدر نفسه ، ص ٥٦ .
[4] المصدر نفسه ، ص ٥٥- ٥٦ . بنات الدهر : الأيام والليالي .

ومثل ما ذكر الملوك ، فقد ذكر الحكماء أيضاً مثل قيس بن ساعده ، ولقمان صاحب النسور ، في قوله[1] :

وأخلَفْنَ قسّاً ليتني ولوَ أنّني وأعْيا على لُقْمَانَ حُكْمُ التّدَبُّرِ

وبعد هذا كله يختم لبيد قصيدته من خلال فلسفته ورؤيته للحياة ؛ بأن الإنسان مخلوق ضعيف لا حول له ولا قوة ، سيفنيه الدهر ، كما أفناء من قبله من أولئك الذين ذكرهم ، وأمم أقدم منهم[2] :

فإنْ تسألِينا فيمَ نحنُ فإنّنَا عَصافيرُ مِنْ هذا الأنامِ المُسَحَّرِ

نَحُلُّ بِلاداً كُلُّهَا حُلَّ قبْلَنَا ونَرْجُو الفَلاحَ بَعْدَ عَادٍ وحِمْيَرِ

ثم يقول أن هؤلاء الناس يسعون إلى الهلاك متتابعين فهم بين عاد ورائح ، ونهايتهم موت محقق ، كأنهم لم يعيشوا في الحياة غير أشهر معدودات ، بقوله[3] :

وإنّا وإخواناً لَنا قدْ تتابعُوا لكالمغتدي والرّائح المتهجّرِ

هَلِ النّفْسُ إلاَّ مُتعَةٌ مُستَعارةٌ تُعَارُ فتأتي رَبَّها فَرْطَ أشهُرِ

وبعد ما رثى لبيد أهله وعشيرته وتحسر لفقدهم وحزن عليه فإنه تناول كذلك حياته المنغصة، وأيامه المكروبة بعد ما فقدهم ، في قصيدة أخرى ، إذ يقول لبيد[4] :

قضِّ اللّبانَةَ لا أبَا لكَ وادْهَبِ وَالْحَقْ بأُسْرَتِكَ الكِرامِ الغُيَّبِ

ذهبَ الذينَ يعاشُ في أكنافهمْ وبَقيتُ في خَلَفٍ كجِلدِ الأجرَبِ

يتأكلونَ مغالةً وخيانةً ويُعَابُ قائِلُهُمْ وإنْ لم يَشْغَبِ

---

[1] شرح ديوان لبيد ، ص ٥٦ .
[2] المصدر نفسه ، ص ٥٦-٥٧ . عصافير : صغار ضعاف .
[3] نفسه ، ص ٥٧ . فرط أشهر : بعد أشهر .
[4] المصدر نفسه ، ص ١٥٣ : اللبانة : بقية الحاجة . لا أبالك : دعا عليه . أسرته : قومه . الغيب : الذين قد غابوا عنه . الخلق : النسل . يتأكلون مغالة : أي يأكل بعضهم بعضاً .

فلبيد في تلك الأبيات يجرد من نفسه شخصاً يخاطبه ، وتحمل رغبة قوية لدى لبيد في إنها حياته ، ليذهب ويلحق بأهله وعشيرته الذين غيبهم الموت ولكي يتخلص من تلك الحياة التي لم يعد فيها ما يستريح إليه . حيث بقي لبيد في بقية لا نفع بها ، فهؤلاء يأكل بعضهم البعض الآخر إفحاشاً ونيلاً من الأعراض .

ب - رثاء فردي

أما قصائده الأخرى التي أفردها لرثاء أشخاص بأعيانهم رثاؤه :

أبو البراء عامر بن مالك

فقد رثى عمه بأرجوزتين ، أولاهما قبيل انتحار عمه ، وبطلب منه ، حيث سأله قائـــلاً : " يا لبيد إن حدث بعمك حدث ما كنت قائلاً ، فإن قومك يزعمون أن عقلي قد ذهب ، والموت خير من عزوب العقل " [1] فأنشد لبيد[2] :

يـــا عـــامِرَ بـــنَ مالِـــكٍ يـــا عَمّـــا أهلَكـــتَ عَمّـــاً وَأعَشـــتَ عَمّـــا

إن تُمـــسِ فينـــا خَلَقـــاً رِمَمّـــا فَقَـــد تَكـــونُ واضِـــحاً خِضَـــمّا

مُرتَـــــدِياً ســـــابِغَةً مُعتَمّـــــا مُتَّخِـــذاً أرضَ العَـــدُوِّ حَمّـــا

وهذه الأرجوزة ليس فيها من حرارة الرثاء ، بقدر ما فيها من مديح وتغنٍ ببطولة عمه أبي البراء .

أما في أرجوزته الثانية ، يطلب لبيد من النائحتين أن تنوحا على عمه أبي البـــراء ، وأن تبكياه وتندباه ، أحر ندب ، حيث قال[3] :

قُوما تنوحَـــان مَعَ الأنْـــوَاح

في مأتَمٍ مُهَجِّـــرِ الـــرَّوَاح

يَخْمِشْنَ حُرَّ أوْجُهٍ صِحَـــاح

في السُّلُبِ السُّودِ وَفي الأمْسَاح

---

[1] شرح ديوان لبيد ، ص ٣٤٥ .

[2] المصدر نفسه ، ص ٣٤٥ ، الحم : القصد ومن معانية أيضاً المال والمتاع .

[3] المصدر نفسه ، ص ٣٣٢ . السلب : الثياب السود . الأمساح : ثياب من شعر .

فلبيد هنا ينقل لنا صور المأتم ، ودور المرأة فيه ، فالمأتم في الجاهلية لم تكن تعقد إلا من قبل النساء ، والمأتم كما يقول ابن قتيبة : هو المصيبة[1] ، حيث نرى لبيد يأمرهما بقد القميص وأن تبكيا واقفتين ؛ لأن نواح العرب في الأكثر يبكـــن قيامـــاً ، وهن في السلب السود يخمشن الوجوه .

وهذا المأتم الجاهلي يثير فينا " الدموع والألم مرتين أولاهما لأجل الحزن على من مات ومشاركات النساء في ألمهن عليه . وثانيهما بسبب الإشفاق والحزن على هؤلاء النسوة لما يصببن على أنفسهن من العذاب الجسدي الهائل بعد موت المرثي" [2].

فالحزن في هذه المآتم بهذه الطريقة ، لا يثير العواطف بقدر ما يثير الأعصاب ولا يبعث الحزن والأسى للمرثي بقدر ما يبعثه للنائحة ومن معها .

ولذلك نهى الإسلام عن أفعال الجاهلية الحمقاء ، حيث قال صلى الله عليه وسلـــم : **" ليس منا من ضرب الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية "** [3] .

ثم يذكر عمه أبا البراء ، وقد سماه لبيد ملاعب الرماح في قوله[4] :

وأبناء ملاعب الرماح

وإنما المشهور من لقبه " ملاعب الأسنة " ، ويبدو أن قافية الرجز ألزمته ذلك . وفي هذا اللقب دلالة كبيرة على فروسيته ، وقد جاء هذا اللقب من قول أوس بن حجر في وصفه[5] :

يلاعـــب أطـــراف الأســـنة عـــامر فـــراح لـــه حـــظ الكتيبـــة أجمـــع

---

[1] أدب الكاتب ، ابو محمد عبدالله بن مسلم الدينوري ، ابن قتيبة ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، د ط ، ١٣٨٢هـ - ١٩٦٣م ، ص ٢٠ .

[2] الرثاء في الشعر الجاهلي وصدر الإسلام ، ص ١٣٤ .

[3] صحيح مسلم ، مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري ، تحقيق : محمد فؤاد عبدالباقي ، دار إحياء الكتب العلمية ، ط ١ ، ١٣٧٤هـ ، ص ١٠٣ .

[4] شرح ديوان لبيد ، ص ٣٣٢ .

[5] ديوان أوس بن حجر ، تحقيق وشرح : د . محمد يوسف نجم ، دار صادر ، بيروت ، ط ٢ ، ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م ، ص ٥٨ .
هو أوس بن حجر بن مالك التميمي ، وفي نسبه اختلاف بعد أبيه حجر ، إذ سُمي حجر بن عتاب ، أبو شريح ، شاعر تميم في الجاهلية ، وهو زوج أم زهير بن أبي سلمى ، كان كثير الأسفار وأكثر إقامته عند عمرو بن هند في الحيرة ، عُمّر طويلاً ، ولم يدرك الإســـلام ، في شعره حكمة ورقه ، كانت تميم تقدمه على سائر شعراء العرب ، قال الأصمعي : أوس أشعر من زهير إلا أن النابغة طأطأمنه (الأعلام ٣١/٢ . الشعر والشعراء ٢٠٢/١) .

ويصف لنا لبيد شجاعة عمه وإقدامه على مواجهة الموت ، في قوله[1] :

يا عامراً يا عامرَ الصّباح

ومِدرة الكتيبة الـــــرداح

أي : عامر المشهور بالغارة في الصباح فقد كان عمه ممن يجلبون الموت لعدوهم في الإغارة صباحاً " ونحن نعلم أن نجمة الصباح " الزهرة " هي العزّى التي تبزغ صباحاً وهي إلهة دموية كانت تقدم لها القرابين البشرية وغيرها " [2] .

وبعد ذلك يتابع لبيد رثاءه لعمه ، حيث يثني على مآثره ومناقبه ، ويبكي صفاته وخلائقه وسجاياه ، التي منها إطعام الفقراء والمساكين ، وإيواء المطرودين ، وغوثهم في السنة المجدبة إذ يقول[3] :

لَـــوْ أنّ حيًّـــا مُـــدْرِكَ الفَـــلاَح
أدْرَكَـــــهُ مُلاعِـــــبُ الرّمَـــــاح
كـــانَ غِيَـــاثَ المُرْمِـــلِ المُمْتَـــاح
وعِصْـــمَةً فـــي الـــزَّمَن الكُـــلاَح
حـــينَ تَهُـــبُّ شَـــمْألُ الريـــاح

[1] شرح ديوان لبيد ، ص ٣٣٢ . الرداح : الضخمة الكثيرة .
[2] مقالات في الأدب العربي القديم (دراسة مقارنة) ، أ.د . مريم الكيلاني ، دارة مجلة المنهل ، ط١ ، ١٣٢٩هـ و ص ٩٥ .
[3] شرح ديوان لبيد ، ص ٣٣٣-٣٣٤ . المرمل : الفقير المعدم . المتاح : الذي يطلب رزقاً . الكلاح : السنة المجدبة .

الطفيل بن مالك

ومن هذا الرثاء المخصص لأهله وعشيرته ، رثاؤه لعمه الآخر الطفيـــل بن مالك ، البطل ، الشجاع ، راكبه فحمة الليل وسواده ، المشرق الوجه ، الوضّاح الجبيـــن ، يتذكر لبيد عمه الطفيل ، فيهيج حزنه لفقده ، وتتقد حرارة الحزن في صدره[1] ، فيقول[2] :

لَمّـــا أتَـــانِي عَـــنْ طُفَيْـــلٍ وَرَهْطِـــهِ هُـــدُوءاً فباتَـــتْ غُلَّـــةٌ فـــي الحَيَـــازِمِ

دَرَى باليســـــاري جَنَّـــــةٌ عبقريَّـــــةٌ مُسَـــطَّعَةُ الأعنَـــاقِ بُلْـــقَ القَـــوَادِمِ

نَشِـــيلٌ مـــنَ البـــيضِ الصـــوارمِ بَعْـــدَما تفضَّـــض عـــن ســـيلانِهِ كـــلُّ قـــائمِ

كمـــيشُ الإزارِ يَكْحَـــلُ العَـــيْنَ إثْمِـــداً سُـــرَاهُ ، وَيُضْـــحِ مُسْـــفِراً غَيـــرَ وَاجِـــمِ

فقد ذكر لبيد الصفات الجسمية في تأبين عمه ، وهي في مجملها صفات تتعلق بجمال هيئة المرثي وحسن وجهه .

وقد اختلف النقاد العرب ، في هذه القضية (ذكر الميت بصفاته الجسمية) فمنهم من يؤيدها ومنهم من يعارضها ، فقدامة بن جعفر يقصرها على الفضائـــل النفسيـــة ، قائلاً : " إنه لما كانت فضائل الناس ، من حيث أنهم أناس ، لا من طريق ما هم مشتركون فيه مع سائر الحيوان . على ما هم عليه أهل الألباب من الإتفاق في ذلك ، إنما هي العقل والشجاعة والعدل والعفة ، كان القاصر لمدح الرجال بهذه الأربع الخصال ، والمادح بغيرها مخطئاً ، وقد يجوز في ذلك أن يقصد الشاعر منها بالبعض ، والإغراق فيه دون بعض" [3] .

---

[1] لبيد بن ربيعة العامري شاعر جاهلي أدرك الإسلام ، د . يحيى الشامي ، دار الفكر العربي ، بيروت ، د ط ، ٢٠٠٢م ، ص ٨٥ .

[2] شرح ديوان لبيد ، ص ٢٩٥ . الغلة : حرارة الحزن . الحيازم : أحد أضلاع الصدر . الجنة : إبلاً كثيرة . نشيل : سيف خفيف . السيلان : ما يدخل من السيف والسكين في النصاب . تفضفض : تكسر . كميش الإزار : مشمر . مسفراً مشرق الوجه . الواجم : الذي اشتد حزنه وأسكته الهم وعلته الكآبه .

[3] نقد الشعر ، ص ٦٥-٦٦ .

ومن النقاد من عدها عيباً من عيوب المديح ، حيث يقول أبو هلال العسكري : " ومن عيوب المديح عدول المادح عن الفضائل التي تختص بالنفس من العقل ، والعفة والعدل ، والشجاعة ، إلى ما يليق أوصاف الجسم : من الحسن ، والبهاء والزينة" [1] .

وذهب إلى ذلك أسامة بن منقذ ، حيث قال : " وامدح بأخلاق النفس دون أخلاق الجسم" [2] .

ويختلف ابن رشيق القيرواني في الرأي ، مع قدامة بن جعفر ، فهو لا يغض من قيمة الصفات الجسمية ، وإن كان يعلي من الفضائل النفسية ، ويفضلها عليها ، حيث يقول : " وأكثر ما يعول على الفضائل النفسية ، التي ذكرها قدامة ، فإن أضيف إليها فضائل عرضية أو جسمية كالجمال ، والأبهة وبسطة الخلق ، وسعة الدنيا ، وكثرة العشيرة ، كان ذلك جيداً ، إلا أن قدامة قد أبى منه وأنكره جملة ، وليس ذلك صواباً ، وإنما الواجب عليه ، أن يقول : إن المدح بالفضائل النفسية أشرف وأصح ، فإما إنكار ما سواها ، كرة واحدة ، فما أظن أحداً ، يساعده فيه ولا يوافق عليه" [3] .

وأنكر أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدي رأي قدامه ، فقد قال : " وقد غلط بعض المتأخرين في هذا الباب ممن ألف في " نقد الشعر " كتابا - غلطاً فاحشاً [أي قدامه بن جعفر] ، فذكر أن المدح بالحسن والجمال ، والذم بالقبح والدمامة ، ليس بمدح على الحقيقة ، ولا ذم على الصحة ، وخطأ كل من يمدح بهذا أو يذم بذلك فعدل ، بهذا المعنى عن مذاهب الأمم كلها عربيها وعجميّها " [4] .

---

[1] كتاب الصناعتين الكتابة والشعر ، لأبي هلال العسكري ، تحقيق علي محمد بجاوي ومحمد أبو الفضل ، المكتبة العصرية ، بيروت ، د ط ، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م ص ٩٨ .

[2] البديع في نقد الشعر ، ص ٤١٤ .

[3] العمدة ، ٨٠٧/٢ .

[4] الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري لأبي القاسم الحسن بن بشر الآدمي ، تحقيق : أحمد صقر ، دار المعارف ، القاهرة ، ط٢ ، ١٣٩٢هـ ، ١٩٧٢م ، ٣٦٨/٢-٣٦٩ .

أما ابن سنان الخفاجي ، فيناقش رأي قدامه بن جعفر ، ويرجح رأي أبي القاسم الحسن بن بشر الآمدي عندما قال : " وقد كان أبو الفرج قدامة بن جعفر الكاتب يذهب إلى أن المدح بالحسن والجمال والذم بالقبح والدمامة ، ليس بمدح على الحقيقة ، ولا ذم على الصحة . ويخطي كل من يمدح بهذا ، ويذم بذلك . وقد أنكر هذا المذهب عليه أبي القاسم الحسن بن بشر الآمدي ، وقال : إنه يخالف فيه مذاهب الأمم كلها عربيتها وأعجميتها . وهذا الذي ذكره أبو القاسم صحيح ، ولو لم يكن في ذلك إلا ما قد جُبلت النفوس عليه من الميل إلى الوجوه الحسان لكفى وأغنى" [١].

أما ابن طباطبا ، فيفضل الصفات الجسمية على الصفات النفسية ، فيقول : " وأما ما وجدته في أخلاقة وتحدثت به ، ومدحت به سواه ، وذمت من مكان على ضد حاله منه ، فخلال مشهورة منها في الخَلق ، والجمال والبسطة ، ومنها في الخُلق السخاء والشجاعة ، والعلم والعزم ... " [٢] .

٣- حيّان بن معاوية :

ومن رثاء الأهل والعشيرة المخصص ، رثاؤه لحيّان بن معاوية بن مالك بن جعفر ، الذي خرج مطالباً بدم عمّه ربيعة بن مالك والد لبيد ، الذي قتله منقاد بن طريف الأسدي ، في يوم ذي علق ، لكن حيان لم يثأر لعمه بل قتلته بني أسد أيضاً . حيث يقول لبيد فيه وقد مرّ على قبره في ذات غسل[٣] .

أقولُ لصاحِبيَّ بذاتِ غسْلٍ ... ألِمّا بي على الجدثِ المُقيمِ
لننظُرَ كيفَ سمَّكَ بانياهُ ... عَلى حِبَّانَ ذي الحَسَبِ الكريمِ
قتَلْنَا تِسعةً بأبي لبينَى ... وألْحَقْنَا المواليَ بالصَّمِيمِ

في بعض الروايات تشير إلى أن المرثي حيّان بن عتبة بن مالك بن جعفر وهو الذي قتلته بنو هزان من عنزة وقبره باليمامة ، ولكن لبيد قد أشار إلى موضع قبر المرثي بأنه ديار بني أسد ، مما يؤكد ما ذكرناه .

---

[١] سر الفصاحة ، لابن سنان الخفاجي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م ، ص ٢٦٥ .
[٢] عيار الشعر ، ص ١٧ .
[٣] شرح ديوان لبيد ، ص ٢٩٢ . غسل : موضع في ديار بني أسد قتل عنده حيان بن معاوية .

٤- عوف بن الأحوص :

ومن الأبطال الأشداء الذين رثاهم لبيد ، عوف بن الأحوص ، حيث بكى فيه البطولة والمكارم ، في نداء يحمل حزن لبيد وحسرات قلبه[١] ، في قوله[٢] :

قُـــومي إذَا نَـــامَ الخَلِـــيَّ فَـــأبَّنِي عَـــوْفَ الفَواضِـــلْ
عَـــوْفَ الفَـــوَارِسِ وَالمَجَـــا لِـــسِ والصَّـــوَاهِلِ والـــدَّوابِلْ
يـــا عَـــوْفُ أحْلَـــمَ كـــلِّ ذي حلـــمٍ وأقـــولَ كـــلِّ قائِـــلْ
يـــا عَـــوْفُ كنـــتَ إمَامَنَـــا وبَقِيّـــةَ النَّفَـــرِ الأوائِـــلْ

فقد قرن لبيد في تأبين عوف بن الأحوص فصاحته وقوة بيانه بشجاعته ، حيث أن الفصاحة وقوة البيان ، تناظر السيف عند العرب ، بل قولهم المأثور " جروح السنان تبرأ قبل جراحات اللسان " وقولهم " المرءُ مخبوءُ تحت لسانه " لتدل دلالة واضحة على قيمة الكلمة في المجتمع العربي قبل الإسلام . ومن الجدير بالذكر أن الفصاحة كانت تمثل عموداً من أعمدة الشخصية العربية الكاملة ، فالخطيب والشاعر يجسدان صوت القبيلة ، وبهما كانت تدافع عن أحسابها وأنسابها ، وتناظر الخصوم وتجادلهم ، ومن هنا كانت الفصاحة في الكلام والقدرة على ارتجا له ، من صفات الكملة ، إضافة إلى الفروسية والكرم وغيرها [٣].

ولذلك تعد الفصاحة وقوة البيان " سلاحان يظمنان للفارس أوسيد قبيلته اسكات كل الأصوات المعادية ، وسد كل الثغرات التي تحدث بين قومه إثر كلام جارح يصدر من بعضهم تجاه البعض الآخر ومن أجل كل تلك القابلية العقلية والبيانية والجسدية في الفارس يهابه الناس ويخشون غضبه فلا تنطق العوراء أمامه ، وهذه المهابة فيه تبعث الرعب دائماً في قلوب الأعداء " [٤] .

أي حُب هذا الذي يحمله لبيد في قلبه لأهله وعشيرته ، وأي وفاء يكنه لهم ، حيث كان حريصاً على رثائهم ، وذكرهم وتعداد من مات منهم وذكراً لهم فضائل ومكرمات ، ومبيناً سبب موتهم ومواضع أجداثهم ، ومتحسراً على فراقهم وذارفاً دموعه حزناً عليه وشوقاً إليهم[٥] .

---

[١] لبيد بن ربيعة العامري شاعر جاهلي أدرك الإسلام ، ص ٨٦ .
[٢] شرح ديوان لبيد ، ص ٢٣١ .
[٣] انظر : قضايا النقد الأدبي القديم والحديث ، ص ١٧٣ .
[٤] الرثاء في الشعر الجاهلي وصدر الإسلام ، ١٠١ .
[٥] لبيد بن ربيعة العامري ، ص ٣٢٣ .

المبحث الثالث

- رثاء الملك النعمان بن المنذر

- اسمه ومواقف من حياته
- وفاته ومعركة ذي قار

رثاء الملك النعمان بن المنذر :

اسمه ومواقف من حياته :

النعمان بن المنذر بن المنذر بن امرئ القيس بن النعمان بن امرئ القيس بن عمرو بن امرئ القيس بن عدي بن نصر بن ربيعة بن الحارث بن مالك بن عمم بن نمارة بن لخم . كان يكنى بأبي قابوس أو بأبي المنذر ،وأمه سلمى بنت وائل بن عطية بن كلب . كان ذميم الخلقة أحمر ، أبرش ، قصيراً ، وكانت والدته أمةً للحارث بن حصن[1] ، لذلك تعرض للنقد والذم والسخرية وتهكم عليه خصومه ، كما أن أصل والدته قد أثر في نفسيته وسلوكه ، فصيّرهُ سريع الغضب أخاذاً بالوشايات فوقع من أجل ذلك في مشكلات عديدة ، فنقم الناس عليه وهجاه بعض الشعراء .[2]

تولى الحكم في الحيرة بعد وفاة أبيه (٥٨٣ – ٦٠٢ م) ، ولكن لم ينتقل الملك إلى النعمان بن المنذر بسهولة ، وذلك لكثرة إخوته وطمعهم بالملك وقد تنبه أبوه لهذا الأمر وتلافاه بأن أوكل أمور الحكم إلى إياس بن قبيصة أشهراً ، إلى أن يرى كسرى رأيه فيهم . حيث أرسل كسرى لعدي بن زيد وسأله عن أولاد المنذر وطلب منه أن يحضرهم له فرادى فأحضرهم وعلّمهم ما يجيبون به على أسئلة كسرى ، فقابلهم كسرى ، وسألهم واختار من بينهم النعمان لسببين هما أنه يثق بولاء عدي بن زيد ومن يختاره ممثلاً للفرس في الحيرة ، ثم لإعجابه بأجوبته عندما قال له : أتكفيني إخوتك والعرب ؟ قال : نعم ، وإن عجزتُ عن إخوتي أنا عن غيرهم أعجز ، فملكه وكساه وألبسه تاجاً من ذهب .[3]

---

[1]- هو الحارث بن حصن بن ضمضم بن عدي بن جناب من كلب (تاريخ الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري ، راجعه وقدم له وأعد فهارسه ك نواف الجراح ، دار صادر ، ط ٣ ، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م ، ٢٨٧/١) .

[2]- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، د. جواد علي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، د ط ، د ت ، ٣/ ٢٦٢ . الكامل في التاريخ لابن الأثير ، تحقيق ، إحسان عباس ، دار صادر ، د ط ، د ت ، ص ٢٨٥ . انظر : تاريخ الطبري ، ١ / ٢٨٧ .

[3]- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ٣/ ٢٦٥ ، تاريخ الطبري ، ١/ ٢٨٧ .

وكان النعمان صاحب شراب وخمر ، ويعتني بتربية الخيول والإبل والماشية ويختار أفضلها ، ولا يسمح لأحد بالحصول عليها أو التلقيح منها إلا بإذنه ، واشتهرت اليحموم والدفوف من جملة خيوله .[1]

ونسب إلى النعمان أربع بنات هن : هند ، وحرفة ، وحريفة ، وعنقفير ، وهند أشهرهن جميعاً ، فقد ذكروا أنها كانت زوجه لعدي بن زيد ، وقد عاشت طويلاً حتى أدركت قيام الدولة الأموية[2] . وتزوج النعمان جملة نساء منهن ، زينب بنت أوس بن حارثه ، وفرعة بنت سعد بن حارثة بن لأم ، فأعقبت منه ولداً وبنتاً،ومارية الكندية وهي أم هند التي تزوجها عدي بن زيد.[3]

ويذكر أن النعمان قبل وشايات الواشين ضد عدي بأنه يدبر له المكايد عند كسرى ، فاستدعاه النعمان فسجنه ثم قتله ، وقيل بل مات في السجن موتة طبيعية ، فسعى ابنه زيد بن عدي العباد لدى كسرى للأخذ بثأر أبيه ، فدبر له مكيدة ليغضب كسرى على النعمان ، بأن أفتعل حادثة طلب كسرى لبنات العرب من النعمان ، حيث رفض النعمان تزويجه إحدى بناته ، فغضب عليه .[4]

وواضح أننا لم نأخذ بعض الروايات ، التي رواها القدماء في سبب غضب كسرى على النعمان بن المنذر ، فقد زعموا أنه إنما غضب على النعمان بن المنذر هو تنصره وتركه الوثنية ، فخشي كسرى من تحوله إلى الروم . وفي بعض الروايات : أن النعمان لم يمد يد العون لكسرى حين فرَّ من وجه بهرام ورفض أن يهب له جواداً عربياً كريماً ، فحقد عليه كسرى ، ورغب بتسوية حساباته السياسية القديمة مع أعدائه .[5]

وفي الحق أن كلتا الروايتين ، اخترعهما الرواة ليفسروا سبب غضب كسرى على النعمان بن المنذر .

---

[1]- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ٣ / ٢٨٦ .
[2] تاريخ العرب في عصر الجاهلية ، د.السيد عبدالعزيز سالم ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، د ط ، د ت ، ص ٢٨٠ .
[3]- الأغاني ، ١ / ١١٥ – ١١٩ .
[4]- تاريخ الطبري ، ١/ ٢٨٨ .
[5]- العرب على حدود إيران وبيزنطة ،بيفولا فولسكايا ، ترجمة : د. صلاح الدين عثمان ، الكويت ، د ط ، ١٤٠٥ – ١٩٨٥م ، ص ١٤٥- ١٤٦ .

وفاته ومعركة ذي قار :

دعا كسرى النعمان بن المنذر إلى زيارة المدائن عاصمة فارس للإشتراك في الاحتفال العسكري الذي وافق أحد الأعياد ، حيث سيقام تخليداً لذكرى ما أحرزه الجيش الفارسي من نصر ضد الروم ، لكن النعمان كان يشعر بالغدر فتحالف مع قبيلة وائل بن بكر ، واستودع أهله وأمواله عندهم ، ثم ذهب إلى المدائن ومعه كتيبة الحيرة من الجيش العربي بقيادة الأمير حازم للمشاركة في الاحتفال . واستقبل كسرى النعمان استقبالاً كريماً ، وأعدله منزلاً خاصاً ، ووكّل أمر خدمته إلى واحد من قواد الجيش المقربين منه ، والذي هو موضع ثقته ، ولما انتهت الحفلات العسكرية والأعياد ، رغب النعمان في أن يخلو بكسرى ليتحدث إليه منفرداً ، ولكي يـُزيل ما دُبـَر ضده من مكايد ، ولكن كسرى لم يمكنه من المقابله ، وكان يعتذر كل مرة بمشاغل هامـــــة ، وبعث إليه كسرى يقول : إنه يرغب في أن يبقى النعمان هذا الصيف قريباً منه . ليتحدث إليه ، ويعود إلى الحيرة بعد الصيف إن أراد ذلك . [1]

" أما عن كتيبة الشرف التي صحبته بقيادة الأمير حازم ، فإن كسرى بعث بها إلى حدود الروم ، لتشترك في حركة استطلاعية ، ولكنها لم تعد إلى النعمان مرة أخرى " [2] .

وقد أحس النعمان أنه لم يعد حرّاً في حياته ، فجميع من بقصره من الخدم من الفرس وحراسه من الفرس ، ولم يكن في إستطاعته أن يغادر القصر الذي نزل به إلا بعد الاستئذان من القائد القائم على أموره ، وقد تم قتله بعد ذلك .

وهناك اختلاف في كيفية قتل النعمان بين السم أو رمية تحت أقدم الفيلة ، ولكن كسرى في النهاية تمكن من عدوه العربي ، وعين إلياس بن قبيصة الطائي ملكاً على الحيرة . [3]

وقد أمر كسرى إلياس بن قبيصة أن يسترد من قبيلة بكر بن وائل أموال النعمان وأسلحته بأي وسيلة ، لكن بني بكر رفضوا تسليم ما عندهم ، وقامت معركة ذي قـــار

---

[1]- مشاهير العرب " النعمان الثالث بن منذر ، د/ عبد العزيز عبد المجيد ، دار المعارف ، ط ٣ ، ١٩٦٣ م ، ص ٨٥ وما بعدها .
[2]- المصدر نفسه ، ص ٩١ .
[3]- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ٣ / ٢٦٨ .

وفيها قاد هانئ بن مسعود جيشاً عربياً ، فرّق عليه أسلحة النعمان ، وقاد إلياس بن قبيصه جنود الفرس والعرب ، وقد ثبت العرب في هذه المعركة ثباتاً عظيماً ، فانهزم الفرس بالرغم من كثرة عددهم .[1]

ويروى أن الرسول صلى الله عليه وسلم ، لما بلغه خبر انتصار العرب على الفرس في هذه المعركة وهو بمكة ، بعد إظهار الدعوة الإسلامية قال : **" اليوم انتصفت العرب من العجم "** [2].

ويرى بروكلمان أن الفرس ضاقوا ذرعاً بسياسة النعمان فاستدرجوه إلى المدائن وقتلوه ، إلاّ أن قتله أسفر عن نتائج هامة أبرزها تضامن العرب في المنطقة الفراتية ضد الفرس وخاضوا معهم معركة حاسمة وهزموهم هزيمة ساحقة في ذي قار[3] .

لقد رثي لبيد النعمان بن المنذر بقصيدة طويلة بلغت اثنين وخمسين بيتاً ، بدأها بنظرات إلى الحياة ومصير الناس فيها ، وحتمية الموت وعجز الإنسان وضعف حيلتــه ، إذ يقول : [4]

ألاَ تَســـألانِ المـــرءَ مـــاذا يُحَـــاولُ ... أنَحـــبُ فيُقضَـــى أم ضَـــلالٌ وَ بَاطِـــلُ
حبائلـــــهُ مبثوثـــــةٌ بســـــبيلِه ... وَ يَفنَـــى إذا مـــا أخطأتـــهُ الحَبَائـــل
إذا المـــرءُ أســـرى ليلـــةً ظـــن أنـــه ... قضـــى عمـــلاً والمـــرءُ مـــا عـــاش عَامـــلُ
فَقـــولاً لـــهُ إن كـــانَ يَقسِـــم أمـــرهُ ... ألمـــا يعِظـــكَ الـــدهرُ ، أمَّـــكَ هَابِـــل
فَـــتَعلمَ أن لا أنـــتَ مُـــدرِكُ مـــا مَضَـــى ... ولا أنـــت ممـــا تَحـــذَرُ الـــنفسُ وَائِـــل

فلبيد يوضح عدم جدوى محاولة المرء ، حيث يقول : أسألوا هذا الحريص على الدنيا ، عن هذا الذي فيه : أنحب فيقضى ، أم ظلال وباطل ؟ أي : هو نذر نذره على

---

[1]- انظر تاريخ الطبري ، ١/ ٢٩٠ – ٢٩١ .
[2]- نفسه ، ص ٢٩١ .
[3]- تاريخ الشعوب الإسلامية ، كارل بروكلمان ، ط مصورة في دار العلم للملايين ، بيروت ، د ط ، د ت ، ص ٢٣ – ٢٤ .
[4]- شرح ديوان لبيد ، ص ٢٥٤ -٢٥٥ . النحب : النذر ، الحبائل : الشرك . أسرى : سرى ، أقسم : قدر .

نفسه أم هو ظلال وباطل من أمره ؟ فلا جدوى من هذه المحاولة ؛ لأن المرء إما بين موت محقق ، أو عيش لا يستطيع أن يحقق فيه شيئاً . فالموت عند لبيد حبائله مبثوثة في كل طريق يتصيد الإنسان ، فإذا أخطأت حبائل الموت أحداً ، أو أفلت أحد منها ، كَبُر وهرم وصار كالميت .

ويقول في البيت الثالث له : إن المرء لا يدرك من هذه الآمال الكاذبة شيئاً ولا ييأس منها وهو لا ينفك يسعى وراءها في حياته حتى يقع به الموت .

ثم يعض المرء بمن مضى قبله في سالف الدهر ، بأنه لا يبقى عليه أحداً ودعا عليه بسبب غفلته ، وعدم اتعاظه بأحوال الدهر ، ومدام كذلك فإن المرء لابُد أن يخضع له ، وأن يقنع بسطوته ، بأنه هو الغالب ، وعظة الدهر تنقسم إلى شقين :

أولهما : أن الإنسان عالم بأنه لن يدرك ما مضى منه ، فإن ما فات لا يعود .

ثانيهما : أنه لن يستطيع دفاعاً لما يحذر ، وما تحذره النفس هو الموت .

ويعظهم بنسبهم الطويل في الأموات وهو النسب الذي يتفاخرون به ويتمايزون على أساسه ، في قوله[1] :

فإنْ أنْتَ لم تَصْدُقْكَ نَفْسُكْ فانتَسِبْ لَعَلّكَ تهديكَ القرونُ الأوائِل

وقد تجلت في هذه القصيدة نفحة دينية عند لبيد ، وإيمان بالله وحده الذي ترجع إليه الأمور ، وإقرار بالبعث والحساب ، في قوله : [2]

أرى النّاسَ لا يَدرُونَ ما قدرُ أمرهمْ بلى : كلُّ ذي لُبٍّ إلى اللّهِ وَاسِلُ

ألا كُلُّ شيءٍ ما خَلا اللّهَ باطِلُ وكُلُّ نعيمٍ لا مَحالةَ زائِلُ

وكُلَّ أُنَاسٍ سوْفَ تَدخُلُ بَينَهُمْ دُوَيْهِيةٌ تصفَرَّ مِنها الأنَامِلُ

وكُلَّ امرىءٍ يَوْماً سيعلمُ سعيهُ إذا كُشِّفَتْ عندَ الإلَهِ المَحاصِلُ

---

[1] شرح ديوان لبيد ، ص ٢٥٥

[2] - المصدر نفسه ، ص ٢٥٦- ٢٥٧ . الواسل : الطالب ، سعيه : عمله .

لقد كان لبيد متوجهاً بنفسه وأفكاره إلى الله ، فهو مؤمن به ، ومدرك أن كل شيء يرجع إليه ، وأن كل شي سوى الله جائز عليه الفناء ، وإن كل نعيم في الحياة مصيره إلى الفناء ،وأن الموت يفرق شمل الناس ويذلهم ، وكل امرئ سوف يحاسب عن أعماله يوم القيامة ،فيعلم كل منهم ما قدمت يداه ويعرف حقيقة مسعاه . وهذه الروح والمعاني الإسلاميه تدل على أن لبيد قالها بعد إسلامه وليس من طبيعة الأشياء أن يدرك الجاهلي هذه المعاني الإسلامية ، فلا بد أن يكون لبيد قد قرأ القران ، وأغلب الظن أن يكون لبيد قد عاد إلى شعره الجاهلي وزاد فيه هذه الأبيات ، وقد أحس بذلك بعض القدماء ، حيث قال صاحب الإصابة : " ويحتمل أن يكون – لبيد – زاد هذا البيت بخصوصه بعد إسلامه "[1] . وقال بروكلمان في ذلك : " فإن كثيراً من شعر لبيد مطبوع بطابع الوحي ويبعد أن تكون كل هذه الأبيات منحولة " .[2]

ولا أرى صواباً فيما قاله الدكتور يحيى الجبوري بأن هذه المعاني الدينية شائعة لدى بعض الجاهليين ، حيث قال : " فالمعاني الدينية شائعة في هذه الأبيات توافق ما جاء به الإسلام ، وهذا أمر ليس بغريب ، فقد كان بعض الجاهليين على يقين و إيمان بالله وحده ، وبالبعث والحساب ، لأنهم كانوا على بقيه من دين إبراهيم ، وأن الفترة التي سبقت الإسلام كانت فترة إرهاص وتطلع لدين جديد تتوقعه النفوس وتهفو إليه الأفئدة ، دون أن تدرك تلك النفوس والأفئدة متى يحدث وكيف يكون . وكانت هذه القصيدة مما نظمه لبيد قبل الإسلام وهو متأثر بهذه الروح المتطلعة إلى الهداية " .[3]

وإذا تأملنا في هذه الآيات نجد أن فيها من المعاني الإسلامية ما يتوافق مع ما جاء في القران الكريم ، وأن القارئ ليرى أصداء الآيات البينات فيها :

---

[1]- الإصابة ، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني ، تحقيق : علي محمد البجاوي ، دار الجيل ، بيروت ، ط ١ ، ١٤١٢ هـ ، ٣ /٣٢٦ .
[2]- تاريخ الأدب العربي ، كارل بروكلمان ، ترجمة : عبدالحليم النجار ، دار المعارف ، ، القاهرة ، د ط ، ١٩٦١م ، ص ٤٥ .
[3]- لبيد بن ربيعة العامري ، ص ٣٩٩ .

فهذا البيت : [1]

أرَى الناسَ لا يدرونَ ما قدرُ أمْرِهمْ بلى : كلُّ ذي لُبٍّ إلى الله واسِل

يذكرنا بقوله تعالى :

" وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ " [2]

والبيت الثاني : [3]

وكلُّ امرئٍ يوماً سيعْلَمُ سعْيَهُ إذا كُشِّفَتْ عند الإله المَحَاصِل

يعيد إلى الأذهان الآية الكريمة : " أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ * وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ * إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ "[4]

وقوله : [5]

وكلُّ أُناسٍ سوْفَ تدخُلُ بينهمْ دُوَيْهيةٌ تَصْفَرُّ منها الأنَامِل

يتضح فيها تأثير لبيد بقوله تعالى : " كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ " . [6]

وفي هذا البيت :[7]

ألا كلُّ شئٍ ما خَلاَ اللهَ باطلُ وكلُّ نعيمٍ لا محالةَ زائل

مستمد من قوله تعالى:" كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ " [8]

---

[1]- شرح ديوان لبيد ، ص ٢٥٦ . الواسل : الطالب .
[2]- سورة البقرة ، الآية ٢١٠ .
[3]- شرح ديوان لبيد ، ص ٢٥٧ .
[4]- سورة العاديات الآية ، ٩-١٠-١١ .
[5]- شرح ديوان لبيد ص ٢٥٦ ، دويهية : الموت .
[6]- سورة الأنبياء ، الآية ، ٣٥ .
[7]- شرح ديوان لبيد ، ص ٢٥٦ .
[8]- سورة الرحمن ، الآية ٢٦ -٢٧ .

ويؤكد الدكتور يحيى الجبوري على أن هذه الأبيات جاهلية ؛ لأن لبيد كان قد أنشدها في مجلس قريش وتتصل بها قصة عثمان بن مضعون ، حيث قال : " وقد مر بنا تحقيق كون هذه القصيدة جاهلية ؛ لأن لبيداً كان أنشدها في مجلس قريش وتتصل بها قصة عثمان بن مضعون " [1] .

ومن العجيب أن الدكتور يحيى الجبوري رفض هذه القصة في المرة الثانية ، لأنها رُويت من صاحب الإصابة ، حيث قال : " ويتعين من هذه الرواية أن لبيد كان في الحجاز وفي مكة والتقى في مجلس قريش ينشدهم شعره وهذا ما لم يذكره أحد والغريب أن الأغاني والإصابة ينفردان بهذا الخبر وقد شهدنا أن الإصابة تنفرد بذكر خبر القصيدة التي مدح بها الرسول صلى ّ الله عليه وسلم وطلب الغيث لمضر إثر الجدب الذي حدث في ذلك العام . ويبدو أن روايات الإصابة لم تسندها روايات أخرى وكما أننا رفضنا الرواية الأولى نرفض كذلك الرواية الثانية لما في رواية الإصابة من غرابة واضطراب " [2] .

ثم قال : " إن معرفة الشعر الديني الذي قاله لبيد في الجاهلية من الشعر الديني الذي قاله في الإسلام ، أمر غير ميسور " [3]

وبعد هذه المقدمة التي بدأها لبيد واعظاً حكيماً ، انتقل إلى رثاء النعمان ، فتحسر عليه وبكى فيه العظمة والسلطان والقوة والرئاسة على القبائل ، في قوله :[4]

لِبَيْكِ على النُّعمانِ شَرْبٌ وقينةٌ ومُتْخَبِطاتُ كالسِّعَالي أرَامِل

له المُلْكُ في ضَاحِي مَعَدّ وأسْلَمَتْ إليه العبادُ كلُّها ما يُحَاول

---

[1]- لبيد بن ربيعة العامري ، ص ٣٩٩ .
[2]- لبيد بن ربيعة العامري دراسة أدبية ، ص ٤٣ .
[3]- لبيد بن ربيعه العامري ، ص ٣٩٩ .
[4]- شرح ديوان لبيد ، ص ٢٥٧ ، المتخبطات : الفرق السائلات المعروف . السعالي : الغيلان . شبه السائلات بهن في سؤ حالهن وقبحهن .

ويذكر أيامه السعيدة عندما كان بلاطه ملتقى صيد الميامين ، وحين يشرب ويغزو وحين يفك الأسرى وينتصر على أعدائه ، إذ يقول : [1]

إذا مـــسَّ أسْـــآرَ الطُّيـــورِ صَـــفَتْ لَـــهُ ... مشعشـــــعَةٌ مِمّـــــا تُعتِّـــــقُ بابـــــل

عتيـــقُ سُـــــلافاتٍ سَـــــبَتْها سَـــــفِينَةٌ ... تَكُـــــرُّ عَلَيْهـــــا بـــــالمزاجِ النَّياطِـــــلُ

علـــى مـــا تُريـــهِ الخمـــرُ إذْ جـــاشَ بحْـــرُهُ ... وَأوْشَـــمَ جُـــودٌ مِـــنْ نَـــداهُ وَوَابـــلُ

فَيَوْمـــاً عُنَـــاةٌ فـــي الحَديـــدِ يَفُكُّهُـــمْ ... ويومـــــاً جِيـــــادٌ مُلْجَمـــــاتٌ قوَافِـــــلُ

ويصف مواكبه العظيمة ولطائمه ، ورزقه الذي لا ينقطع ، وإبله وخيله وما تحمله من دروع وثياب وعطور في قوله : [2]

غـــداةَ غَـــدَوْا مِنْهـــا وآزرَ ســـرْبَهُمْ ... مَواكِـــبُ تُحْـــدى بـــالغَبيطِ وجامِـــلُ

ويَـــوْمَ أجـــازَتْ قُلَّـــةَ الحَـــزْنِ مـــنْهُمُ ... مَواكِـــبُ تَعْلُـــو ذا حُســـىً وقنابـــلُ

علـــى الصَّرصَـــرَانِيَاتِ فـــي كـــلِّ رحْلَـــةٍ ... وسُـــوقٌ عِـــدالٌ لَـــيسَ فـــيهنَّ مائِـــلُ

تُســـاقُ وأطْفـــالُ المُصِـــيفِ كَأنّهـــا ... حَـــوَانٍ علـــى أطْلائِهـــنَّ مَطافِـــلُ

حَقَـــائِبُهُمْ راحٌ عَتيـــقٌ ودَرْمَـــكٌ ... وريْـــطٌ وفاثُوريّـــةٌ وسَلاسِـــلُ

وَمـــا نســـجَتْ أسْـــراد داود وابنـــهِ ... مضـــاعفَةٌ مِـــنْ نَسْـــجِهِ إذْ يُقابِـــلُ

وينتقل إلى كتائب النعمان فيصف ضخامتها وكثرة جندها وما فيهـــا من ســـلاح ، فهي ضخمه كثيرة بحيث تضيق بهذه الكتائب وبالإبل وحمولها البطاح الواسعـــة ، إذ يقـــول : [3]

---

[1]- شرح ديوان لبيد ، ص ٢٥٨ . أساور : جمع سؤر أي بقايا الصيد . النياطل : جمع ناطل وهو كوز تكال به الخمر . لا يصرد : لا يقطع .
[2]- المصدر نفسه ، ص ٢٦١- ٢٦٢ . الغبيط : اسم واد والأصل فيه الأرض المطمئنة . الجامل : جماعة الإبل . القنابل : الطوائف من الناس الصرصرانيات : الإبل اللواتي بين البخاني والعراب . سوق : العمل . العدال : المتعادلة . درمك : حوّارى .
[3]- المصدر نفسه ، ص ٢٦٣ .

وكانَـــتْ تُراثـــاً منْهُمـــا لِمُحَـــرِّقٍ طَحُـونٌ كـأنَّ البَـيْضَ فيهـا الأعابـلُ

إذا مـــا اجْتَلاهـــا مـــأزقٌ وتَزَايَلَـــتْ وَأحْكَـــمَ أضْـــغَانَ القَتيـــرِ الغَلائِـــلُ

أوتْ للشّـــياح واهتـــدَى لصَـــليلِها كتائِـــبُ خُضْـــرٌ لـــيسَ فـــيهنَّ ناكِـــلُ

كأرْكـــانِ سَـــلْمَى إذْ بـــدتْ وكأنّهـــا دُرَى أجَـــإٍ إذْ لاحَ فيهـــا مُواسِـــلُ

وبـــيضٍ تَرَبّتْهَـــا الهَـــوَادِجُ جِقبـــةً سَـــرَائِرُها والمُسْـــمِعاتُ الرَّوافِـــلُ

تَـــرُوحُ إذا رَاحَ الشَّـــرُوبُ كأنّهـــا ظِبـــاءٌ شـــقيقٍ لـــيسَ فـــيهنَّ عاطِـــلُ

وكأن لبيد في هذا الوصف " يريد أن يظهر قوة النعمان وسعة سلطانه وعظيم ملكه ، ليهول المصيبة التي حلت بهلاكه وضياع هذا الملك العظيم " [1] .

وبعد أن وصف لنا مُلك النعمان وعظمة فعاله وسعة سلطانه ، أشار إلى مصير هذا السلطان العظيم وما آل إليه من خراب وفناء ، فقد أصبح ذكرى من الماضي وأثراً عفيّ عليه الزمان في قوله : [2]

فبـــادَوا فمـــا أمسَـــى علـــى الأرْضِ مِـــنهُم لعمـــــــرُكَ إلاَّ أنْ يخبَّـــــــرَ سَـــــــائِلُ

كـــأنْ لـــم يكُـــنْ بالشِّـــرْعِ مـــنهُمْ طلائِـــعٌ فلَـــمْ تَـــرْعَ سَـــحّاً فـــي الرَّبيـــعِ القَنابـــلُ

وبـــالرَّسِّ أوْصـــالٌ كـــأنَّ زُهاءَهـــا ذوي الضـــمرِ لمّـــا زالَ عَنهـــا القبائِـــلُ

في هذه القصيدة يظهر لبيد حيال النعمان وفيّاً له وحزيناً متحسراً على مصيـــره ، ويشعرنا بحنينه واشتياقه إلى الماضي لأنه ؛ " حين يذكر النعمان ويأسف لضياع ملكه ، إنما يذكر عهداً من شبابه هو ، وأياماً له زاهية في مجالس هذا الملك نال فيها المكانة الرفيعة والخطوة الكبيرة وأبلى فيها البلاء العظيم " [3] .

---

[1]- لبيد بن ربيعه العامري ، ص ٣٢٦ .

[2]- شرح ديوان لبيد ، ص ٢٦٥ . الشرع : اسم موضع . وسحاً : متتابعاً . الرس : بود بنجد . زهاؤها : شحومها . الذوي : النعاج الضعيف .

[3]- لبيد بن ربيعة العامري ، ص ٣٢٦ .

ومن أهم ما يميز هذه القصيدة عن غيرها " الطابع الديني الواضح الذي ينم عن إيمان لبيد بالله تعالى وتوحيده، ثم تأكيده على العبره في موت هذا العظيم وزوال النعم " [1] .

ولهذه القصيدة تاريخ بالغ الأهمية ، حيث أنشدت في مكة أنشدها لبيد في مجلس قريش أول الإسلام ولما قال : ألا كل شيء ما خلا الله باطل . قال عثمان بن مظعون : صدقت . فقال لبيد : وكل نعيم لا محالة زائل . قال له عثمان : كذبت أي صدقه في الشطر الأول وكذبه في الشطر الآخر ، فلم يدر القوم ما عنى فأشار بعضهم إلى لبيد أن يعيده فأعاده فصدقه في النصف الأول وكذبه في النصف الآخـــر ؛ لأن نعيم الجنة لا يزول . فقال لبيد : يا معشر قريش ، ما كان مثل هذا في مجالسكم . فقام أبي بن خلف فلطم وجه عثمان فقال : ما أحوج عيني هذه الصحيحة إلى أن يصيبها ما أصاب الأخرى في الله .[2]

وقد أعجب هذا البيت :

ألا كُـلُّ شـــيءٍ مـــا خَـــلا اللّـــهَ باطِـلُ وكـــــلُّ نعـــــيمٍ لا مَحالـــــــةَ زائِـــــلُ

رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : **" أصدق كلمة قالها شاعر كلمـــة لبيـــــد "** [3] كما مر معنا في غير هذا الموضع .

ويشبه الدكتور يحيى الجبوري هذه القصيدة بقصيدة النابغة في رثائه للنعمان بن الحارث حيث قال : " ولهذه القصيدة أخت عند النابغة الذبياني والشبه بين القصيدتين عجيب ، يدعو إلى الدهشة ، فكلتاهما من الطويل وقافية اللام والضمة حركة الروي ، وكلتاهما في رثاء ملك عظيم من ملوك العرب ، فإذا كان لبيد قد بكى بقصيدته النعمان بن المنذر ملك الحيرة ، فإن النابغة قد رثي بقصيدته النعمان بن الحارث الغساني ملك الشام " [4] .

ويذكر وجه الاختلاف بين شخصية كل من الشاعرين ، فالنابغة يتمنى أن تدوم حياة النعمان بن الحارث لأن حياة النابغة ونعيمها رهن بحياته ، فالنابغة رجل مدح أكثر منه رجل رثاء ، أما لبيد يظهر وفياً للنعمان بن المنذر معجباً به متحسراً على موته [5] .

---

[1]- لبيد بن ربيعه العامري ، ص ٣٢٦ .
[2]- الأغاني ، ١٥ / ٣٠٢ . الإصابة ، ٣ /٣١٦ .
[3]- مختصر صحيح مسلم ، ص ٤٩٢ .
[4]- لبيد بن ربيعة العامري ، ص ٣٢٧ .
[5]- المصدر نفسه ، ص ٣٢٨ .

المبحث الرابع

رثـــــاء النفس

رثاء النفس :

رثاء النفس : هي تلك الأبيات التي ينشدها الشاعر عندما يدنو منه الموت ويتيقن بقرب أجله ، وانقطاع أمله ، فينظم أبيات يبكي فيها على نفسه ، ويتفكر في دنياه التي مضت[١] . وهذا اللون من الرثاء يُميز الشعر العربي عن غيره ، وقد عرض القدماء له في مؤلفاتهم[٢] . وذلك لما يكون فيه من عاطفة حزينة ، وشعور صادق ، فالراثي هو المرثي وأي شيء يكون أحب من النفس ؟ وإننا " لا نتجاوز الحقيقة إذا قلنا إن رثاء النفس ..... أصدق أشعار الرثاء ، لشدة التصاقه بذات الشاعر وانبثاقه منها وتعبيره عنها ، ورصده لأحوالها وحركاتها في الوقت الذي تتجسد فيه ذروة مأساتها ، أو تتمثل وقوف حركة الحياة فيها ، وتعيش آخر اللحظات التي تفصل بين الحياة والموت " [٣] .

فصارت قصائد رثاء النفس وشاحاً وعقداً تزين به كثيراً من كتب الأدب القديمة [٤]، وهذا اللون من الرثاء قديم في الشعر العربي ، فهذا يزيد بن خذاق يرثي [٥] نفسه إذ يقول : [٦]

هَلْ لِلْفَتَى مِنْ بَنَاتِ الدَّهْرِ مِن وَاقِ أَمْ هَل لهُ مِن حِمَامِ المَوتِ مِن رَاقِ

قد رَجَّلُونِيَ وَمَا رُجِّلْتُ مِن شَعَثٍ وَأَلْبَسُونِي ثِيَاباً غَيْرَ أَخْلاَقِ

قال ابن قتيبه : بلغني أن أول شعر قيل في ذم الدنيا ، وأول من بكى على نفسه وذكر الموت في شعره ، يزيد ابن حذاق [٧] .

---

[١]- اتجاه الشعر الإسلامي في العصر العباسي الأول ، عبد الله إبراهيم الجهيمان ، رسالة ماجستير ، جامعة الأزهر ،١٩٧٣ م – ١٩٧٤ م ، ص ٧٠ .

[٢]- الرثاء في الجاهلية والإسلام ، ص ٨٣ .

[٣]- شعر رثاء النفس حتى نهاية العصر العباسي ، محمود أبو الخير ، دار جهينة ، عمان ، د ط ، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٦ م ، ص ١٦ .

[٤]- انظر مثلا العقد الفريد ، ٢/ ٣٩٩ .

[٥]- هو يزيد بن الحذاق الشني العبدي ، من بني شن بن أفصى عبد القيس بن أفصى بن دعمي بن جبيلة بن أسد بن ربيعة بن نزار ، شاعر جاهلي قديم ، كان معاصراً لعمرو بن هند ، (الأعلام ، ٨ / ١٨٢ . الشعر والشعراء ، ١/ ٣٨٦ . معجم الشعراء ، لأبي عبد الله محمد بن عمران بن موسى المرزباني ، تحقيق : سالم الكرنكوي ، نشر مكتبة القدسى ، د ط ، ١٣٥٤ هـ ، ص ٦١٤).

[٦]- العقد الفريد ، ٢ / ٣٩٩ . لم يعثر الباحث على ديوانه .

[٧]- الشعر والشعراء ، ١/ ٣٨٦ .

وعندما عاد امرؤ القيس[1] من بلاد الروم منصرفاً عن قيصر ملك الروم ، بعد ما أعطاه حلة مسمومة ، فلما وصل إلى انقره لبسها فتقطع جلده وهلك ، وقبل أن يهلك أنفاسه الأخيرة قال حينما رأى قبر امرأة في سفح جبل عسيب الذي مات عنده : [2]

أجَارَتَنَـــا إنّ الخُطُـــوبَ تَنـــوبُ وإنِـــي مُقِـــيمٌ مَـــا أقَـــامَ عَسِـــيبُ
أجارَتَنَـــا إنّـــا غَرِيبَـــانِ هَهُنَـــا وكُـــلُّ غَرِيـــبٍ للغَرِيـــبِ نَسِـــيبُ

وللبيد بن ربيعة ، قصيدتان رثى بهما نفسه ، فقصيدته الأولى هي تلك الوصية المؤثرة التي قالها عند وفاته ، وفيها يجسد حركة ابنتيه النفسية الداخلية في رغبة ابنتيه في بقائه مهما طالت الحياة ، ثم يأتي رده الصارم على رغبة ابنتيه المستحيلة ، الذي يتمثل في الاستسلام والرضوخ إلى الموت وإقناعهما بأن مصيره هذا مصير كل إنسان : وهل أنا إلا رجل كسائر الرجال ؟ فكيف يمكن للموت أن يستثنيه ؟ [3] في قوله:[4]

تَمَنّـــى ابنَتَـــايَ أنْ يَعـــيشَ أبُوهُمـــا وهـــلْ أنـــا إلاَّ مـــن ربيعـــةَ أوْ مضـــرْ

تذكر الروايات أن لبيداً لم يرزق بولد ، بل رزق ببنتين ، يقول الدكتور إحسان عباس " وهاتان البنتان لعلهما بسرة وأسماء اللتان يذكرهما في شعره " [5] ، وقد ذكر لبيد ابنتيه في أكثر من موضع من شعره ، مثل قوله في بسرة : [6]

وأبـــوكِ بُسْـــرٌ لا يُفَنّـــدُ عُمْـــرَهُ وإلـــى بلَـــى مـــا يُـــرْجَعَنّ جَديـــدُ

لقد رخم بسرة بـ (بسر) وذكر أسماء في قوله : [7]

وحـــذرتُ بعـــدَ المـــوتِ، يـــوْ مَ تَشـــينُ أسْـــمَاءُ الجَبينَـــا

---

[1] - هو : امرؤ القيس بن حجر بن الحارث بن عمرو بن حجر آكل المرار الكندي ، رأس الطبقة الأولى من شعراء الجاهلية ، اسمه جندح وقيل عدي وقيل مليكه ، وكنيته أبو وهب ، وأبو زيد ، وأبو الحارث ، ولقبه ذو القروح ، والملك الضليل ، ولد حوالي سنة ٥٠ م في ديار بني أسد ، وعاش طريداً من بيت والده لميله إلى اللهو والمجون ، ولما قتلت بنو أسد والده تغير مجرى حياته ،وظل يحاول الثأر منهم واستعادة ملك والده حتى مات بأنقرة سنة ٥٦٥ م. الأعلام ٢/ ١١ . الشعر والشعراء ١ / ١٠٥ وشعراء النصرانية ، لويس شيخو اليسوعي ، بيروت ، ١٩٨٠ م ، ١ /٣٥) .

[2] - ديوان امرؤ القيس ، اعتنى به وشرحه : عبد الرحمن المصطاوي ، دار المعرفة ، بيروت ، ط ٣ ، ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م ، ص ٨٣ .

[3] - انظر : شعر رثاء النفس حتى نهاية العصر العباسي ، ص ٢٣٢ .

[4] - شرح ديوان لبيد ، ص ٢١٣ .

[5] - مقدمة شرح ديوان لبيد ، ص ٣٠ .

[6] - شرح ديوان لبيد ، ص ٣٥ .

[7] - المصدر نفسه ، ص ٣٢٦ .

ويتصور لبيد أنه مات ، فقامت ابنتاه تندبانه ، فيزجرهما مبيناً أن من سبقوه إلى الدار الآخرة ، من عظماء وملوك ، أسوة لهما في قوله : [1]

ونائحتـــــــان تنـــــــدبانِ بعاقـــــــلٍ أخـــــا ثقـــةٍ لا عـــينَ منـــهُ ولا أثـــرْ

وفـــي ابنـــيْ نـــزارٍ أســـوةٌ إنْ جزعتُمـــا وَإنْ تســـألاهُمْ تخبـــرَا فـــيهمُ الخبـــرْ

وفـــيمنْ ســـواهُمْ مِـــنْ مُلـــوكٍ وسُـــوقةٍ دعـــائمُ عـــرشٍ خانَـــهُ الـــدهرُ فـــانفقرْ

ثم يوصي ابنتيه ألاّ تبالغا في نعيه ، وألا يتجاوزا الحدود الإسلامية في البكاء عليه ، وأن تدعا خمش الوجه وحلق الشعر ، وأن تذكرا خلائق والدهما بأنه لم يغدر ولم يخن حليفاً ، وألا يطول حزنهما عليه فإن حزنتا حولاً فقد اعتذرتا ، في قوله : [2]

فقُومـــا فقُـــولا بالـــذي قـــدْ عَلِمْتُمَـــا وَلا تَخْمِشَـــا وَجْهـــاً وَلا تحْلِقـــا شَـــعَرْ

وقُـــولا هـــوَ المـــرءُ الـــذي لا خليلَـــهُ أضـــاعَ ، وَلا خـــانَ الصَّـــديقَ وَلا غَـــدَرْ

إلـــى الحَـــوْلِ ثـــمَّ اســـمُ السّـــلامِ علَيكُمـــا وَمَـــنْ يَبْـــكِ حَـــوْلاً كـــاملاً فقـــدِ اعتـــذرْ

لقد علّم لبيد ابنتيه ما يجب أن تعملاه في الحزن عليه ، فهو لا يريد منهما إلا أن تذكراه بالخير ، بأنه لم يغدر ولم يخن صديقا ، وهو يأبى إلا أن يكون معتدلا في هذه الوصيه فلم يكلف ابنتيه ما لا طاقة لهما فيه ، فهو يريد أن تذكراه وأن تبكيا حولاً فإذا ما انتهى الحول فلا بأس بعد ذلك أن تنسياه .

وتذكر الروايات أن ابنتيه كانتا عند وفاته تلبسان ثيابهما في كل يوم ، ثم تأتيان مجلس بني جعفر بن كلاب فترثيانه ولا تندبانه ، فاستمرتا على ذلك حولاً ثم انصرفتا وهما معذورتان[3]. إن تعبير لبيد بقوله :[4]

وقُـــولا هـــوَ المـــرءُ الـــذي لا خليلَـــهُ أضـــاعَ ، وَلا خـــانَ الصَّـــديقَ وَلا غَـــدَرْ

---

[1]- شرح ديوان لبيد ، ص ٢١٣ .
[2]- نفسه ، ص ٢١٣ -٢١٤
[3]- انظر الأغاني : ١٥/ ٣٠٦.
[4]- شرح ديوان لبيد ، ص ٢١٤

يشعرنا برضا لبيد عن نفسه والإعتزاز بما قدمه في حياته من الأخلاق الفاضلـــــة ، وبالابتعاد عن الأخلاق الذميمة من خيانة أو غدر .

أما قصيدته الثانية ، فهي وصيته لابن أخيه أبي حنيف ، ففيها من رجولة لبيد ومروءته الكاملة التي قدمها بين يدي الموت في ساعة احتضاره فقد قال لابن أخيــه "يا بني أن أباك لم يمت ولكنه فنى ، فإذا قبض أبوك فأقبله القبلة وسجه بثوبه ولا تصرخن عليه صارخة ، وانظر جفنتي التي كنت اصنعها فاصنعهما ثم أحملهما إلى المسجد فإذا سلم الإمام فقدمهما إليهم فإذا طعموا فقل لهم أن يحضروا جنازة أخيهم ، ثم أنشد : وإذا دفنت أباك .... البيت "[1]

لقد بدأها لبيد بالرد على ابن أخيه (أبو حنيف) ، الذي لامه على كرمه ، وهو في رده يبكي أباه وأعمامه مبيناً أنه من سليل قوم كرام ، تركوا له تركه لا يستطيع أن يفرط فيها ، إذ يقول : [2]

أنْبِئْـــــتُ أنَّ أبَـــــا حَنِـــــ ـــــيفٍ لا منِـــي فـــي اللائمينـــا

أبُنَـــيَّ هـــلْ أحْسَسْـــتَ أعْمـــ ـــــامِي بنـــــي أمِّ البنينـــــا

وأبـــــي الـــــذي كـــــان الأرا ـــلُ فـــي الشـــتاءِ لـــهُ قطينَـــا

وَأبُـــــو شُـــــرَيحٍ والمُحَـــــا ـــي فـــي المضـــيق إذا لَقينَـــا

الفتيَـــــةُ البـــــيضُ المصَـــــا لـــتُ أشْءبَعُـــوا حَزمـــاً ولِينـــا

فَمَكَثْـــــتُ بَعْـــــدَهُمُ وَكُنْـــــ ـــتُ بطـــولِ صُـــحبتهمْ ضَـــنينا

ذَرْنـــي ومـــا ملكَـــتْ يَمِينـــ ـــي إنْ رَفَعْـــتُ بـــهِ شـــؤونا

---

[1]- ديوان لبيد بن ربيعه ، حمدو طماس ، دار المعرفة ، بيروت ، ط ١ ، ٢٠٠٤ م – ١٤٢٥ هـ ، ص ١٣٧ .

[2]- شرح ديوان لبيد ، ص ٣٢٢ -٣٢٣ . القطين : القوم المقيمون القاطنون . المصالت : جمع مصلت وهو الرجل الماضي في الأمور . اشبعوا : وفروا . مكثت : أقمت في الحياة بعد موتهم . وكنت ضنيناً : أي مختصاً بطول صحبتهم لا أحب أن أفقدها . ما ملكت يميني : من مال وسواه . رفعت به شؤوناً : أزال به أموراً وقضى حاجات .

ثم يوصي ابن أخيه بأن يصون تلك التركه بعد موته ، وأن يلتزم بمكارم الأخلاق وخاصة التعفف عن الجارات وإطعامهن ، وبذل المال لذوي الحاجه ، وهذه القدور يجلبن الذكر الحسن للكرماء أكثر مما يطعم فيهين ، في قوله : [1]

واعْفِفْ عن الجاراتِ وامنَحْ هُنَّ مَيْسِرَكَ السَّمينا

وابْذُلْ سَنَامَ القِدْرِ إنَّ سواءَها دُماً وجُونا

ذا القدرَ إنْ نضِجتْ وعجَّ لْ قبلهُ ما يشتوينا

إنَّ القُدورَ لَوَاقِحٌ يُحْلَبْنَ أمْثَلَ ما رُعِينَا

ثم تسيطر على لبيد صور الموت ، فيوصي ابن أخيه بتحصين قبره ، وأن يرص الحجارة العريضة فوقه ، ويسد الشقوق بالطين ، حرصاً على وجهه من أن يتسرب إليه دقيق التراب ، وهو مع ذلك الحرص المبالغ فيه على يقين بأنه لن يستطيع ذلك مهما حاول ، في قوله : [2]

وإذا دَفَنْتَ أباكَ فاجعَلْ فَوْقَهُ خَشَباً وطِينا

وَصَفائحاً صُمّاً رَوَا سِيهَا يُسَدِّدْنَ الغُضُونَا

لِيَقِينَ وَجْهَ المرءِ سَفْسَافَ التُرابِ ولَنْ يقينا

ويصور لبيد صوراً لدفنه تبين كيف فرغ رهطه من دفنه وسط الثناء عليه ، وتعداد سجاياه ، وقد عادوا إلى منازلهم وهم غبر السواعد ، وقد تيقنوا أنهم فارقوا أخاهم فراقاً لا لقاء بعده في الدنيا ، إذ يقول : [3]

ثمّ اعتبرْ بِثناءِ رهطِكَ ، إذْ ثَوَى جدثاً جنينا

وَتَراجَعُوا غُبْرَ المرا فِقِ مِنْ أخيهمْ يائِسينا

تلكَ المكارمُ إن حفظْ تَ فلن تُرَى أبَداً غَبينا

---

[1]- شرح ديوان لبيد ، ص ٣٢٤ ، الميسر : الجزور يأكلها الميسر ويقسمها .

[2]- المصدر نفسه ، ص ٣٢٥ ، الصفائح : الحجارة العريضة ، الغضون : مكاسر الجلد في الجبين .

[3]- نفسه ، ص ٣٢٥ – ٣٢٦ . الجنين : المدفون .يائسينا : يائسون من أن يروه بينهم بعد ، غبينا : مستضعف .

ويختتم قصيدته برسم صورة المأتم الذي سيقام له ، وما سيلحق بالنساء اللواتي سيبكين لبيداً كنعاج صارة شعثاً غبراً لبسن المسوح ، ومحذراً ابنته أسماء بأن لا تشوه جمالها بخدش أو نحوه ، في قوله : [1]

فـــي رَبْـــرَبٍ كَنِعَـــاجِ صَـــا رَةَ يبتئسْـــنَ بمَـــا لَقينَـــا

مُتَسَـــلبَات فـــي مُسُـــوح الشَّـــعرِ أبكـــاراً وعُونَـــا

وحـــذرتُ بعـــدَ المـــوتِ، يـــوْمَ تَشـــينُ أسْـــمَاءُ الجَبينَـــا

في بداية القصيدة فخر لبيد بمآثر أعمامه (بني أم البنين) وبأبيه (ربيعة المقترين) وسواهم من سادات بني عامر ، وهذا مما لم يعهد في قصائد رثـــاء النفـــس ، وإنما المعهود أن يرتد الشاعر عند شعوره بدنو أجله إلى ماضيه ومآثـــره ، ويستحضر صور الصبا والفتوة هرباً من حاضره الذي يفقد كل ذلك .

وإن تعبير لبيد في قوله : [2]

فَمَكَثْـــتُ بَعْـــدَهُمُ وَكُنْـــ ـــتُ بطـــولِ صُـــحبتهمْ ضَـــنينا

يشعرنا بحب لبيد وتعلقه بأهله وعشيرته ، فهو مختص بطول صحبتهم لا يريد فقدها .

يرى الدكتور طه حسين في كتابه " حديث الأربعاء " [3] أن هذه الوصية مصنوعة معتمداً على الوهم الذي ذهب إليه ابن سعد في الطبقات ، حيث ذكر أن لبيد هاجر إلى الكوفة مع بنيه فلما مات في صحراء بني جعفر عاد بنوه إلى البادية فأقاموا فيها ، مع أن أبا الفرج وأصحابه يزعمون أن لبيداً لم يكن له بنين ، وعلى ما يبدوا أن ابن سعد ذكر كلمة (بنيه) معمماً القول قاصداً بذلك أهله دون أن يقصد تخصص الأبناء دون البنات أو أطفالهم . ومع ذلك فقد يقع الرجل في الوهم . والذي يعنينا هنا أنه رثاء نفسه عندما حضرته الوفاة .

---

[1]- شرح ديوان لبيد ، ص ٣٢٦ . الربرب : القطيع من بقر الوحش وهو يشبه به النساء اللواتي ينحن عليه ، صارة : اسم موضع ، يبئسن : يحزن ويشعرن بالبؤس بما لقين من فقده . متلبسات : يلبسن السلب وهي ثياب سود تلبسها النساء في المأتم . مسوح : جمع مسح وهو الكساء من شعر أسماء : ابنته .

[2]- المصدر نفسه ، ص ٣٢٣ . وكنت صحبتهم ضنينا : أي مختصاً بطول صحبتهم لا أحب أن أفقدها .

[3]- حديث الأربعاء ١/ ٥٠ .

الفصل الثاني

الدراسة الفنية

- الصورة الفنية

- بناء القصيدة

- اللغة الشعرية

- الموسيقى

المبحث الأول

- الصورة الفنية

- صورة المنية
- صورة الفقيد
- صورة الراثي
- صور أخرى

الصورة الفنية :

تمثل الصورة عنصراً فنياً مهماً في الشعر ، بل تعد سمه من سمات العمل الأدبي وركيزة أساسية من ركائز بناء القصيدة الشعرية ، فلا يخلو الشعر من الصور، وإذا افتقد النص الشعري إلى الصور فإنه يتحول إلى كلام جاف وبارد لا تتحقق معه المتعة الجمالية التي تمثل هدفاً أساسياً للشعر ، فالصورة الفنية للقصيدة هي جوهر البناء فيها ، ودلالة من أدلة براعة الشعر في استخدام مفردات اللغة وتراكيبها المختلفة[1] .

إن الشاعر الأصيل هو الذي " يتوسّل بالصورة ليُعبر بها عن حالات لا يمكن له أن يتفهمها ويجسدها بدون الصورة . وبهذا الفهم لا تصبح الصورة شيئاً ثانوياً يمكن الاستغناء عنه أو حذفه وإنما تصبح وسيلة حتمية لإدراك نوع متميز من الحقائق تعجز اللغة العادية عن إدراكه ، أو توصيله . وتصبح المتعة التي تمنحها الصورة للمبدع قرينة الكشف ، والتعرف على جوانب خفية من التجربة الإنسـانية " [2] .

وقد اهتم النقاد القدماء والمحدثون بالتصوير في العمل الأدبي وأولوه جل عنايتهم ، فهذا الجاحظ وهو من أول النقاد العرب القدماء ، الذين التفتوا إلى الصورة ومهمتها الجمالية ويقول : " فإنما الشعر صناعة وضرب من النسج ، وجنس من

[1] انظر : الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب ، جابر عصفور ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، ط ٣ ، ١٩٩٢م . ص ٨ وما بعدها .
[2] المصدر نفسه ، ص ٣٨٣ .

التصوير" [1] وتابعه الإمام عبد القاهر الجرجاني في ذلك فقال : " ومعلوم أن سبيل الكلام التصوير والصياغة ، وأن سبيل المعنى الذي يعبر عنه سبيل الشيء الذي يقع التصوير والصوغ فيه ، كالفضة والذهب يصاغ منها خاتم أو سوار " [2] .

كما تحدث الإمام عبدالقاهر الجرجاني عن التصوير ، فبسط القول في الصورة مفهوماً واصطلاحاً ، حيث قال : " واعلم أن قولنا الصورة إنما هو تمثيل قياس لما نعلمه بعقولنا على الذي نراه بأبصارنا فلما رأينا البينونة بين آحاد الأجناس تكون من جهة الصورة ، فكان تبين إنسان من إنسان ، وفرس من فرس بخصوصية تكون في صورة هذا لا تكون في صورة ذلك ، وكذلك كان الأمر في المصنوعات ، فكان تبين خاتم من خاتم ، وسوار من سوار بذلك ، ثم وجدنا بين المعنى في أحد البيتين وبينه في الآخر بينونة في عقولنا وفروقاً ، عبرنا عن ذلك الفرق وتلك البينونة بأن قلنا للمعنى في هذا صورة غير صورته في ذلك " [3] .

فالصورة عند الإمام عبدالقاهر الجرجاني ، ليست إلا المميزات المفرقة للشيء عن غيره ، وقد تكون في الشكل وقد تكون في المضمون لأن الصورة مستوعبة لهما والنظر لأحدهما لابد أن تنعكس على الآخر ولا يمكن الفصل بينهما[4] .

وهكذا فإن الإمام عبدالقاهر الجرجاني أول من أعطى للصورة دلالة اصطلاحية وهي تعني لديه الفروق المميزة بين معنى ومعنى .

وظل الاهتمام بالصورة قائماً في ميدان الأدب حتى العصر الحديث ، إذ اتسع مفهوم الصورة وتطور في هذا العصر بتطور العلوم وكثرتها وقد تناولها كثير من

---

[1] الحيوان ، لأبي عثمان عمر بن بحر الجاحظ ، تحقيق : عبدالسلام هارون ، شركة ومكتبة مصطفى البابلي الحلبي ، القاهرة ، ط٢ ، ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م ١٣٢/١ .

[2] دلائل الإعجاز ، للإمام عبد القاهر الجرجاني ، شرحه وعلق عليه : محمد التنجي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م ،ص ١٩٧.

[3] دلائل الإعجاز ، ص ٥١٨ .

[4] الصورة الفنية في شعر الشماخ ، محمد علي ذياب ، وزارة الثقافة ، عمان ، د ط ، ٢٠٠٣م ، ص ١٥ .

النقاد إذ ركزّوا عليها وأفردوا لها كتباً خاصة ، كشفوا فيها عن قيمتها الفنية ، وعن أهميتها في مجال الأدب .

ومن هؤلاء النقاد المحدثين الذين تحدثوا عن أهمية الصورة جابر عصفور إذ يقول : " تنبع أهمية الصورة من طريقتها الخاصة في تقديم المعنى وتأثيرها في المتلقي " [١] .

ومن هذه الاهتمامات عند النقاد المحدثين ما ذكره الزيات بقوله : " الصورة تخلق المعنى والأفكار المجردة ، أو الواقع الخارجي من خلال النفس خلقاً جديداً " [٢].

وبناءً على ما سبق فلابد من توافر الصورة الفنية في النص الأدبي ؛ لأنها تنقل المشاعر وتوصل المعاني إلى المتلقي وتؤثر فيه .

وقد استخدم لبيد بن ربيعة الصورة في شعر الرثاء مما يدل على أنه وعى قيمتها الفنية فظهر في شعره الرثاء في كثير من الصور الفنية ، وقد اتخذ لبيد بن ربيعة من الصورة الفنية وسيلة للتعبير الفني عن أفكاره ومشاعره ، وذلك ، لأن الصورة الفنية في أحد معانيها " هي الوعاء الذي يحاول بها الأديب ، نقل فكرته وعاطفته معاً إلى قرائه وسامعيه " [٣] .

سأتناول الصورة الفنية في شعر الرثاء عنده من خلال ثلاثة محاور شكلت قصيدة الرثاء لديه ، وهي صورة المنية ، وصورة الفقيد ، وصورة الراثي .

١- صورة المنية :

اهتم لبيد بن ربيعة في مراثيه بتصوير الموت ، واعتمد في ذلك بشكل خاص على الاستعارة ، وقلما نجد لبيد اعتمد على التشبيه في تصوير الموت ، ولابد من ذكر

---

[١] الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب ، ص ٣٢٨ .
[٢] دفاع عن بلاغة ، أحمد حسن الزيات ، عالم الكتب ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٦٧م ، ص ٦٢ .
[٣] أصول النقد الأدبي أحمد الشايب ، مكتبة الهضة المصرية ، القاهرة ، ط٨ ، د ت ، ص ٢٤٢ .

سبب لهذه الظاهرة ، ولا يكفي أن يقال إن الاستعارة أعظم الأساليب في الشعر[١] وأرى أن سبب هذه الظاهرة هو أن لبيد بن ربيعة كان صادقاً مع نفسه ، ولذلك أعطى لبيد أوصافاً للموت من خلال نظرته له وبناءً على مشاعره الخاصة نحوه ، وانطلاقاً من فكرته عنه ، كما أن الاستعارة هي التي " تلائم ثورة العاطفة ووحدة الوجدان " [٢] مما جعل لبيد يكثر من استخدامها للتعبير عن صوره حيث " تخرج الكلمات ملتهبة حادة بفضل ما في المجاز والاستعارة من تركيز وإيجاز وتبلور يعطي التعبير قوة وفي أثناء ذلك يتحول الشاعر إلى ما يشبه صانعاً جديداً للغة ، فهو يسمي الأشياء بغير أسمائها ويصفها بصفات أشياء أخرى معبراً عن علاقات فكرية جديدة " [٣] .

لقد جعل لبيد من الموت قوة مجسمة مدمرة قادرة على الانقضاض على كل إنسان وربما كان سبب اعتماد لبيد على تشخيص الموت وتجسيمه في شعر الرثاء على وهم كان يعتقد به " الإنسان القديم والذي يرى أن لكل شيء من الأشياء روحاً وظل هذا الوهم شيئاً موروثاً لا شعورياً "[٤] .

كما أن من أسباب اعتماد لبيد على تصوير الموت بالتجسيم ، تحريك المتلقي وإيقاظه وإدهاشه ، ومعنى التجسيم : هو جعل المعنوي محسوساً وكأنه ماثل أمامك فلبيد أمسك اللامحسوس فجعل له جسماً ، وبث فيه الحياة والحركة حيوان كان أم إنساناً[٥] . فجعل للموت أيدياً وعيوناً ترقب الناس وتنقص جمعهم ، وأفواهاً تأكل أعمارهم وتشربها .

---

[١] فن الشعر ، أرسطو ، ترجمة : د. شكري عياد ، دار الكتب العربي للطباعة والنشر ، د ط ، ١٩٦٧م ص ١٢٨ ، انظر : رثاء الأبناء في الشعر العربي إلى نهاية القرن الخامس ص ١٥٤ .

[٢] في النقد الأدبي ، شوقي ضيف ، دار المعارف ، القاهرة ، ط ٥ ، ١٩٧٧م ، ص ١٧١ .

[٣] نفسه ، ص ١٧١ .

[٤] تاريخ الأدب العربي ، نديم عدي ، مكتبة ربيع ، حلب ،ط١ ، ١٩٥٤م ، ١٨/١ .

[٥] انظر : الصورة الفنية في شعر الشريف الرضي ، في كتاب الشريف الرضي دراسات في ذاكرة الألفية ، عبدالله الصائغ ، دار آفاق عربية ، بغداد ، د ط ١٩٨٥م ، ص ٢٦٤ .

صور لبيد بن ربيعة الموت بصور شتى ، وأقام علاقات عدة بينه - وهو صاحب الجانب المعنوي - وبين العالم المحسوس ؛ إذ ألصق به صفاتٍ وأفعالاً ليست من ملازماته أو مصاحباته في عالم الحقيقة والواقع[1] .

إذ يقول لبيد بن ربيعة[2] :

وفـــيمنْ ســـواهُمْ مِـــنْ مُلـــوكٍ وسُـــوقةٍ دعـــائمُ عـــرشٍ خانَـــهُ الـــدهرُ فـــانقعرْ

فالدهر هو الموت ، فقد ألبس لبيد الدهر صفة الخيانة ، وهو بذلك جمع بين الدهر والخيانة جمعاً غير منطقي ، فالخيانة صفة لصيقة بعالم الإنسان منه بما هو معنوي والمعتاد أن الإنسان يتعرض لألم الخيانة من جانب إنسان مثله ، وهو لم يعتد ذلك من غيره ولكن إحساس لبيد العميق بفعل الدهر وقسوته قاده إلى الجمع بين الاثنين " الدهر + الخيانة " فقد ألف لبيد القوة والقسوة من جانب الدهر الذي لا يتورع عن إنزال المصائب بالإنسان وسلبه من يحب وما يشتهي على حين غفلة دون أن يراعي أثر فعلته بذلك الإنسان الضعيف[3] .

وشخص لبيد الدهر بصورة إنسان يعظ الناس في قوله[4] :

فقُـولا لَـهُ إنْ كـانَ يَقْسِـمُ أمْـرَهُ ألَمّـا يَعِظْـكَ الـدّهرُ، أُمُّـكَ هابِـلُ

يعلم لبيد أن الوعظ صفه من صفات الإنسان ، لكن لبيد الذي يملك زمام الإبداع وتفتيق المعاني استطاع أن يشخص الدهر ، حيث جعل الوعظ صفة له ومستلزمه من مستلزماته ، فلبيد شعر بفعل الدهر وانعكاس أثره على حياته فكان لجوؤه للاستعارة نوعاً من القدرة على التعبير عن مشاعره وهواجسه .

إن نعت لبيد للدهر بالواعظ لأنه عرف حقيقته وأيقن أنه بمصائبه ونوازله كالواعظ ، فما من أحد إلا وله تجربته الخاصة مع الدهر ، ومن المؤكد أن الدهر كان

---

[1] انظر : تشكيل الخطاب الشعري " دراسات في الشعر الجاهلي " ، موسى ربابعة ، دار جرير ، عمان ، ط١ ، ٢٠١١م - ١٤٣٢هـ ، ص ٨٧ .
[2] شرح ديوان لبيد ، ص٢١٣ .
[3] انظر : تشكيل الخطاب الشعري ، ص ٩٤ .
[4] شرح ديوان لبيد ، ص ٢٥٥ . أقسم : قدر . هابك : ثكلتك .

صاحب الغلبة ، لذا فإن الإنسان البصير هو الذي يقدر أن عليه الاتعاظ بالدهر الذي ليس من عادته أن يترك أحد سالماً من القهر والإبادة .

ويرى لبيد أن المنايا لا تدع أحداً عارياً من المصائب ، في قوله[1] :

مـــا إنْ تُعَـــرّي المَنُـــونُ مِـــنْ أحَـــدِ لا والِـــــدٍ مُشـــــفِقٍ وَلا ولَـــــدِ

شخص لبيد الموت بصورة إنسان يملك القدرة على التعرية ، والتعرية خاصية من خواص الإنسان وهي مأخوذة من الفعل " عرا[2] " الذي يقصد التجريد والتخلص والعري خلاف اللبس ، إلا أن لبيد أستعار هذه الكلمة من عالم الأحياء المحسوس ليضمها إلى عالم اللامحسوس .

وقوله في رثاء أخيه أربد[3] :

أتجـــزَعُ مِمّـــا أحـــدَثَ الـــدّهرُ بـــالفَتى وأيَّ كَـــــريمٍ لـــــمْ تُصِـــــبْهُ القَـــوَارِعُ

شخص لبيد الدهر بصورة إنسان يصيب الكريم بإحدى قوارعه في يوم من الأيام ، وأن ينزل فيه إحدى مصائبه في ساعة من الساعات ، ولذا ما على الإنسان إلا أن يتهيأ لهذا الأمر وأن يتقبله إذا ما حدث ، فما أحد بمنجاة منه .

ويقول[4] :

لَعَمْـــرُكَ مـــا تَـــدري الضَّـــوَاربُ بالحصَـــى وَلا زاجِـــراتُ الطّيـــرِ مـــا اللّـــهُ صـــانِعُ

سَـــلُوهُنَّ إنْ كَـــذَّبتموني مَتَـــى الفَتَـــى يـــذوقُ المَنَايـــا أوْ مَتَـــى الغيـــثُ واقِـــعُ

جمع لبيد بين الفعل " يذوق " و " المنايا " وهذا الجمع غير مألوف فشتان ما بين المنايا التي تقف لكل حي بالمرصاد وبين فعل التذوق الذي يعد من الأفعال المحسوسة لكن لبيد ها هنا اختار الاستعارة ليشكل بها بناءً خاصاً بعالمه الذاتي

---

[1] شرح ديوان لبيد ، ص ١٥٨ . تعرى : ترك .
[2] انظر : لسان العرب ١٢٧/١٠ .
[3] شرح ديوان لبيد ، ص ١٧٢ . القوارع : مصائب تقرع قلبه .
[4] نفسه ، ص ١٧٢ .

وليستطيع في الوقت نفسه أن يجسد عواطفه وأحاسيسه تجاه ذلك المجهول الذي يأتي الإنسان على حين غفلة من حيث لا يدري ولا يعلم .

وقد ألبس لبيد الدهر صفة الإبصار حيث جعل البصر إحدى صفاته حيث قال[1] :

لحَــا اللّــهُ هَــذا الــدّهرَ إنّــي رَأيْتُــهُ بصِــيراً بمــا سَــاءَ ابــنَ آدَمَ مُولعــاً

فهو ينقل صفة البصر من عالمها الحسي إلى عالم آخر معنوي ، فالدهر يملك رؤية ثاقبة لكل ما ينزل بالإنسان من شر وأذية ، وهو لم يكتف بذلك بل إننا نجده مولعاً بما يلحقه من ضرر بالإنسان ، وهذه استعارة ثانية استخدمها لبيد ليعكس بها حسرته وحزنه الشديدين ، وباحتواء البيت الواحد على استعارتين فإن القارئ أو المتلقي يستطيع أن يدرك قوة الدهر وقدرته على أذية ابن آدم وإنزال اللوعة والحسرة في قلبه .

وهكذا تتعدد صور المنية عند لبيد بن ربيعة ، ويعود هذا إلى نفسية الشاعر وهو يشكل هذه الصور وغيرها للموت . لذا نرى لبيد يصور المنية بهيئة الحيوان المفترس حيث يجسدها في صورة الوحش ذي المخالب والأنياب ، فيمنح هذا بعداً تواصلياً بين الفكرة والصورة والمتلقي ؛ لأن هذه الصورة المرعبة للمنية ، تترك أثراً مرتسماً في الذهن ، فلبيد في مثل هذه الصورة يبين صعوبة الخلاص بعد الإمساك ، ولم يقصد الالتهام ، وكما أن الإنسان لا يستطيع التعامل مع الحيوان لاستخلاص الفريسة سالمة من بين يديه ، وكذلك حاله مع المنية[2] ، إذ يقول في رثاء عمه الطفيل بن مالك [3] .

وبعــــدَ طفيــــلٍ ذي الفِعَــــالِ تعلّقَــــتْ بــــــهِ ذاتُ ظُفْــــرٍ لا تُــــوَرَّعُ باللَّجَــــبْ

---

[1] شرح ديوان لبيد ، ص١٧٣ .
[2] انظر : المراثي الشعرية في عصر صدر الإســـلام ، ص ٢٢٢ .
[3] شرح ديوان لبيد ، ص ١ . ذات ظفر : المنية ، لا تورع : لا تكلف ولا تحبس . اللجب : ارتفاع الأصوات واختلاطها .

حيث يثبت لبيد هنا أنه لا يمكن تخليص الميت من أظفار المنية ، حتى ولو ارتفعت أو اختلطت أصوات النائحات .

ويصور لبيد الدهر بصورة المفرق أو الفاجع ، الذي يفجع الإنسان ويفرق بينه وبين من أحب في قوله[1] :

فَــلا جَــزِعٌ إنْ فُــرّقَ الــدّهْرُ بَيْنَنَــا وكُــلُّ فَتــىً يَوْمَــاً بــهِ الــدّهْرُ فــاجِعُ

ولم يعد الموت يجيء ويروح عند لبيد بن ربيعة ولكنه بفضل قوته وسطوته أصبح قادراً على أن يهلك من يريد ، ويكفيه فقط أن يستدعي الفقيد ، وما أسرع ما يستجيب الفقيد للنداء ، وبذلك تتوثق العلاقة بين الداعي والمدعو ، إذ يقول[2] :

دَعَــا أرْبَــداً داعٍ مُجيبــاً فأســمعَا ولــمْ يســتطعْ أنْ يســتمرَّ فيمنعَــا

والموت عند لبيد سبيل يسلكه كل الناس كما قال في رثاء أخيه أربد[3] :

وكــانَ سَــبيلَ النّــاسِ، مَــن كــانَ قبلَــهُ وذاكَ الــــذي أفْنَـــى إيَـــاداً وتُبَّعَـــا

ومن ذلك قوله في رثائه لأهله وعشيرته[4] :

مَضَــوْا سَــلَفاً قصْــدُ السّــبيلِ عَلَــيهِمِ بهــيٌّ مــنَ السّــلاّفِ لــيسَ بحيــدِ

وصور الموت بالعواذل ، أي حوادث الدهر في قوله[5] :

فــإنْ لــم تَجِــدْ مِــنْ دونِ عَــدْنانَ باقيــاً ودونَ معــــدٍّ فلتزَعْــــكَ العَــــوَاذِلُ

---

[1] شرح ديوان لبيد ، ص ١٦٨ .
[2] المصدر نفسه ، ص ١٧٣ .
[3] نفسه ، ص ١٧٣ .
[4] المصدر نفسه ص ٥٤ .
[5] المصدر نفسه ، ص ٢٥٥ ، العواذل : حوادث الدهر .

والموت عن لبيد واجب لابد أن يطلع على كل الناس القريب منه أو البعيد إذ يقول[1] :

فَلَــا تَبْعَــدَنْ إنّ الْمَنِيّــةَ مَوْعِــدٌ عَلَيْنَــا فَــدَانٍ لِلطُّلُــوعِ وَطَــالِعُ

ويقصد الموت أخلاءه ، فهو يستبصر للقيام بمهمته ، التي تمنع الإنسان من بلوغ أمله المتمثل في الخلود ، إذ يقول في رثاء أخيه أربد[2] :

فاعتاقَــــهُ ريْــــبُ البريّــــ ـــــةِ إذْ رَأى أنْ لا خُلُــــودَا

وصور الموت بصورة القائد الذي يختار أفراد فريقه بفكر وروية ، فيراهم خيار الناس وساداتهم وزعمائهم ، وأخيار الجنود الذين يعتمد عليهم ، إذ يقول في رثاء أخيه أربد[3] :

عَمِيــدُ أنَــاسٍ قَــدْ أتَــى الــدّهْرُ دونَــهُ وخَطّــوا لــه يوْمــاً مــنَ الأرْضِ مضْــجعَا

وهذا الاختيار مدعاة فخر واعتزاز .

ولم يكتف لبيد بالاستعارة المفردة ليبين لنا قوة الدهر ، وإنما يؤزرها باستعارات أخرى مركبة شملت عدة أبيات متتالية ، إذ يقول[4] :

وأفنــى بَنَــاتُ الــدّهرِ أرْبــابَ نــاعطٍ بمُسْــتَمَعِ دونَ السّــماء ومَنْظَــرِ
وبالحــارثِ الحــرابِ فجعــنَ قومَــهُ ولَــوْ هــاجَهُمْ جــاءُوا بنَصْــرٍ مُــؤزَّرِ
وأهلَكْــنَ يومــاً ربَّ كنــدَةَ وابنــهُ وربَّ مَعَــدٍّ بــينَ خَبْــتٍ وعَرْعَــرِ
وأعوَصْــنَ بالــدُّوميّ مــن رَأسِ حِصْــنِهِ وأنــزلْنَ بالأســبابِ ربَّ المشــقرِ

حيث تعانقت في تلك الأبيات أربع استعارات وهي " أفنى ، فجعن ، أهلكن أعوصن " وهذه الاستعارات التي كثفها لبيد ، تلتقي مع بعضها بعضاً ، وكل استعارة

---

[1] شرح ديوان لبيد : ص ١٧١ . موعد عليك : واجب عليك . فدان للطلوع : قريب الأجل وبعيد الأجل . طالع : يطلع : بعد .
[2] المصدر نفسه : ص ١٦٣ ، فاعتاقه : قصده أي منعه من بلوغ أمله . ريب البرية : صرف الدهر .
[3] المصدر نفسه : ص ١٧٣.
[4] المصدر نفسه ، ص ٥٥-٥٦ . بنات الدهر : الأيام والليالي . أرباب ناعط : هم من همدان . ومنظر : لمن سمع كمن ينظر . الحارث الحراب : الحارث الحراب بن عمرو بن حجر الكندي ، ويقال رجل من غسان . هاجهم : دعاهم وحركهم . مؤزر : شديد .
رب كندة : ملكهم حجر أو امرئ القيس . رب معد : ملكهم حذيفة بن بدر . خبت : مستوٍ من الأرض . عرعر : بلد .
أعوصن : انقلبن به . الدومي : ملك دومة الجندل . الأسباب : الحبال . المشقر : حسن بالبحرين .

تنمي فعل الاستعارة الأخرى[1] ، لتشكل في نهاية المطاف الصورة الرئيسية والبارزة للدهر المتمثلة بالإبادة والإهلاك .

كما اعتمد لبيد بن ربيعة على التشبيه التمثيلي في تصوير المنية ، إذ يقول[2] :

وَيَمْضُـــون أرْسَـــالاً ونَخْلُـــفُ بَعـــدهم كمـــا ضَـــمّ أُخـــرَى التّاليـــاتِ المُشـــايعُ

فقد صور لبيد الموت حين يسوق الناس نحو الهلاك براعي إبل يزجر ما تخلف من إبله ويسوقها نحو القطيع .

وقد استعان لبيد في جلاء صورة المنية بالكناية ، وإجادة التعبير بالكناية " يدل على براعة الشاعر في صياغة معانيه بأسلوب رفيع وعبارة موجزة دالة فيها ضرب من الجمال لا يأتي إظهاره بدونها" [3] فقد كنى لبيد عن المنية باصفرار الأنامل ، في قوله[4] :

وكـلُّ أنـاسٍ سـوف تـدخل بيـنَهمْ دُوَيْهيـةٌ تصـفرُّ منهـا الأنامِـلُ

ومن ذلك قوله في رثاء أهله وعشيرته[5] :

فهـوّنَ مـا ألْقَـى وإنْ كُنْـتُ مُثبتـاً يَقينـي بـأنْ لا حـيّ يَنجـو مـن العَطَـبْ

فقوله : " العطب " كناية عن الموت .

وهكذا فإن لبيد قد اعتمد على الاستعارة في تصوير المنية ، أكثر من اعتماده على التشبيه والكناية .

---

[1] تشكيل الخطاب الشعري ، ص ٩٩ .
[2] شرح ديوان لبيد ، ص ١٧٠ . أرسالاً : جماعة بعد جماعة . نخلف بعدهم : نبقي . التاليات : أواخر الإبل . المشايع : الذي يزجر إبله .
[3] لبيد بن ربيعة العامري ، ص ٤٢٩ .
[4] شرح ديوان لبيد ، ص ٢٥٦ . الأنامل : الأظفار .
[5] المصدر نفسه ، ص ٢ . العطب : الموت .

٢- صورة الفقيد :

اعتمد لبيد على التشبيه كثيراً في بيان صورة الفقيد ، ويمكن أن يفسر ذلك بامتزاج الحزن والفخر والاعتزاز عند لبيد ، فالتشبيه لا يستخدم في حالة الانفعال الشديد[١] . وبذلك كان أكثر أنواع المجاز ملائمة لرغبة الشاعر في تعليل حزنه على فقيده[٢] . وإذا كان من مهام التشبيه " التصوير والتوضيح بالانتقال من شيء إلى شيء يشابهه ويشاكله " [٣] فهو مناسب جداً للحديث عن الفقيد ، وهو ما فعله لبيد بن ربيعة حيث استخدم التشبيه عند عرضه لصفات الفقيد ومناقبه .

ويبرز الصدق في تشبيهات لبيد بارتباطها بعاطفته وبانتزاعها من بيئته ومظاهر حياتهم وأسلوب عيشهم ، وبذلك تكون التشبيهات مادة غزيرة للكشف عن جوانب الحياة والطباع والسلوك والنشاط الإنسان في أطوار البداوة والحضارة[٤] .

فقد ارتبط التشبيه بعاطفة لبيد بن ربيعة في شعر الرثاء تجاه مفقودة وأكد التشبيه على منزلة الفقيد عند لبيد . ومن هذا التشبيه الذي يكشف مكانة الفقيد عند لبيد قوله في رثاء أخيه أربد[٥] :

ألفَــتَ أربَــدَ يُستَضــاءُ بوَجْهِــهِ كالبــدرِ، غيــرَ مقتّــرٍ مُســتأثرِ

إن تشبيه لبيد لأخيه بأنه بدر يدل على تلك المكانة الرفيعة التي بلغها أخيه في نفس لبيد ، والخسارة التي مُني بها بعد فقده . وهذه الصورة من صور الثناء على الميت وذكر شمائله . حيث كانت العرب تمدح بياض الوجه وتعده سمة من سمات النبل والشرف وعراق الأصل .

---

[١] انظر : في النقد الأدبي ، ص ١٧١ .
[٢] انظر : الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب ، ص ١٧١ .
[٣] في النقد الأدبي ، ص ١٧١ .
[٤] انظر : غرائب التنبيهات على عجائب التشبيهات ، علي بن ظافر الأزدي ، تحقيق : محمد زغلول سلام ومصطفى الجويني ، دار المعارف ، القاهـــرة ، د ط ١٩٦٤م ، ص١٩ .
[٥] شرح ديوان لبيد ، ص ١٦٦ . مستأثر : أي يؤثر على نفسه دون أي شي آخر .

وإذا أردنا معرفة منزلة أربد عند أخيه لبيد فالتشبيه التالي يكشف ذلك إذ يقول[1] :

إنّ الرزيّـــــةَ لا رَزِيـــــةَ مثلُهَـــــا فِقْـــدانُ كـــلّ أخٍ كَضَـــوْءِ الكوكَـــبِ

فلبيد يرى أن مصيبته ليست مثلها أي مصيبة ؛ لأنه فقد أخاه الذي يشبه ضوء الكوكب في جماله .

وقد شبه لبيد بن ربيعة أخاه بالبطل المحامي[2] :

قُـــولا هُـــوَ البَطَـــلُ المُحَـــا مـــي حِـــينَ يُكْسَـــوْنَ الحَديـــدَا

ومن التشبيه قول لبيد في شجاعة أخيه أربد[3] :

وأرْبَـــدُ فـــارِسُ الهَيْجـــا، إذا مـــا تَقَعّـــرَتِ المَشـــاجِرُ بالْخِيَـــام

فالتشبيه في البيتين السابقين ، يكشف ما أحدثه فقد لبيد لأخيه من حزن حتى كأن الشجاعة فقدت مع فقد أخيه أربد .

ويشبه عفوا أخاه وكرمه بالمطر يسقي الأرض ويكثر خيرها ، في قوله[4] :

يَعْفُـــو عَلَـــى الْجَهْـــدِ وَالسّـــؤَالِ كَمَـــا يُنْبِـــتُ غَيْـــثُ الرّبيـــعِ ذُو الرّصَـــدِ

فقد عبر عن سعة عفوه بصورة مادية " فالشاعر الجاهلي غير قادر على تصوير المعنويات أو التعبير عنها إلاّ مجسمة في ماديات محسوسة أو متعلقة بأشخاص بأعيانهم " [5] .

ومن التشبيه التمثيلي قوله يصف كرم أخيه أربد[6] :

---

[1] شرح ديوان لبيد ، ص ١٥٥ . الرزية : المصيبة . فقدان : فقد . كضوء الكوكب : في جمالة .
[2] المصدر نفسه ، ص ١٦٣ . يكسون : أي الأبطال .
[3] المصدر نفسه : ص ٢٠١ . تقعرت : تقوضت من أصلها . المشاجر : خشب توضع عليه أمتعتهم .
[4] نفسه : ص ٢٠١ . يعفو : يكثر . الصوب : المطر . الرصد : المطر يكون في أول الزمان .
[5] لبيد بن ربيعة العامري ، ص ٤٣٠ .
[6] شرح ديوان لبيد ، ص ١٦٤ . الضريك : الفقير . الغيل : موضعه . يقرو . يتتبع . جمدا : اسم جبل .

رِفْهَـــا إِذَا يَـــأْتِي ضَـــرِيكٌ وَرَدَا مِثْـلُ الَّـذِي فِـي الْغِيـلِ يَفْـرُو جُمُـدَا

حيث شبه أخاه أربد عندما يقدم طعامه دائماً للفقير بالأسد المخدر الذي يصعد في جمد ، وفي قوله : " مثل الذي في الغيل " كناية عن الأسد .

وقد اعتمد لبيد على الكناية كثيراً في تصوير قيم الفقيد ، حيث تمتزج عاطفة الاعتزاز بعاطفة الحزن ، مما يؤدي من حدة العاطفة الهائجة ، وتكثر في كرم المرثي وشجاعته . " فالكناية أبلغ من الإفصاح ، والتعريض أوقع من التصريح " [1] .

ومن أمثلة الكناية ، قوله يرثي عمه عامر ملاعب الأسنة[2] :

وبـــالفُورَةِ الحَـــرّابُ ذو الفَضْـــلِ عـــامِرٌ فَـــنِعْمَ ضِـــياءُ الطّـــارِقِ المُتَنَـــوِّرِ

ونِعْـــمَ مُنَـــاخُ الجَـــارِ حَـــلّ بِبَيْتِـــهِ إِذا مـــا الكعـــابُ أصـــبحتْ لـــم تســـترِ

ففي قوله : " ضياء الطارق المنثور " كناية عن الكرم

وفي قوله : " إذا ما الكعاب أصبحت لم تستر " كناية عن طيب جواره

ومنها قوله في رثاء أخيه أربد[3] :

يـــا مَـــيّ قُـــومي فـــي المَـــآتِمِ وَانْـــدُبي فتـــىً كـــانَ ممّـــن يَبتنـــي المَجـــدَ أرْوَعَـــا

ففي قوله : " يبتني المجد " كناية عن نسبة تصور لزوم المجد له .

ومنها قوله في رثاء عمه الطفيل بن مالك[4] :

كَمِـــيش الإِزار يَكْحُـــل العيـــنم إِثْمـــداً سُـــرَاهُ ويُضْـــحي مُسْـــفِراً غَيْـــرَ وَاجِـــم

ففي قوله : " كميش الإزار " كناية عن الاستعداد والتصميم ومضاء العزيمة .

---

[1] دلائل الإعجاز ، ص ٦٩ .
[2] شرح ديوان لبيد ، ص ٥ . الفورة : موضع . الحراب : عامر ملاعب الأسنة . الضياء : النار . المنور الذي ينظر إلى النار فيأتيها .
[3] المصدر نفسه ، ص ١٧٣ . الأروع : الشهم الشجاع .
[4] المصدر نفسه . ص ٢٩٦ . كميش الإزار : مشمر . الواجم : الذي اشتد حزنه وأسكته الهم وعلته الكآبة .

ومنها قوله في رثاء أخيه أربد[1] :

الْبَاعِـــثُ النّـــوْحَ فِـــي مَآتِمِـــهِ مِثْـــلَ الظِّبَـــاءِ الْأَبْكَـــارِ بِـــالْجَرَدِ

ففي هذا البيت تقترن كلّ من الكناية والتشبيه ، حيث أن قوله " الباعث النوح في مآتمه " كناية عن شجاعة أخيه أربد ، فهو يقتل الرجل ، فيبعث النائحات من النساء اللواتي يشبهن الظباء بالأرض المستوية .

كما اقترنت الاستعارة والكناية في بيت واحد إذ يقول في رثاء أخيه أربد[2] :

الســـابِلَّ الفَضَـــل إذا مـــا عُـــدِّدَا ويمـــلأُ الجِفْنَـــةَ مَـــلاءً مَـــدَدا

فلبيد يقول : إذا عدد الفضل فإن فضل أخيه أربد يكون سابلاً أي : سابغاً على التشبيه بالبرود[3] . وهي الثياب السابغة التي شبّههُ بها ، ثم حذفها وأبقـــى صفتهـــا (السابل) على الاستعارة المكنية التي تجسد فضله ، وتجعله يسبغ الناس .

وقوله : " يملأ الجفنة ملأ مدداً " كناية عن كرمه وكثرة عطائه وسخائه .

وقد قابلت عند لبيد وصفة لأخيه أربد بلطافة الكبد ، كناية عن حسن الخلق في قوله[4] :

حُلْـــوٌ كَـــرِيمٌ وَفـــي حَلاوَتِـــهِ مُـــرٌّ لَطِيـــفُ الأَحْشَـــاءِ والكَبِـــدِ

وذلك في مقابل " غلاظة الكبد " التي يكنى بها الفظاظة والقسوة .

كما قابلت عنده وصفة لأخيه أربد بأنه " حلو كالعسل " في قوله[5] :

مُمْقِـــرٌ مُـــرٌّ علـــى أعدائـــه وعلـــى الأَدْنَـــينَ حُلْـــوٌ كالعســـل

---

[1] شرح ديوان لبيد ، ص ١٦٢ . المآتم : الجماعة في الحزن والفرح . الجرد : الأرض المستوية .
[2] المصدر نفسه ، ص ١٦٤ . مدداً : مكثراً .
[3] المصدر نفسه ، ص ١٦٤.
[4] المصدر نفسه ، ص ١٦٢.
[5] المصدر نفسه ، ص ١٩٧.

٣- صورة الراثي :

أهتم لبيد بن ربيعة بتصوير أثر الفقد في نفسه ، وتصوير حاله بعدما فقد من يرثيه ، وانعكاس المصيبة عليه وعلى سلوكه ، وما يرافقها من مشاعر وانفعالات تتصاعد . إن " ربط الصورة الشعرية بنفسية الشاعر يوقفنا على عمق أكثر ، وصدق أكبر في فهم الصورة " [١] . وقد استلهم لبيد صُوره في تصوير أحزانه من بيئته التي يعيش فيها ، معتمداً على التشبيه ، ومن ذلك قوله في رثاء أهله وعشيرته[٢] :

أصْـبَحْتُ أمْشـي بَعْـدَ سَـلْمى بـن مالـكٍ وبَعْـدَ أبـي قـيسٍ وعُـرْوَةَ كالأجَـبّ

يضـجُّ إذا ظـلَّ الغُـرابِ دَنـا لَـهُ حِـذاراً علـى بـاقي السّنَاسِـنِ والعَصَـبْ

في هذين البيتين يصف لبيد حاله بعد فقده لأعمامه وقومه ، وقد تركوا في نفسه إحساساً بالألم والوحدة ، حيث أصبح يمشي كالأجب ، أي : البعير المقطوع السنام الذي يرغو حين يدخله إحساس باقتراب ظل الغراب ليقع على ظهره حذراً منه على باقي السناسن والعصب ، فهذه صورة مؤثرة ؛ لأنها صادقة انتزعها من الواقع المشاهد في بيئته . فقد استطاع لبيد أن يجمع بين الصدق الفني والصدق الواقعي على السواء .

ويشبه لبيد نفسه بعد موت أخيه أربد بالثور الذي كسر أحد قرنيه وأضحى أغضب وهي صورة تدل على التفرد والتشوه والنقص والعجز ، إذ يقول[٣] :

يـا أربـدَ الخيـرِ الكـريمَ جُـدُودهُ أفرَدتَنـي أمْشـي بقَـرْنٍ أعْضَـبِ

قوله : " أفردتني أمشي بقرن أغضب " كناية عن من لا ناصر له .

---

[١] رثاء الأبناء في الشعر العربي إلى نهاية القرن الخامس الهجري ، ص ١٦٣ .

[٢] شرح ديوان لبيد ، ص ١ . الأجب : الذي يخرج في سنامه دبرة فلا تزال تأكل سنامه حتى يجب أن يقطع . يضج الأجب : يرغو إذا دنا منه الغراب . السناسن : رؤس فقار الظهر .

[٣] المصدر نفسه : ص ١٥٦ . الأعضب : المكسور أحد قرنيه .

ويقول أيضاً في المعنى نفسه ، ولكن في صورة مختلفة[1] :

ذهــبَ الــذينَ يعــاشُ فــي أكنــافهمْ وبَقيــتُ فــي خَلْــفٍ كجِلــدِ الأجــرَبِ

فقد ذهب أحباؤه وأقرباؤه الذين كان يعيش في أكنافهم ، ولم يبق إلا من لا تصح معاشرتهم ولا يستطيع الإنسان الاقتراب منهم ، لقبح نفوسهم وفساد أخلاقهم وسلوكهم فهؤلاء يأكل بعضهم البعض الآخر إفحاشاً ونيلاً من الأعراض ، بل على الإنسان أن يفر منهم فراره من الأجرب حتى لا يعديه جربه .

وفي قوله : " كجلد الأجرب " كنايه عما لا نفع به .

ومن الصور المعبرة عن حزن لبيد وتأسفه لفقد من يرثيه صورة الحرارة التي يحسها في أضلاع صدره ، إذ يقول في رثاء عمه الطفيل بن مالك[2] :

لَمّــا أتَــانِي عَــنْ طُفَيْــلٍ ورَهْطِــهِ هُــدُوءاً فباتَــتْ غُلّــةٌ فــي الحَيَــازِمِ

وقد اعتمد لبيد على الاستعارة في تصوير أحزانه ، ومنها قوله في رثاء أخيه أربـــــد[3] :

وقُــولي: ألا لا يُبْعِــدِ اللّــهُ أرْبَــدَا وهَــدّي بــهِ صَــدْعَ الفُــؤادِ المُفَجّعَــا

فقد استعار الصدع للوجع العميق الذي في فؤاده .

أما البكاء فقد وصف لنا مشاعر لبيد وإحساسه نحو أخيه ، حيث صور لنا لبيد عينيه التي لا تجمد بل تستهلا بالدموع وتعتاد البكاء بحرقه على أخيه أربد في قوله[4] :

فعَيْنَــيّ إذْ أوْدَى الفِــراقُ بأرْبَــدٍ فَــلا تَجْمُــدَا أنْ تَسْــتَهِلاّ فتَــدمَعَا

٤- صـــور أخرى

[1] شرح ديوان لبيد ، ص ١٥٣ . الخلف : النسل .
[2] المصدر نفسه ، ص ٢٩٥ . الغلة : حرارة الحزن . الحيازم : أضلاع الفؤاد .
[3] المصدر نفسه ، ص ١٧٣ . الصدع : الشق .
[4] نفسه ، ص ١٧٣ .

لقد وردت صور أخرى في شعر الرثاء عند لبيد بن ربيعة ، وقد كانت صور لبيد في الغالب الأعم منبثقة من بيئته ، كما مرّ معنا في غير هذا الموضع . ومن أهم ما يتميز به لبيد في صوره الفنية تركيزه على الطبيعة وتفاعله معها ، حتى لكأنها عشيقه ومحبوبه ، ومن " علائم التركيز لدى لبيد أنه يرسم صورة كاملة أنيقه في بيت واحد[1] " كما في قوله[2] :

لهـــا حَجَـــلٌ قـــد قرّعَـــتْ مـــن رُءُوسِـــهِ لهـــا فَوْقَـــهُ ممـــا تَحَلّـــبُ وَاشِـــل

حيث يصف لنا لبيد صغار الإبل عند ضروع أمهاتها ، وقد سال على رؤسها لبن أمهاتها وتحلب عليها فبدت كأنها قرع .

ثم إنه من زيادة عشقه للطبيعة يشبه الناس بها ، حيث شبه من يعقل بما لا يعقل في قوله[3] :

ومَـــا النّـــاسُ إلاّ كالـــدّيار وأهْلُهـــا بهـــا يَـــوْمَ حَلّوهـــا وغَـــدْواً بَلاقِـــعُ

ومَـــا المَـــرْءُ إلاّ كالشِّـــهابِ وضَـــوْئِهِ يحـــورُ رَمَـــاداً بَعْـــدَ إذْ هُـــوَ ســـاطِعُ

فقد شبه الناس في فنائهم بالديار بعد أن كانت عامرة ، وبالشهب تتحول إلى رماد بعد أن تهوي إلى الأرض وقد كانت في السماء ساطعة .

نلاحظ من خلال الصورة السابقة ، أن هذه الصورة صورة فناء وليست صورة بناء ، حيث يظهر أن لبيد متشائم في الغالب فهو " لا يتأمل الحياة ولا يرى رأيه فيها إلا حين يدفعه إلى ذلك ما يصادفه من ألم وحزن ، ومن هنا -تعرض- لجوانب الحياة غير البهيجة دون غيرها ، وانعكس ذلك على صوره وتعبيراته " [4]

فالحياة عند لبيد متاع نافذ ، وهي عارية ترد لأصحابها ، إذ يقول[5] :

---

[1] لبيد بن ربيعة العامري ، ص ٤٢٢ .
[2] شرح ديوان لبيد ، ص ٢٦٠ . الخجل : صغار الإبل على التشبيه باناث القبج .
[3] المصدر نفسه ، ص ١٦٩ . غدواً : يعني غدا . الشهاب : النار . يحور : يصير .
[4] الحياة والموت في الشعر الجاهلي ، د.مصطفى جياووك ، دار صفاء ، عمان ، ط١ ، ٢٠١٢م - ١٤٣٣هـ ، ص ٣٤٣ .
[5] شرح ديوان لبيد ، ص ٥٧ . فرط أشهر : بعد أشهر .

هَــلِ الــنّفْسُ إلاّ مُتعَــةٌ مُســتَعارة تُعَــارُ فتــأتي رَبّهــا فــرْطَ أشــهُرِ

ومثلها المال في قوله [1]:

ومَــا المــالُ والأهْلُــونَ إلاّ وَديعَــة وَلابُــدّ يَوْمــاً أنْ تُــرَدّ الوَدائِــعُ

ويشبه لبيد حياة المرء برحلة ، وبأن الناس بين غاد ورائح ، والنهاية إقامة لا سفر بعدها في قوله [2] :

وَإنّــا وَإخوانــاً لَنــا قــد تَتــابَعوا كَالمُغتَــدي وَالــرائِحِ المُتَهَجِّــرِ

ومن صُوّره المتعلقة بقصر الحياة وتبددها ، وإنها تبدو كالحلم أو الذكرى أو الحركة العابرة من اليد الواحدة ، قوله [3] :

وأمْسَــى كــأحْلامِ النّيــامِ نعــيمُهُمْ وأيٌ نعِــيمٍ خِلْتَــهُ لا يُزايــلُ

ويقول لبيد أيضاً في نفس المعنى ، في صورة أخرى هي صورة الأحلام التي يخالها النائم حقائق ، فإذا ما استيقظ لم يجد لها أدنى حقيقة في قوله [4] :

وإنّــا قــدْ يُــرَى مــا نَحْــنُ فيــه وَنُسْــحَرُ بالشــرابِ وبالطعــامِ
كمــا سُــحِرَتْ بِــه إرَمٌ وعَــادٌ فأضْــحَوْا مثْــلَ أحْــلامِ النّيــامِ

ويصور لبيد الشيخوخة وفعلها بالرجل الهرم ، من أنه لا يقوى أن يسير على قامته ، ولا يستوي على رجليه ، دون استخدام عصا يتوكأ عليها ، وكأن لبيد يصور حالته وما آل إليه في آخر أيامه وهو يضرب متوكأ على محجنه إذ يقول [5] :

ألــيْسَ ورائــي، إنْ تراخَــتْ مَنيّتــي لُــزُومُ العَصَــا تُحْنَــى علَيهــا الأصــابعُ

أخبّــرُ أخبــارَ القــرونِ التــي مضــتْ أدبٌ كــأنّي كُلّمــا قمــتُ راكــعُ

فلبيد يرى أن الفناء طبيعة في الأشياء وليس شيئاً داخلاً عليها .

ويشبه لبيد نفسه بالسيف الهرم الذي رث جفنه وما يزال قاطعاً ، وهو يعبر بذلك عن فضل من قوة يجدها ورغبة يحسها في الحياة في قوله [6] :

فأصْــبَحْتُ مِثْــلَ السّــيْفِ أخْلَــقَ جَفْنَــهُ تَقــادُمُ عَهْــدِ القَــيْنِ، والنّصْــلُ قــاطِعُ

---

[1] المصدر نفسه ، ص ١٧٠ .
[2] المصدر نفسه ، ص ٥٧ .
[3] المصدر نفسه ، ص ٢٦٦ .
[4] المصدر نفسه ، ص ٢٠٩ . نسحر : نعلل .
[5] المصدر نفسه ، ص ١٧٠-١٧١ . تراخت : أبطت . تحنى : تعطف عليها .
[6] المصدر نفسه ، ص ١٧١ .

المبحث الثاني

- بناء القصيدة

- المطلع
- الخاتمة
- الوحدة الموضوعية

١- المطلع

إن الاهتمام بمطلع أي عمل أدبي من الأمور التي حظيت بعناية القدماء[١] ، بل إن إن الاهتمام بمطلع أي عمل سواءً كان أدبياً ، أم غير أدبي من الأمور التي تلفت انتباه الناس ، وتدفعهم إلى إبداء إعجابهم واهتمامهم ، أو إلى إبداء رفضهم ونفورهم من هذا المطلع ، ولا شك في أن هذه طبيعة إنسانية غرسها الله عز وجل في الناس .

فإذا كان هذا هو الأمر في أي عمل ، فإنه يكون في الشعر ألصق وإليه أقرب إذ أن الشاعر يهدف إلى إحداث أكبر قدر من الأثر والإعجاب في نفس المتلقي . ولذلك كان الاهتمام في مطلع القصيدة ، من أهم الوسائل التي يستخدمها الشاعر لإحداث هذا الأثر المنشود . ومن هنا حرص الشعراء حرصاً كبيراً على تجويد مطالع قصائدهم واختيار ألفاضها وتركيز معانيها وتجديد موسيقاها ، واتجهت أنظار النقاد نحوهم فصنفوا المطالع بين جيد ورديء ، بناءً على معايير عديدة وعللوا ذلك بأن هذه المطالع أو ما يقرع السمع ، يقول ابن رشيق القيرواني " إن الشعر قفل أوله مفتاحه وينبغي للشاعر أن يجود ابتداءً شعره ، فإنه أول ما يقرع السمع ، وبه يستدل على ما عنده من أول وهله " [٢] ، ومن هذه المعايير أن يكون المطلع مرتبطاً بالمعنى الذي تتضمنه القصيدة ، مشعراً بالغرض الذي أراد الشاعر أن يخوض فيه ، يقول ابن حجه الحموي : " فإنهم شرطوا في براعة الاستهلال أن يكون مطلع القصيدة دالاً على ما بنيت عليه مشعراً بغرض الناظم من غير تصريح ، بإشارة لطيفة تعذب حلاوتها في الذوق السليم " [٣] ومن المعايير التي اشترطوها أن يكون المطلع " حلواً سهلاً ، وفخماً جزلاً ... وليرغب [الشاعر] عن التقيد في الابتداء ، فإنه أول العي ودليل الفهه " [٤] وقد نال إعجابهم مطلع أوس بن حجر في رثاء فضالة بن كندة [٥] :

أيّتُهَــا الــنّفْسُ أجْمِلِــي جَزَعَــا إنّ الــذي تحــذرينَ قــدْ وقعَــا

---

[١] بناء القصيدة العربية ، يوسف بكار ، دار الإصلاح ، الدمام ، د ط ، د ت ، ص ٢٦٧ .
[٢] العمدة ، ٣٥٠/١ .
[٣] خزانة الأدب وغاية الأرب ، ابن حجة ، تحقيق : تقي الدين ابو بكر الحموي ، شرح : عصام شعيتو ، مكتبة الهلال : بيروت ، ط ٨ ، ١٩٩١م ، ٣٠/١.
[٤] المراثي الشعرية في عصر صدر الإسلام ، ص ١٧٥ .
[٥] ديوان أوس بن حجر ، ص ٥٣ .

وإذا كان من شروط المطلع الحسن ، أن يكون مرتبطاً بالموضوع ، وأن يكون المطلع ملائماً للجو العاطفي الذي يعشه الشاعر ، فلابد أن يكون مطلع المراثي مشتملاً على البكاء ، ولقد بدأ لبيد في رثائه لأخيه أربد بالبكاء عليه ، إذ يقول[1] :

أبْكي أبا الحَزّازِ يَوْمَ مَقامَةٍ لمُنَاخ أضيافٍ ومأوى مُقْتِرِ

واتخذ لبيد من الحديث عن الموت وقوته والدهر وسطوته وتقلباته مطلعاً لبعضٍ من قصائده ، ومنها قوله يرثي أخاه أربد[2] :

ما إنْ تُعَرّي المَنُونُ مِنْ أحَدِ لا والِدٍ مُشفِقٍ وَلا ولَدِ

وقوله يرثي نفسه[3]:

تَمَنّى ابنَتَايَ أنْ يَعيشَ أبُوهُما وهَلْ أنا إلاّ من ربيعةَ أوْ مضرْ

ولا شك في أن الحديث عن الموت وتقلبات الحياة ألصق شيء بالرثاء من أي شيء آخر .

وجاء المطلع عند لبيد مطبوعاً بطابع يتلاءم مع أبعاد الحدث ، حيث جاء ليصور أهم جانب يشغل الراثي في الحدث ، فلبيد لم يستطع أن يستوعب موت أخيه الذي أتى إليه فجاءة فعاش بين التصديق والتكذيب ، إذ يقول[4] :

لعمري لئنْ كانَ المخبرُ صادقاً لقدْ رزئتْ في سالِفِ الدّهرِ جعفرُ

ويصف لبيد في بعض مطالع قصائده حزنه وأرقه ، وما فعله به فراق أصحابه ويتضح ذلك في مطلع قصيدته التي يرثي فيها أعمامه وقومه بني جفعر بن كلاب[5] :

أصْبَحْتُ أمْشي بَعْدَ سَلْمى بن مالكٍ وبَعْدَ أبي قيسٍ وعُرْوَةَ كالأجَبّ

وقوله يرثي عمه الطفيل بن مالك[6] :

لَمّا أتَانِي عَنْ طُفَيْلٍ وَرَهْطِهِ هُدُوءاً فباتَتْ غُلّةٌ في الحَيَازِمِ

---

[1] شرح ديوان لبيد ، ص ١٦٦ . يوم مقامة : حين يجلس الاناس ويجتمعون في مجلسه .
[2] المصدر نفسه ، ص ١٥٨ .
[3] المصدر نفسه ، ص ٢١٣ .
[4] المصدر نفسه ، ص ١٦٧ .
[5] المصدر نفسه ، ص ١ .
[6] المصدر نفسه ، ص ٢٩٥ . الغلة : حرارة الحزن . الحيازم : أحد أضلاع الفؤاد .

وعلى شاكلة غيره من الشعراء ، دعا لبيد في مطلع قصيدته التي رثاء فيها أخاه أربد[1] :

قَضَّ اللُّبانَةَ لا أَبَا لَكَ وادْهَبِ وَالْحَقْ بأُسْرَتِكَ الكِرامِ الغُيَّبِ

واستهل في بعض مطالع قصائده بالحديث عن صفات الفقيد ومناقبه ويتجلى ذلك في مطلع قصيدته التي يرثي فيها أخاه أربد[2] :

ألاَ ذَهَبَ المُحافِظُ والمُحامِي وَمَانعُ ضَيْمِنَا يَوْمَ الخِصَامِ

وقوله يرثيه أيضاً[3] :

يُذَكِّرُني بأرْبَدَ كُلُّ خَصْمٍ أَلَدّ تَخَالُ خُطَّتَهُ ضِرَارَا

وقوله يرثي عوف بن الأحوص[4] :

قُومي إذَا نَامَ الخَلِيُّ فَأَبِّني عَوْفَ الفَواضِلْ

ومن المعاني التي ابتدأها لبيد في مطالع قصائده المعاني الإسلامية إذ يقول في قصيدته التي رثى فيها أخاه[5] :

إنّ تَقْوَى رَبِّنَا خَيرُ نَفَلْ وبإِذْنِ اللّهِ رَيْثِي وعَجَلْ

وتأتي الحكمة في بعض مطالعة ، ويلاحظ جلياً من خلالها مدى الملائمة بين مقدمات قصائد لبيد وبين الموضوعات الأساسية لهذه القصائد هذه الملائمة التي تظهر واضحة في قصيدته التي يرثي فيها النعمان بن المنذر والتي بدأها بالحكمة المرتبطة بالرثاء في قوله[6] :

---

[1] شرح ديوان لبيد ، ص ١٥٣ . اللبانة : بقية الحاجة . أسرته : قومه . الغيب : الذين قد غابوا .
[2] المصدر نفسه ، ص ٢٠١ . الضيم : الظلم . الخصام : الخصومة .
[3] المصدر نفسه ، ص ١٦٦ . ألد : شديد الخصومة . الضرار : المضارة .
[4] المصدر نفسه ، ص ٢٣١ .
[5] المصدر نفسه ، ص ١٧٤ . النفل : الفضل والعطية .
[6] المصدر نفسه ، ص ٢٥٤ .

ألا تَسْـــألانِ المَـــرْءَ مـــاذا يُحَـــاولُ أنَحْـــبٌ فيُقضَـــى أمْ ضَـــلالٌ وباطِـــلُ

حبائِلُـــــهُ مبثُوثَـــــةٌ بســـــبيلهِ ويَقْنَـــى إذا مـــا أخطأتْـــهُ الحَبَائِـــلُ

إذا المـــرءُ أسْـــرَى ليلـــةً ظـــنَّ أنـــهُ قضَـــى عَمَـــلاً والمَـــرْءَ مـــا عـــاشَ عامِـــلُ

وزاد من جمال هذا المطلع ، استخدام أسلوب الاستفهام والتعجب لأثره في نفوس السامعين ؛ لأنه " يقرع السمع شيء غريب ليس بمثله عادة ، ليكون سبباً للتطلع نحوه والإصغاء إليه " [1] .

ومن مطالع الحكمة في قصائده هذا المطلع في رثائه لأخيه أربد[2] :

بلينـــا ومـــا تبلـــى النجـــومُ الطّوالِـــعُ وتَبْقَـــى الجِبـــالُ بَعْـــدَنَا والمَصـــانِعُ

ويأمر لبيد في بعض مطالعه النساء بأن يقمن فيندبن المرثي وينحن عليه معددات فضائله ، وذلك في رثائه لأخيه أربد إذ يقول[3] :

يـــا مَـــيّ قُـــومي فـــي المَـــآتِمِ وَانْـــدُبي فتـــىً كـــانَ ممّـــن يَبتنـــي المَجـــدَ أرْوَعَـــا

ومنه قوله في رثائه لعمه أبي براء مالك بن عامر[4] :

قُومـــا تَجُوبـــانِ مَـــعَ الأنْـــوَاحِ فـــي مـــأتَمٍ مُهَجِّـــرِ الـــرّوَاحِ

ويأمر لبيد بنعي المرثي في مطلع قصيدته التي يبكي فيها أخاه أربد[5] :

انْـــعَ الْكَـــريمَ لِلْكَـــريمِ أرْبَـــدَا انْـــعَ الـــرّئِيسَ وَاللّطِيـــفَ كَبَـــدَا

---

[1] المثل السائد ، لابن الأثير ضياء الدين نصر الله محمد ، تحقيق : محمد محي الدين عبدالحميد ، المكتبة العصرية صيدا ، بيروت ، د ط ، د ت ، ٢٢٤/٢. انظر : منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، ، ص ٣١٠ .

[2] شرح ديوان لبيد ، ص ١٦٨ .

[3] المصدر نفسه ، ص ١٧٣ .

[4] المصدر نفسه ، ص ٣٣٢ .

[5] المصدر نفسه ، ص ١٦٤ .

وفي أحد مطالعه يخبرنا لبيد بلوم ابن أخيه (أبو حنيف) له إذ يقول[1] :

أنْبئْـــــتُ أنّ أبَـــــا حَنِيْـــــ ـــــفٍ لا مَنِـــي فـــي اللاَّئِمينـــا

عتاب المرأة والغزل من المطالع التي استفتح بها لبيد مراثيه على نحو قوله في العتاب[2] :

أعـــاذِلَ قُـــومي فاعـــذْلي الآنَ أو ذري فَلَسْـــتُ وإنْ أقْصَـــرْتِ عَنِّـــي بِمُقْصِـــرِ

أما الغزل في قوله[3] :

طـــربَ الفـــؤادُ وليتـــهُ لـــمْ يطـــربِ وعَنـــاهُ ذِكْـــرَى خُلَّـــةٍ لَـــمْ تَصْـــقَبِ

سَـــفهاً ولَـــوْ أنّـــي أطعْـــتُ عَـــواذِلي فيمـــا يُشِـــرْنَ بـــهِ بسَـــفْحِ المِـــدْنَبِ

لزجـــرْتُ قَلْبـــاً لا يَريـــعُ لزاجِـــرٍ إنَّ الغـــويَّ إذا نهـــي لـــمْ يعتـــبِ

فتعـــزَّ عـــنْ هـــذا وقـــلْ فـــي غيـــرِهِ واذكـــرْ شـــمائلَ مِـــنْ أخيـــكَ المنجـــبِ

تستوقفنا محاولة التوفيق بين المقدمة الغزلية وقصيدة الرثاء ، اعتماداً على الجو العام الذي يسيطر على الشاعر ، ويتجلى في القصيدة ، فقد ذكر الدكتور يحيى الجبوري بعد تقديم أمثلة من مثل هذه القصيدة " أن هذه القصائد جميعاً ، تبدأ بالغزل ، وفيها ألم وشكوى وعتاب وروح حزين ، كل ذلك يمهد للانتقال إلى الرثاء ، أي الجو السائد في القصائد هو جو حزين فيه ألم وشجا .... " [4] ويتخذ الشاعر من المرأة " منطقاً فكرياً يصب من خلاله هموم ذاته ولواعج نفسه " [5]

---

[1] شرح ديوان لبيد ، ص ٣٢٢ .
[2] المصدر نفسه ، ص ٤٦ .
[3] المصدر نفسه ، ص ١٥٦ . تصقب : تجارب وتقترب . لا يريع : لا يتعظ . لم يعتب : لم يرجع إلى ما يرضي عاتبه .
[4] الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه ، ص ٣٣٢ . انظر : مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي ، حسين عطوان ، دار المعارف ، القاهرة ، د ط ، ١٩٧٠م ، ص ٢٣٢ - ٢٣٥ .
[5] دراسة في لغة الشعر رؤية نقدية ، رجاء عيد ، مطبعة أطلس ومنشأة المعارف ، الإسكندرية ، د ط ، ١٩٧٩م ، ص ٧٤ .

فلبيد يشكو من فراق المرثي (أخيه) ، حيث إن ذكرى حبيبه تتكون لديه إلى كابوس رهيب يؤرقه ، ورغم هذا كله فإن هناك ملذات كثيرة في هذه الحياة تحاول إغراءه ولعل المرأة تكون واحدة منها ، غير إن واقعه يتنافى مع الاستسلام لهذه الملذات وهذا ما جعله يتصور وجود مرشد ينها عن تلك الملذات ، ويأمره بذكر شمائل المرثي .

ومن خلال دراستنا مقدمات قصائد الرثاء عند لبيد نجده لم يبدأ بمقدمة خمريـــــة ، لأن مقامها ليس مقام لهو ومتعة ، فكان طبيعياً أن تخلو قصائد الرثاء من هذه المقدمة [١] .

٢- الخاتمة :

مثلما اعتنى النقاد بأول بيت في القصيدة ، اعتنوا كذلك بآخر بيت في القصيدة لأنه " آخر ما يبقى في الأسماع ، وربما حفظ دون غيره لقرب العهد به " [٢] ولأنـــه " قاعدة القصيدة وآخر ما يبقى منها في الأسماع " [٣] ولأنه منقطع الكلام وخاتمتـــه " فإن الإساءة فيه معفية على كثير من الإحسان المتقدم عليه في النفس ، ولا شيء أقبح من كدر بعد صفو ، وترميد بعد إنضاج " [٤] وجعل له ابن رشيق القيرواني شروطاً منها " أن يكون محكماً ، لا تمكن الزيادة عليه ، ولا يأتي بعده أحسن منه " [٥] أما عند حازم القرطاجني فيجب " أن يكون بمعان مؤسية فيما يقصد به التعازي والمراثي " [٦] كما اشترط كذلك أن يكون " ما وقع فيه من الكلام أحسن ما اندرج في حشو القصيدة ،

---

[١] انظر : دراسات في الشعر الجاهلي ، يوسف خليف ، دار غريب ، القاهرة ، د ط ، ١٩٨١م ، ص١٢٠ .
[٢] شرح الكافية البديعية في علوم البلاغة ومحاسن البديع ، لصفي الدين الحلي ، تحقيق : نسيب نشاوي ، مطبوعات مجمع اللغة العربية ، دمشق ، د ط ، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م ، ص ٣٣٣ .
[٣] العمدة ، ٣٧٨/١ .
[٤] منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، ص ٢٨٥ .
[٥] العمدة ٣٧٨/١ .
[٦] منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، ص ٣٠٦ .

وأن يتحرز فيه من قطع الكلام على لفظ كريه ، أو معنى منفرد للنفس كما قصدت إمالتها إليه " [١] .

وقد استطاع لبيد بن ربيعة أن يأتي بمعان تتناسب مع ما يريد الوصول إليه حيث ختم قصائده بأبيات تتناسب مع جو القصيدة العام ، وهو جو الرثاء فأتت الخاتمة عنده إنبثاقاً طبيعياً عما سبقها من معان وأفكار ، وقد ختم لبيد بن ربيعة بعضاً من قصائده بالحكمة ، وهو شعر يتوافق مع الرثاء لأن " شعر الحكمة يصور إلى حد كبير ، هموماً وآلاماً من نوع خاص ، تعكسها الحكمة ، ولو بصورة غير مباشرة " [٢] فلم يسرف لبيد فيه ، بل جاء متناسباً مع مشاعره ، فالشاعر " لا يقول الحكمة إلا إذا كان في موقف تصدق معه الحكمة " [٣] ، وقد أشاد حازم القرطاجني باختتام القصائد بالحكمة حيث قال : " وإذا ذيلت أواخر الفصول بالآيات الحكيمة الاستدلالية ، واتضحت .. المعاني التي بهذه الصفة على أعقابها ، فكان لها ذلك بمنزلة التحجيل ، زادت بذلك بهاء حسناً ، ووقعت من النفوس أحسن موقع " [٤] ومن هذا ما ختم به قصيدته التي يرثي بها أهله وعشيرته إذ يقول :[٥]

هَــلِ الــنّفْسُ إلاّ مُتعَــةٌ مُســتَعارة ... تُعَــارُ فتــأتي رَبّهــا فــرْطَ أشــهُرِ

وقصيدته التي رثى بها أخاه أربد :[٦]

أتجــزَعُ مِمّــا أحــدَثَ الــدّهرُ بــالفتى ... وأيُّ كَــريمٍ لــمْ تُصِــبْهُ القَــوَارِعُ

لَعَمْــرُكَ مــا تَــدري الضَّــوَاربُ بالحصَــى ... وَلا زاجِــراتُ الطّيــرِ مــا اللّــهُ صــانِعُ

سَــلُوهُنَّ إنْ كَــذَّبتموني متــى الفتــى ... يــذوقُ المنايــا أوْ متــى الغيــثُ واقِــعُ

---

[١] منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، ص ٢٨٥ .
[٢] رثاء الأبناء في الشعر العربي إلى نهاية القرن الخامس الهجري ، ص ١٥٠ .
[٣] المصدر نفسه ، ص ١٥١ .
[٤] منهاج البلغاء وسراج الأديان ، ص ٣٠٠ .
[٥] شرح ديوان لبيد ، ص ٥٧ .
[٦] المصدر نفسه ، ص ١٧٢ .

وقال أيضاً الحكمة في ختام قصيدته التي رثى بها أخاه أربد :[1]

وإنَّـا قـدْ يُـرَى مـا نَحْـنُ فيـه وَنُسْـحَرُ بالشـرابِ وبالطعـامِ

كمـا سُـحِرَتْ بِـه إرَمٌ وعَـادٌ فأضْـحَوْا مثْـلَ أحْـلامِ النِّيـامِ

ومن صور الانتهاء عند لبيد ما يتصل بالفقيد ، فقد أنهى رثاءه لأخيه أربد بجوده وإثارة إذ يقول :[2]

ألفَيْـتَ أربَـدَ يُستَضـاءُ بوَجْهِـهِ كالبـدرِ، غيـرَ مقتّـرٍ مُسـتأثرِ

وفي قصيدة أخرى يختتمها بكرم أخيه :[3]

يَـدْعَرُ البَـرْكَ فقَـدْ أقْزَعَـهُ نـاهضٌ يَـنهَضُ نَهـضَ المُختَـزَلْ

مُـدْمِنٌ يَجْلُـو بـأطْرَافِ الـدُّرَى دَنَـسَ الأسْـوُقِ بالعَضْـبِ الأفَـلْ

ويختم لبيد رثاءه لأخيه أربد بوصفه بضوء الكوكب ، إذ يقول :[4]

إنّ الرَزِيّـةَ لا رَزِيّـةَ مِثْلُهـا فِقـدانُ كُـلِّ أخٍ كَضَـوءِ الكَوكَـبِ

وفي قصيدته التي يرثي بها عوف بن الأحوص يختمها لبيد بخطاب المرثي :[5]

يـا عَـوْفُ كنـتَ إمَامَنَـا وبَقِيّـةَ النّقْـرِ الأوائِـلْ

ويختم إحدى قصائده التي يرثي بها أخاه أربد بذكر النساء النائحات ويشبههن بالظباء الأبكار ، حيث قال :[6]

الْبَاعِـثُ النّـوْحَ فِـي مَآتِمِـهِ مِثْـلَ الظّبَـاءِ الْأبْكَـارِ بـالْجَرَدِ

---

[1] شرح ديوان لبيد ، ص ٢٠٩ .
[2] المصدر نفسه ، ص ١٦٦ .
[3] المصدر نفسه ، ص ١٩٨ . المختزل : المقطوع السنام . الغضب : القاطع .
[4] المصدر نفسه ، ص ١٥٥ .
[5] المصدر نفسه ، ص ٢٣١ .
[6] المصدر نفسه ، ص ١٦٢ .

وختم لبيد بعض من قصائده بالوصايا إذ أوصى ابنتيه بأن لا تخرجا عن حدود الأدب الإسلامي في التعبير عن حزنهما ، وأن تذكرا محامده ومحاسنه ، وألا يطول حزنهما عليه ، إذ يقول :[1]

فَقُومـــا فَقُـــولا بالـــذي قـــدْ عَلِمْتُمَـــا وَلا تَخْمِشَـــا وَجْهـــاً وَلا تحْلِقـــا شَـــعَرْ

وقُـــولا هـــوَ المـــرءُ الـــذي لا خليلَـــهُ أضـــاعَ، وَلا خـــانَ الصَّـــديقَ وَلا غَـــدَرْ

إلـــى الحَـــوْلِ ثـــمَّ اســـمُ السّـــلامِ علَيكُمـــا وَمَـــنْ يَبْـــكِ حَـــوْلاً كـــاملاً فقـــدِ اعتـــذرْ

ومن الوصايا التي ختم بها لبيد قصائده وصيته لابنته أسماء بألا تشوه جمالها بخدش :[2]

وحـــذرتُ بعـــدَ المـــوتِ، يـــوْ مَ تَشـــينُ أسْـــمَاءُ الجَبينَـــا

ويصف الحزن وتأثيره فيه بعدما فقد أهله وعشيرته في ختام رثائه لهم :[3]

فبـرَى عظـاميَ بعـدَ لحمـيَ فقـدُهم والـدّهرُ إنْ عاتَبْـتُ لَـيسَ بمُعْتِـبِ

وفي ختام قصيدته التي يرثي بها أهله وعشيرته ، يتأسى بأن الموت لا أحد ينجو منه :[4]

فَهَـوّنَ مـا ألقـى وَإن كُنـتُ مُثبتـاً يقينـي بـأن لا حَـيّ يَنجـو مِـنَ العَطَـب

يشتم لبيد الدهر ويصفه بالعداء لبني الإنسان في إحدى قصائده التي يرثي بها أخاه أربد ، إذ يقول :[5]

لحَـا اللّـهُ هَـذا الـدّهرَ إنّـي رَأيْتُـهُ بصِـيراً بمـا سَـاءَ ابـنَ آدَمَ مُولعـاً

---

[1] شرح ديوان لبيد ، ص ٢١٣-٢١٤ .
[2] المصدر نفسه ، ص ٣٢٦ .
[3] المصدر نفسه ، ص ١٥٧ .
[4] المصدر نفسه ، ص ٢ .
[5] المصدر نفسه ، ص ١٧٣ .

هذه هي أكثر الأساليب شيوعاً في ختام قصائد الرثاء عند لبيد بن ربيعة ويظهر فيها بأنه انتقائي في ختام مراثيه لا يلتزم طريقة واحدة معينة .

٣- الوحدة الموضوعية :

اعتنى النقاد العرب بوحدة القصيدة ، ففي كتبهم دراسات نقدية كثيرة تؤكد حرصهم عليها وعنايتهم بها ، حيث اعتناء بها القدماء والمحدثون على السواء ، كل له وجهته التي ينظر من خلالها إلى وحدة القصيدة ، فابن طباطبا يرى لبنية القصيدة العربية أنها كل متلاحم الأجزاء متفاعل العناصر ، حيث قال : " أحسن الشعر ، ما ينتظم القول فيه انتظاماً يتساوى به أوله مع آخره على ما ينسقه قائله ، فإذا قدم بيت على بيت دخله الخلل كما يدخل الرسائل والخطب إذا نقض تأليفها ، فإن الشعر إذا أسس على تأسيس فصول الرسائل القائمة نفسها وكلمات الحكمة المستقلة بذاتها والأمثال السائدة الموسومة باختصارها لم يحسن نظمه ، بل يجب أن تكون القصيدة كلها ككلمة واحدة في اشتباه أولها بآخرها ، نسجاً وحسناً وفصاحة وجزالة ألفاظ ودقة معان وصواب تأليف ... " [١] ويرى الحاتمي أن " القصيدة مثلها مثل خلق الإنسان في اتصال بعض أعضائه ببعض فمتى انفصل واحد عن الآخر وباينه في صحة التركيب غادر بالجسم عاهة تتخون محاسنه " [٢]

وكان حازم القرطاجني ممن تنبه إلى وحدة القصيدة ، التي تقوم على وحدة الموضوع والغرض ، حيث قسم القصائد إلى بسيطة ومركبة بحسب عدد الأغراض التي تحتويها كل قصيدة " فالبسيطة مثل القصائد التي تكون مدحاً صرفاً أو رثاء صرفاً والمركبة هي التي يشتمل الكلام فيها على غرضين ، مثل أن تكون مشتملة على نسيب ومدح " [٣]

---

[١] عيار الشعر ، ص ٢١٣ .
[٢] العمدة ، ١١٧/٢ .
[٣] منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، ص ٣٠٣ .

كما تطرق إلى أحوال المعاني ، وموقف النفوس منها قبولاً أو رفضاً وكيف أن مهمة الشعر تخيلية [١] .

أما الدكتور محمد مريسي يرى أن التتابع المنطقي ليس كل شيء في وحدة القصيدة بل يربطه إلى التخييل إذ يقول : " إن التتابع المنطقي ليس كل شيء في قيام الوحدة المعنوية ، نظراً لدور التخييل في تحريك النفس والذهن معاً في إنتاج النص الشعري وحضور التقبل الانفعالي لذلك ، مما جعل التتابع الشعوري أمراً وارداً في مقومات الوحدة " [٢] .

ويرى بعض النقاد العرب المحدثين أن القصيدة العربية القديمة مفككة البناء لا ترابط بين أجزائها ، فالدكتور محمد مندور يرى أن وحدة القصيدة تتمثل في اتحاد الوزن والقافية ، وأما الغرض والموضوع فلا يراه موحداً في القصيدة إذ يقول : " والناظر في الشعر العربي القديم لا يلبث أن يلاحظ أن وحدة القصيدة لم تكن تتمثل إلا في اتحاد الوزن والقافية ، وأما الغرض أو الموضوع فقلما نراه موحداً في القصيدة العربية القديمة ، وهكذا تكون القصيدة العربية ذات الأغراض المتباينة المتتابعة وأصبحت هذه الظاهرة تقليداً شعرياً عند العرب " [٣] .

ومن النقاد الذين أنكروا الوحدة في الشعر العربي القديم الدكتور محمد غنيمي هلال الذي يرى أن القصيدة الجاهلية ليست لها وحدة عضوية في شكل من الأشكال ؛ لأنه لا صلة فكرية بين أجزئها ، فالوحدة فيها خارجية لا رباط فيها إلا من ناحية خيال الجاهلي وحالته النفسية في وصفه لرحلته لمدح الممدوح [٤] .

---

[١] منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، ص ٨٩ وما بعدها .
[٢] عمود الشعر العربي " النشأة والمفهوم " ، د. محمد مريسي الحارثي ، نادي مكة الثقافي الأدبي ، ط ١ ، ١٩٩٦م ، ص ٥١٨-٥١٩ .
[٣] الشعر المصري بعد شوقي ، د. محمد مندور ، مطبعة النهضة ، القاهرة ، ط ١ ، د ت ، ص ١٩-٢٠ .
[٤] النقد الأدبي الحديث ، د. محمد غنيمي هلال ، دار النهضة ، القاهرة ، د ط ، د ت ، ص ٣٧٤-٣٧٥ .

ومنهم الدكتور محمد مصطفى بدوي ، إذ يقول : " إن الشعر العربي القديم شعر تقريري تستخدم فيه الألفاظ بكل ما فيها من قوى تقريرية تكاد لا تستغل فيه إمكانياتها الإيحائية ، ومن هنا كان اهتمامهم بوحدة البيت منفصلاً عن السياق الأوسع الذي يرد فيه ، فجاءت تجاربهم كلها من النوع البسيط الحي المباشر ، ولذا في الجزئيات الشعورية دون أن يحققوا الوحدة الكلية " [١]

وبعد أن عرض الباحث أراء النقاد المحدثين الذين ينفون وجود الوحدة في القصيدة العربية القديمة ، فإن الباحث يرى أن هناك أراء لنقاد محدثين أكثر عدالة وإنصافا ، ومن هذه الآراء رأي الدكتور طه حسين الذي يرى في بعض القصائد ذات الأغراض المتعددة وحدة تربط بين هذه الموضوعات وذلك مثل قصيدة (المعلقة) للبيد بين ربيعة التي قال فيها : " إن أجزاء القصيدة جاءت ملتئمة الأجزاء قد نسقت أحسن تنسيق وأجمله وأنشده ملاءمة للموسيقى ... إنها بناء متقن محكم لا تستطيع أن تقدم فيه وتؤخر أو تصنع بيت دون أن تفسد القصيدة وتشوه جمالها ودون أن تفسد البناء كله وتنقضه نقضاً " [٢] .

ومن النقاد المحدثين الذين يرون وجود الوحدة في الشعر العربي القديم الدكتور محمد النويهي وأطلق عليها مسمى " الوحدة الحيوية " [٣] وممن رأى نفس الرأي فؤاد إفرام البستاني وسماها الوحدة الشعورية [٤] ، ومنهم الدكتور مصطفى الشورى حيث يسمي هذه الوحدة بالوحدة الفنية [٥] .

والباحث يوافق رأيه مع أراء هؤلاء النقاد في وجود الوحدة في القصيدة العربية القديمة .

---

[١] دراسات في الشعر والمسرح ، د. محمد مصطفى بدوي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الإسكندرية ، د ط ، ١٩٧٩م ، ص ١٢ .
[٢] حديث الأربعاء ، ٣٢/١ .
[٣] انظر : الشعر الجاهلي منهج في دراسته وتقويمه ، د. محمد النويهي ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، د ط ، د ت ، ٤٣٦/٢ .
[٤] الشعر الجاهلي ، نشأته - فنونه – صفاته ، فؤاد افرام البستاني ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٣٨م ، ص ٣١ .
[٥] شعر الرثاء في العصر الجاهلي دراسة فنية ، ص ٢١٥ .

وبعد أن سقنا طائفة من الآراء النقدية المختلفة حول وجود الوحدة الموضوعية في القصيدة العربية القديمة بوجه عام ، نريد أن نتوقف عند شعر الرثاء عند لبيد بن ربيعة لنرى بأنفسنا مدى تلاحم بناء القصيدة أو تفككها ، فالوحدة الموضوعية أكثر ضرورة في قصيدة الرثاء ؛ لأنها صورة صادقة لتجربة الحزن الموحدة التي تنبع من ذات الشاعر " لأن الشعر الذاتي حصيلة تفكير الشاعر في فنه ، ولا شيء غيره من حيث استيعابه همومه وأحزانه " [١] ، فقصيدة الرثاء تتوفر فيها وحدة المشاعر ؛ لأن الشاعر خاضع فيها لتجربة الحزن الموحد كما ذكرنا ، وقد تجلت هذه الوحدة في مراثي لبيد بن ربيعة فكل ما يطراء في ذهن الشاعر ونفسيته من ذكريات مضت أو أي موقف آخر يثير الشاعر كالفخر واستذكار مآثر قومه ، فإن هذا لا يسبب أشتاتاً من الشاعر كما هو الحال في القصائد ذات الموضوعات المتعددة ، وإنما هي معان جزئية متنوعة ترتبط فيما بينها وتتشكل في المرثية ، على أساس من وحدة الشعور التي ما هي إلا " هيمنة إحساس واحد ، أو لحظة شعورية واحدة ، أو رؤية نفسية ذات لون محدد في العمل الفني كله ، وإن الصور الشعورية بكل أشكالها المجازية ، وبمعناها الجزئي والكلي هي وسيلة الفنان الوحيدة لتجسيد هذا الإحساس " [٢] .

وهذا ما نجده في مراثي لبيد بن ربيعة من وحدة قائمة على الملائمة بين أجزاء القصيدة في كثير من قصائده ، ويمكن الاستدلال على ذلك بقصيدته التي يرثي بها أهله وعشيرته ، حيث تتألف هذه القصيدة من ثمانية وثلاثين بيتاً تعالج فكرة انتهاء الحياة وعدم قدرة الإنسان على الخلود ، وتقوم على تجسيد رؤية لبيد للوجود وبسط فلسفته الخاصة به والتي يسعى من خلالها إلى تحقيق حلمه بالخلود والبقاء ، وترتبط فكرة انتهاء الحياة بالعاذلة ارتباطاً جذرياً ، حيث تواكب العاذلة فكرة القصيدة الرئيسية من بدايتها حتى نهايتها ، وتربط بين أجزائها ترابطاً وثيقاً ، كما يقول :[٣]

---

[١] رثاء الأبناء في الشعر العربي إلى نهاية القرن الخامس الهجري ، ص٨٦ .
[٢] شعر الرثاء في العصر الجاهلي دراسة فنية ، ص ٢١٤-٢١٥ .
[٣] شرح ديوان لبيد ، ص ٤٦ .

أعـــاذِلَ قـــومي فاعـــذْلي الآنَ أو ذري فَلَسْـــتُ وإنْ أقْصَـــرْتِ عَنِّـــي بِمُقْصِـــرِ

أعـــاذِلَ لا واللهِ مـــا مِـــنْ سَـــلامةٍ ولَـــو أشْـــفَقَتْ نَفْـــسُ الشّـــحيح المُثَمِّـــرِ

افتتح لبيد قصيدته بالعاذلة مكررة في البيتين الأوليين مسبوقة بأداة النداء الهمزة التي تستخدم للمنادى القريب كما يقول النحويون ، والمنادى القريب الذي أختاره لبيد هنا ليحاوره ويتبادل معه أطراف الحديث هو المرأة العاذلة ، فالمرأة العاذلة تكون قريبه من الشاعر قرباً نفسياً وآخر جسدياً بحكم صلتها به ، فهي أن تكون الزوجة التي تلوم زوجها على إفراطه في الإنفاق والبذل ، أو ذات الشاعر التي تلومه على هذا الإسراف في البذل والعطاء ، إلا أن لبيد يلتفت إليها مدافعاً عن ذاته التي تسير وفق الأسلوب الذي ارتضاه لها دون أي اهتمام من لومها ؛ لأنه ثابت على موقفه في الكرم ولن يقصر عنه ، وإن كفت عن لومها .

حيث يعلم لبيد أنه لن تكتب له السلامة من الموت وبلاءه حتى وإن أجاب عاذلته وكف عن البذل والعطاء واحتفظ بماله لنفسه ، فالمرء عند لبيد لن يعطي الخلود ولن ينجو من الهلاك إذا ما حافظ على أمواله وهذه الفكرة هي التي تشغل هاجسه وتشكل محور القصيدة ويبني على أساسها تصرفاته وسلوكه ، وهي فكرة الموت وعجز الإنسان عن الخلود .

ثم يعود لبيد إلى مخاطبة العاذلة ، مؤكداً أن فكرة الموت وانتهاء الحياة تجعله يسعى جاهداً لتحقيق الخلود ، الذي طالما عشقه وتغنى به ، والذي لن يكون خلوداً مادياً ، وإنما خلود معنوي يتمثل في حمد الناس له وثنائهم عليه ، وفي حسن الأحدوثة بعد مماته في الحضر والبدو ، ولذا فهو يفاخر ببذل المال وإنفاقه ، إذ يقول[1] :

أقِـــي العِـــرضَ بالمَـــالِ الـــتِلادِ وَأشـــتَري بـــهِ الحَمـــدَ إنَّ الطالِـــبَ الحَمـــدَ مُشـــتَري

وكَـــم مُشـــتَرٍ مِـــن مَالِـــهِ حُســـنَ صـــيتِهِ لأيّامِـــهِ فِـــي كُـــلِّ مَبـــدىً وَمَحضَـــرِ

أبـــاهي بِـــهِ الأكفـــاءَ فِـــي كُـــلِّ مَـــوطِنٍ وَأقضـــي فُـــروضَ الصَّـــالِحينَ وَأقتَـــري

[1] شرح ديوان لبيد ، ص ٤٦ .

وينحى لبيد بحوار عاذلته منحى آخر يقوم على سوق الأمثلة من الرجال العظماء الذين كانوا سادة في أقوامهم ، وأبطالاً في ميادين القتال ، ولم تنجيهم قوتهم من الموت ، وما كان ذلك منه إلا دليلاً على حسن تصرفه في تأكيد ما يذهب إليه فهو لم يكتف بتقريع عاذلته ، وإنما حاول أن يبين لها أنه يملك النظرة الحكيمة فهو إنسان سيموت كغيره من الرجال العظماء ، الذين كانوا كرماء وسادة في قبيلتهم وشجعان وحكماء في عصورهم حيث بسط لبيد فكرته تلك بذكر نماذج مختلفة لشخصيات كانت ذات نفوذ وسطوه في قومه ، مثل كلاب بن جعفر بن عامر بن صعصعة وجعفر بن كلاب وأبو جزء خالد بن جعفر بن كلاب وأبوه الذي كان يطلق عليه ربيع المقترين لجوده وسخائه وقيس بن جزء بن خالد بن جعفر وعمه عامر بن مالك ملاعب الأسنة الذي كان سيداً وحكيماً وسلمى بن مالك بن جعفر وعمر بن خالد بن جعفر في قوله[1] :

فإمّـــا تريـنـــي اليـــومَ عنـــدكِ ســـالِماً ... فلســـتُ بأحْيـــا مِـــنْ كـــلابٍ وجعفـــرِ
وَلا مـــنْ أبـــي جـــزءٍ وجـــاريْ حمومـــة ... قتيلِهِمَـــــا والشّـــــاربِ المُتَقَطّـــــرِ
وَلا مِـــنْ رَبيـــع المقتـــرينَ رزئْتُـــهُ ... بـــذي علـــقٍ فـــاقنيْ حيـــاءَكِ واصْـــبري
وقـــيسِ بـــنِ جـــزءٍ يـــومَ نـــادى صـــحابهُ ... فعـــاجُوا عليـــهِ مـــن ســـواهمَ ضـــمَّرِ
وبـــالفُورَة الحَـــرَّابُ ذو الفَضْـــلِ عـــامِرٌ ... فَـــنِعْمَ ضِـــياءُ الطّـــارقِ المُتَنَـــوِّرِ
وَسَـــلْمَى ، وسَـــلمَى أهـــلُ جـــودٍ ونائـــلٍ ... متـــى يـــدعُ مـــولاهُ إلـــى النصـــرِ ينصـــرِ
وصـــاحبُ ملحـــوبٍ فجعنَـــا بيومـــهِ ... وعنـــدَ الـــرّداعِ بيـــتُ آخـــرَ كـــوثرِ

ثم يطلب من العاذلة أن تبكيهم وتندبهم في قوله [2] :

أولئِـــكَ فـــابكي لا أبَـــا لَـــكِ وانْـــدُبي ... أبَـــا حـــازمٍ فـــي كُـــلِّ يَـــوْمٍ مُـــذكَّرِ

---

[1] شرح ديوان لبيد ، ص ٤٧ .
[2] المصدر نفسه ، ص ٥٣ .

فالأجدر بعاذلته أن تبكي أولئك الرجال ، ولا تلومه على إنفاق المال ، لأن إنفاق المال يجلب حسن الذكر والحمد والثناء في قوله[1] :

فشَـــيَّعَهُمْ حَمْـــدٌ وزانَـــتْ قُبـــورَهُمْ ســـــرارةُ ريحـــانٍ بقـــاعٍ منـــوّرِ

ثم ينتقل لبيد بعد ذلك إلى ضرب الأمثلة لعاذلته من سادة الدول والممالك والقبائل الذين أصابهم الدهر بسهامه ، فلم ينجو منه أحد ، فيشير إلى المنذر بن ماء السماء ، والحارث بن عمرو ابن حجر الكندي ، وحجر والد إمرئ القيس ، وملك معد حذيفة بن بدر ، وقيس بن ساعدة ، ولقمان الحكيم صاحب النسور ، إذ يقول[2] :

وشـــمطٍ بنـــي مـــاءِ الســـماءِ ومـــردَهُمْ فهَـــل بَعْـــدَهُمْ مِـــنْ خالـــدٍ أوْ مُعَمَّـــرِ

وبالحـــارثِ الحـــرابِ فجعـــنَ قومَـــهُ ولَـــوْ هـــاجَهُمْ جـــاءُوا بنَصْـــرٍ مُـــؤزَّرِ

وأهلَكْـــنَ يومـــاً ربَّ كنـــدَةَ وابنـــهُ وربَّ مَعَـــدٍّ بـــينَ خَبْـــتٍ وعَرْعَـــرِ

وأعوَصْـــنَ بالـــدَّوميّ مـــن رَأسِ حِصْـــنِهِ وأنـــزلْنَ بالأســـبابِ ربَّ المشـــقرِ

وأخلَفْـــنَ قُسّـــاً ليتنـــي ولـــوَ أنّنـــي وأعْيـــا علـــى لُقْمَـــانَ حُكْـــمُ التّـــدَبُّرِ

ثم يختم لبيد قصيدته بحديث إلى العاذلة التي بدأت القصيدة بحوارها ، يمثل خلاصة فلسفته ورؤيته للحياة والناس فيها ، إذ يقول[3] :

فـــإنْ تســـألِينا فـــيمَ نحـــنُ فإنّنَـــا عَصـــافيرُ مِـــنْ هـــذا الأنـــامِ المُسَـــحَّرِ

نَحُـــلُّ بـــلاداً كُلُّهَـــا حُـــلَّ قبْلَنَـــا ونَرْجُـــو الفَـــلاحَ بَعْـــدَ عَـــادٍ وحِمْيَـــرِ

وإنّـــا وإخوانـــاً لَنـــا قـــدْ تتـــابعُوا لكالمغتـــدي والـــرّائح المتهجّـــرِ

هَـــلِ الـــنّفْسُ إلاَّ مُتعَـــةٌ مُســـتَعارةٌ تُعَـــارُ فتـــأتي ربَّهـــا فـــرْطَ أشـــهُرِ

---

[1] شرح ديوان لبيد ، ص ٥٣ .
[2] المصدر نفسه ، ص ٥٤-٥٦ .
[3] المصدر نفسه ، ص ٥٦-٥٧ .

فالناس ضعفاء كالعصافير يعيشون ويأكلون ويشربون ويتوارثون الأرض جيلاً بعد جيل ، وأقواماً بعد أقوام ولكنهم لا يستطيعون أن يصلوا إلى غايتهم الكبرى في البقاء والخلود ، فالحياة مستمرة غير مهتمة بمن يحيا ويموت ، فهم فيها ليسوا إلا فريقين منهم القادم ومنهم الرائح ، وما النفس البشرية الواهنة الضعيفة إلا عارية يستمتع بها الإنسان لفترة زمنية محددة ثم تعود بعد ذلك إلى خالقها بعد حين .

ولا شك في أن البيت الأخير يرتبط ارتباطا واضحاً ببداية القصيدة أو على الأقل إنه يلقي الضوء على القصيدة كاملة .

وكأن لبيد يريد أن يقول لعاذلته : إذا كانت هذه الحقيقة ، فلماذا لا نستغل هذه الحياة القصيرة بالبذل والعطاء الذي يترك الذكر الطيب ويكسب الحمد وطيب الثناء في الحياة وبعد الموت ولا جدوى للحرص على المال والخوف من الفقر والهلاك .

وهكذا وضح لنا تسلسل أفكار القصيدة من مطلعها إلى ختامها فكل فكرة توصل إلى ما بعدها ، وما بعدها مرتب على ما قبلها وبذلك تكون القصيدة قد عبرت عن مضمونها تعبيراً وافياً سادها الانسجام والالتئام .

المبحث الثالث

اللغة الشعرية

اللغة :

اللغة من عناصر الشعر المهمة ، ولابد للشاعر أن يتبع فيها أسلوباً خاصاً لكي يضع الألفاظ في المكان الذي يتطلبه المعنى ، وليؤديه في أحسن صورة وقد نص عبدالقاهر الجرجاني على هذا الجانب في قوله : " اعلم أن لكل نوع من المعنى نوعاً من اللفظ هو به أخص وأولى ، وضروباً من العبارة هو بتأديته أقوم ، وهـــــو فيه أجلى " [١]. وينبغي أن يكون هناك تلاؤم بين الألفاظ والمعاني ، فاللفظ " جسم روحه المعنى وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم يضعف بضعفه ويقوى بقوته " [٢] . وقد ذكر ابن رشيق إلى وجود لغة شعرية حيث قال : " وللشعر ألفاظ معروفه وأمثلة مألوفة لا ينبغي للشاعر أن يعدوها ، ولا أن يستعمل غيرها " [٣] . وقد أشار القرطاجني إلى الرثاء وما يلائمه من ألفاظ فبين أنه " يجب أن يكون بألفاظ مألوفه سهله تعبر عن عواطف الحزن وآلامه " [٤] . وقال أيضاً : " وأما الرثاء فيجب أن يكون شاجي الأقاويل مبكي المعاني مثيراً للتباريح " [٥] .

وإذا نظرنا إلى لغة شعر الرثاء عند لبيد بن ربيعة ، فإننا نجد أنها جاءت متفقة مع ما ذهب إليه النقاد ، فقد اتسمت بالرقة واللين والسهولة ، والفصاحة والبعد عن الابتذال وقد جاءت ألفاظ الرثاء معبرة عن الحزن والألم والفقد فمن تلك الألفاظ : البكاء ، الحزن ، الدهر ، الليالي ، الدموع ، المنون ، الرزء ، الزمان ، البرية ، المأتم النعي .

ومن ذلك قوله[٦] :

أبْكـــي أبـــا الحَـــزّازِ يَـــوْمَ مَقَامَـــةٍ لمُنَـــاخ أضـــيافٍ ومـــأوى مُقْتِـــرِ

---

[١] الرسالة الشافعية (ضمن كتاب دلائل الإعجاز) لعبد القاهر الجرجاني ، تحقيق : محمود محمد شاكر ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، د ط ، ١٩٨٤، ص٥٧٥ .

[٢] العمدة ، ٢٠٠/١ . انظر : عيار الشعر ، ص ١٣٦ وما بعدها .

[٣] المصدر نفسه ، ٢٠٦/١ .

[٤] منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، ص٣٥١ .

[٥] نفسه ، ص ٣٥١ .

[٦] شرح ديوان لبيد ، ص ١٦٦ .

وقوله[1] :

اِنْـــعَ الكَـــريمَ للكَـــريمِ أرْبَـــدَا اِنْـــعَ الـــرّئيسَ واللّطيـــفَ كَبـــدَا

وقوله[2] :

وأرى أربـــــد قـــــد فـــــارقني ومـــــن الأرزاء رزء ذو جلـــــل

وقوله[3]

وحـــذرتُ بعـــدَ المـــوتِ، يـــوْ مَ تَشـــينُ أسْـــمَاءُ الجَبينَـــا

كما وردت ألفاظ اختصت بالمرثي ، كالكرم والرفعة ، النجدة ، العلو ، البطل المحامي ، اللطيف ، الحليم ، الرئيس ، العفو ، الخير ، العفة ، فصاحة اللسان .

وقد ظهرت آثار الدين الحنيف في ألفاظ وأفكار وتعبيرات لبيد ، إذ عبر عن كل ما يتصل بالتقوى والسعي والجزاء والهداية والخير . ومن ذلك قوله[4] :

أرى النـــاسَ لا يَـــدرُونَ مـــا قـــدرُ أمـــرهمْ بلـــى : كـــلُّ ذي لُـــبٍّ إلـــى اللّـــهِ وَاسِـــلُ

فهو يؤمن بأن كل شيء في هذه الدنيا سوف يرجع إلى الله ، وهو مستمد من قوله تعالى : (وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ)[5].

وقوله[6] :

وكـــلُّ امـــرىءٍ يَوْمـــاً ســـيعلمُ ســـعيهُ إذا كُشِّـــفَتْ عنـــدَ الإلَـــهِ المَحاصِـــلُ

وهو مقتبس من قول الله تعالى : (أَفَلا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ * وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ)[7]

---

[1] شرح ديوان لبيد ، ص ١٦٤. النعي : الإعلام بخبر الميت .
[2] المصدر نفسه ، ص١٩٧ .
[3] المصدر نفسه ، ص ٣٢٦. أسما : ابنته .
[4] المصدر نفسه ، ص ٢٥٦ .
[5] سورة البقرة ، الآية ٢١٠ .
[6] شرح ديوان لبيد ، ص ٢٥٧ . المحاصل : الحسنات والسيئات التي بقيت عند الله .
[7] سورة العاديات ، الآية ١٠ .

وفي قوله [1]:

ألا كُـلُّ شـيءٍ مـا خَـلا اللّـهُ باطِـلُ وكـــلُّ نعـــيمٍ لا مَحالـــةَ زائِـــلُ

وكـلُّ أُنَـاسٍ سـوْفَ تَـدخُلُ بَيـنَهُمْ دُوَيْهـــةٌ تصـــفَرُّ مِنهـــا الأنَامِـــلُ

فلبيد في البيت الأول ينظر إلى قول الله تعالى : (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ)[2] ، وفي البيت الثاني مستمد من مثل قول الله تعالى : (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ)[3] .

كما تأثر في قوله[4] :

لـــهُ الملـــكُ فـــي ضـــاحي معـــدٍّ وأســـلَمَتْ إلَيـــــهِ العِبـــــادُ كُلُّهـــــا مـــــا يُحـــــاوِلُ

بقول الله عز وجل : (الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ)[5] .

وقوله[6] :

سَـــلُوهُنَّ إنْ كَـــذَّبتموني متـــى الفتـــى يـــذوقُ المنايـــا أوْ متـــى الغيـــثُ واقِـــعُ

كأنه يستذكر قول الله عز وجل : (إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)[7] ، كما أن لفظه (الغيث) في البيت السابق مأخوذة من الآية .

---

[1] شرح ديوان لبيد ، ص٢٥٦ . دويهية : الموت .
[2] سورة الرحمن ، الآية ٢٦-٢٧.
[3] سورة الأنبياء ، ص٣٥.
[4] شرح ديوان لبيد ، ص ٢٥٧ . ضاحي معد : ظاهر معد . رب معد : هو حذيفة بن بدر . العباد : القبائل المشهورة بهذا الاسم لا جميع العباد .
[5] سورة الحج ، الآية ٥٦ .
[6] شرح ديوان لبيد ، ص ١٧٢.
[7] سورة لقمان ، آية ٣٤ .

ويقول لبيد في مستهل قصيدته التي يرثي بها أخيه أربد ، وقد ظهرت فيها الروح الدينية إذ تبدأ بامتداح تقوى الله ، حيث قال[1] :

إنّ تَقْـــوَى رَبّنَـــا خَيـــرُ نَفَـــلْ وبـــإذْنِ اللّـــهِ رَيْثـــي وعَجَـــلْ

فلفظه (تقوى) في الشطر الأول مأخوذة من قوله عز وجل : (وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى)[2] .

ويستمر في تحميد الله ، ويرد الحركة والسكون والريث والعجلة وكل الأفعال إلى مشيئة الله عز وجل ، في قوله [3]:

أحْمَـــدُ اللّـــهَ فَـــلا نِـــدّ لَـــهُ بيَدَيْـــهِ الخَيـــرُ مـــا شـــاء فَعَـــلْ

فكلمة التوحيد في قوله : (فلا ند له) مأخوذة من قول الله تعالى : (فَلاَ تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ)[4] .

وكذلك يرد الهداية والضلال إلى مشيئة الله عز وجل ، إذ يقول[5] :

مَـــنْ هَـــداهُ سُـــبُلَ الخَيـــرِ اهْتَـــدَى نـــاعِمَ البَـــالِ ومَـــنْ شـــاءَ أضَـــلّ

فمعظم ألفاظ البيت السابق مأخوذة من قول الله تعالى : (فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)[6] .

---

[1] شرح ديوان لبيد ، ص ١٧٤ . النفل : الفضل والعطية . الريث : البطء .
[2] سورة البقرة ، آية ١٩٧ .
[3] شرح ديوان لبيد ، ص ١٧٤ .
[4] سورة البقرة ، آية ٢٢ .
[5] شرح ديوان لبيد ، ص١٧٤ .
[6] سورة فاطر ، آية ٨ .

ونلاحظ تأثر لبيد بالإسلام وتعاليمه ، في قوله[1] :

فَـــوَاعِلُ يَـــوْمَ ذلـــك مَـــنْ أتَـــاهُ كمـــا وَألَ المُحِـــلُّ إلـــى الحَـــرَامِ

ففي البيت إشارة إلى شيء من مناسك الحج .

وفي قوله[2] :

فَـــودِّعْ بالسَّـــلام أبَـــا حُزيـــز وقُـــلَّ وداعُ أرْبَـــدَ بالســـلامِ

إذا يستخدم تحية الإسلام التي هي السلام .

كما يبدو تأثره بالقصص القرآني واضحاً ، إذ أشار إلى أرم وعاد في قوله[3] :

وإنَّـــا قـــدْ يُـــرَى مـــا نَحْـــنُ فيـــه وَنُسْـــحَرُ بالشَـــرابِ وبالطعـــامِ

كمـــا سُـــحِرَتْ بِـــه إرَمٌ وعَـــادٌ فأضْـــحَوْا مثْـــلَ أحْـــلامِ النِّيـــامِ

وهذا البيت مستمد من قوله تعالى : (**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَـــــــادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَـــــــــــــادِ**)[4].

لقد استفاد لبيد من هذا القصص القرآني ما يوحي بغفلة الإنسان وتكبره وتجبـره ، رغم ما يرى من عظمة الموت وسطوته ، وذلك بذكره لقوم عاد وقد عرفوا بالقوة والبطش والغرور ، حتى أن شداد بن عاد[5] عندما سمع بوصف الجنة أراد بناء مدينة تفوقها جمالاً ، فجمع ما في الأرض من ذهب وفضه ، وابتنى مدينـة (أرم) باليمن ، لكنه لم يتمتع بها لكفره بنبوة هود عليه السلام ، إذ أهلكه الله وسحقه . فقد استطاع لبيد استخدام هذا القصص القرآني حيث كشف لنا عن غفلة الإنسان وسعيه وراء متع الدنيا رغم معرفته المسبقة بحتمية الموت وغلبته[6] .

---

[1] شرح ديوان لبيد ، ص ٢٠٦ . وأل : نجا . المحل : الرجل . الحرام : الحرم .
[2] المصدر نفسه ، ص ٢٠٧.
[3] المصدر نفسه ، ص٢٠٩ . نسحر : نعلل.
[4] سورة الفجر ، آية ٦ ، ٧.
[5] شداد بن عاد بن ملطاط بن جشم بن عبد شمس بن وائل بن حمير ، من قحطان ، ملك يماني جاهلي قديم . اتفقت عليه كلمة أولي الرأي من حمير وقحطان تولى الملك في صنعاء وكان حازماً مغواراً غزا البلاد إلى أن بلغ أرمينية وعاد إلى الشام فزحف إلى المغرب ، يبني المدن ويتخذ المصانع ولما رجع إلى اليمن مضى إلى مأرب فبنى فيه قصراً بجانب السد ، ولم يكن في الدنيا مثله ، (الأعلام ١٥٨/٣) .
[6] انظر : قصة شداد بن عاد ، صورة مخطوطة عن مكتبة الأوقاف العامة ، بغداد ، رقم ٤٩٣٢/٩ ، الصورة في شعر الرثاء الجاهلي صلوح بنت مصلح السرحاني ، رسالة دكتوراه ، جامعة أم القرى ، ١٤١٩هـ -١٩٩٨م ، ص ١٧٩ ، تاريخ العرب في عصر الجاهلية ، ص٧٢ .

وقد جاءت ألفاظ غريبة وحشية في شعر الرثاء عند لبيد في أرجوزتين الأولى أرجوزته في عمه أبي البراء إذ يقول[1] :

وفِتْيَـــــةٍ كالرَّسَـــــلِ القِمَـــــاح بَـــــــــاكَرْتَهُمْ بِحُلَـــــــــلٍ ورَاح

كـــانَ غِيـــاثَ المُرْمِـــلِ المُمْتَـــاح وعِصْـــمَةً فـــي الـــزَّمَنِ الكَـــلاح

تَرَكْتَـــــهُ للقَـــــدَرِ المُتَـــــاح مُجَـــدَّلاً بالصَّقْصَـــفِ الصَّـــحَاح

وأرجوزته الثانية في أخيه أربد إذ يقول[2] :

يُحْـــذِي وَيُعْطِـــي مَالَـــهُ لِيُحْمَـــدَا أُدْمًـــا يُشَـــبَّهْنَ صُـــوَارًا أَبَـــدَا

رِفْهَـــا إِذَا يَـــأْتِي ضَـــرِيكٌ وَرَدَا مِثْـــلُ الَّـــذِي فِـــي الْغِيـــلِ يَقْـــرُو جُمُـــدَا

غِبًّـــا وَمَالًـــا طَارِفًـــا وَوَلَـــدَا شَـــرْخًا صُـــقُورًا يَافِعًـــا وَأَمْـــرَدَا

كما استخدم الغريب في قصيدته في النعمان بن المنذر إذ يقول[3] :

---

١ شرح ديوان لبيد ، ص ٣٣٣ . الرسل : القطعة من الإبل . القماح : التي ترفع رؤسها ، المرمل : الفقير الممتاح : كل من يسأل رزقاً ، الضعيف : القاع الخالي . الصحاح : الأملس المستوي المتون .

٢ المصدر نفسه ، ص ١٦٤. الأدم : الإبل البيض . الصوار : هو قطيع من البقر الوحشي . أبدا : مستوحشة الضريك : الفقير . الذي في الغيل : يقصد به الأسد . يقروا : يتبع . الجمد : الجبل الطارق : من المال كل محدث . الأتلد : كل مورث من المال . الشرخ : أو الشباب به نظارته .

٣ المصدر نفسه ، ص ٢٥٨-٢٦٠.

إذا مـــسّ أسْـــآرَ الطُّيـــورِ صَـــفَتْ لَـــهُ مشعشـــــعَةٌ مِمّـــــا تُعتِّـــــقُ بابـــــل

علَـــــيْهِنَّ ولْـــــدانُ الرِّهـــــانِ كأنّهَـــــا سَـــــعَالٍ وعِقْبـــــانٌ عَلَيهْـــــا الرَّحائِـــــلُ

ويَوْمـــاً مِـــنَ الـــدَّهْمِ الرِّغـــابِ كأنّهـــا أشـــــاءٌ دَنَـــــا قِنْوانُـــــهُ أوْ مَجـــــادِلُ

لَهـــا حَجَـــلٌ قـــد قرَّعَـــتْ مِـــن رؤُوسِـــهِ لهَـــــا فُوْقَـــــهُ مِمّـــــا تحلَّـــــبُ وَاشِـــــلُ

إن شيوع هذه الألفاظ الغريبة الوحشية في شعر الرثاء عند لبيد بن ربيعة ، لا يرجع إلى فن الرثاء ذاته بقدر ما يرجع إلى الأبيات التي صور بها صفات الإبل والخيل وبقر الوحش والأسد ، وفي هذه الأبيات التي ذكر فيها هذه الأماكن الإعرابية والمواضع النائية في قلب نجد ، وكذلك في الأبيات التي وصف بها صيد النعمان فهو جو شبيه بأجواء الطرد والصيد ، وقد تميزت هذه الموضوعات بطابع خشن وألفاظ تتلائم مع خشونته ، وهذا ما دعا لبيد إلى مثل هذه الألفاظ الغريبة الوحشية ، فما أحس به من شعور هو الذي فرض عليه لغته الخشنة وألفاظه الغريبة [1] .

وما دام استعمال لبيد الغريب على وجه صحيح وأسلوب فصيح لا يصح أن نجعله عيباً نحط به من قيمة شعره .

---

١ انظر : الصورة في شعر الرثاء الجاهلي ، ص ٢١٩ . أسآر : جمع سؤر أي بقايا لحم الصيد . مشعشعة : معتقة بالية . سعال : إناث الغيلان شبه الخيل بها . الرحائل : جمع رحالة وهي أكبر من السرج وتغشى بالجلود وتستعمل للخيل . الدهم : الإبل السود . الرغاب : الكثيرة . أشاء : عذق النخلة . المجادل : هو القصر المشرف . الحجل : صغار الإبل . قرعت : أي صارت رؤس أولادها قرعاً بكثرة ما تحلب عليها من اللبن .

ومن السمات البارزة في شعر الرثاء عند لبيد بن ربيعة ، استخدامه الألفاظ المركبة ، إذ اعتمد على الأفعال المركبة والفعل المركب كما دلت عليه الدراسة النحوية هو كل فعل يأخذ معناه من ارتباط فعلين ، ومن ذلك قوله[1] :

أصْـبَحْتُ أمْشـي بَعْـدَ سَـلْمى بـن مالـكٍ وبَعْـدَ أبـي قـيسٍ وعُـرْوَةَ كالأجَـبّ

فقد اعتبرت الدراسة (أصبحت أمشي) فعلاً مركباً ، لأن فيه معنى الإصباح والمشي لا الإصباح وحدة ولا المشي وحده .

وقوله[2] :

يـا أربـدَ الخيـرِ الكـريمَ جـدودهُ أفرَدتَنـي أمْشـي بقَـرْنٍ أعْضَـبِ

فالفعل المركب (أفردتني أمشي) لأن فيه معنى الشعور بالوحدة والمشي بقرن أعضب لا معنى المشي وحده ولا الإفراد وحده .

ومن الأساليب الشائعة في شعر الرثاء عند لبيد بن ربيعة ، استخدام صيغة القسم (لعمري) ، وربما كان ذلك تقليداً في شعر الجاهليين وتبعهم لبيد فيه ، إذ يقول[3] :

لعمـري لـئنْ كـانَ المخبـرُ صـادقاً لقـدْ رزئـتْ فـي سـالِفِ الـدّهرِ جعفـرُ

وقوله[4] :

لَعَمْرُكَ ما تَدري الضَّوَاربُ بالحصَى وَلا زاجِـراتُ الطّيـرِ مـا اللّـهُ صـانِعُ

وفي قوله[5] :

لَعَمْـرُ أبيـكِ الخَيـرِ يـا ابنَـةَ أرْبَـدٍ لقَـد شـقّني حـزْنٌ أصـابَ فأوْجَعَـا

---

[1] شرح ديوان لبيد ، ص ١ . الأجب : البعير الذي قطع سنامه .
[2] المصدر نفسه ، ص١٥٦.
[3] المصدر نفسه ، ص ١٦٧.
[4] المصدر نفسه ، ص ١٧٢.
[5] المصدر نفسه ، ص ١٧٣.

ومن الأساليب التي استخدمها لبيد في شعر الرثاء ، الدعاء للميت بعدم البعد بعبارة (لا تبعد) مثل قولة[1] :

وَقُــولي: ألا لا يُبْعِــدِ اللّــهُ أرْبَــدَا وهَـدّي بــهِ صَـدْعَ الفُـؤادِ المُفَجّعَـا

وفي قوله[2] :

فــلا تَبْعَــدَنْ إنّ الْمَنِيّــةَ مَوْعِــدٌ عَلَيْنَــا فَــدَانٍ لِلطُّلُــوعِ وَطَــالِعُ

وهذا الأسلوب اعتاد عليه الشعراء الجاهليون ، وقد تابعهم لبيد بن ربيعة في ذلك حيث كان من عادة العرب الدعاء للميت بهذه العبارة (لا تبعد) ، وهم يريدون به استعظام موت المرثي وكأنهم لا يصدقون بموته ، ويريدون بها أن يبقى ذكره ولا يذهب ، لأن بقاء ذكر الإنسان بعد موته بمنزلة حياته " أي أنه إذا ذهب عنهم سيكون دائماً معهم وفي قلوبهم ، ولعل هذا التفكير هو الذي حملهم على إخراج حصة مما كانوا يأكلونه ويشربونه يسمونه باسم الميت ، وعلى زيارة قبور الموتى والجلوس عندهم وضرب الخيام حولها ، وعلى مناجاة صاحب القبر بذكر اسمه وتحيته " [3]

ولذلك أرى أن الدكتور مقبول النعمة جانب الصواب عندما أشار إلى أن توجه الشاعر إلى المرثي بعبارة (لا تبعد) لا قيمة لها ، إذ يقول : " وهو – أي عبارة لا تبعد – مجرد أسلوب اعتاد عليه الشعراء ليس له قيمة مضمونية ". [4]

ومن السمات الأسلوبية في شعر الرثاء عند لبيد أسلوب المثل ، وقد جاء به لبيد ليشير إلى حتمية الموت والفناء ، ولا يبقى إلا الجماد ، كأبني شمام ، والفرقدين في السماء والنجوم مثل بنات نعش ، إذ يقول : [5]

---

[1] شرح ديوان لبيد ، ص ١٧٣.
[2] المصدر نفسه ، ص ١٧١.
[3]- تاريخ الأدب العربي قبل الإسلام ، جواد علي ، المجمع العربي ، العراق ، د ط ، ١٩٥٥ م ، ٣٨٥/٥ . انظر : شعر الرثاء في العصر الجاهلي دراسة فنية ، ص ٢٦٠ .
[4]- المراثي الشعرية في عصر صدر الإسلام ، ص ٢٠٩ .
[5]- شرح ديوان لبيد ، ص ٢٠٨ .

فَهَـلْ نُبِّئْـتَ عَـنْ أخَـوَيْنِ دَامـا علـى الأيّـام إلاَّ ابْنَـي شَـمَامِ

وإلاَّ الفَرْقَـدَيْنِ وآلَ نَعْـشٍ خَوَالِـدَ مـا تَحَـدَّثُ بانْهِـدَامِ

ومن الأمثال التي استخدمها لبيد ليشير إلى حتمية الموت والفناء ، مثل لقمان الحكيم ، في قوله : [1]

وَأخلَفَـنَ فَسّـاً لَيتَنِـي ولَـوَ أنَّنِـي وَأعيـا عَلـى لُقمَـانَ حُكـمُ التَّـدَبُّرِ

ومن الأساليب التي برزت في شعر الرثاء عند لبيد بن ربيعة ، ظاهرة التكرار ونعني " تناوب الألفاظ وإعادتها في سياق التعبير " [2] وهو من الأشياء المهمة في شعر الرثاء ، ولهذا قال ابن رشيق القيرواني أن أولى " ما يكرر فيه الكلام باب الرثاء لمكان الفجيعة ، وشدة القرحة التي يجدها المتفجع " [3] ، وقد حرص لبيد على تكرار ألفاظه وعباراته ومعانيه ، ليعبر عن ما في نفسه من حزن وأسى ولوعة وفكرة . فالتكرار يضع في أيدينا مفتاحاً للفكرة المتسلطة على الشاعر ، ومن ثم يغدو بمثابة الضوء الذي يسلطه الشاعر على الأعماق كي يسهل الإطلاع على خباياها وعلى اللاشعور الكامن فيها [4] . وتتنوع الألفاظ التي يكررها لبيد في رثائه فنجده يكرر اسم أخيه أربد في قوله : [5]

وَقُـولي: ألا لا يُبْعِـدِ اللّـهُ أرْبَـدَا وهَـدّي بـهِ صَـدْعَ الفُـؤادِ المُفَجَّعَـا

دَعـا أرْبَـداً داعٍ مُجيبـاً فأسـمعَا ولَـمْ يسـتطعْ أنْ يسـتمرَّ فيمنعَـا

لَعَمْـرُ أبيـكِ الخَيـرِ يـا ابنَـةَ أرْبَـدٍ لقَـد شـقَّني حـزْنٌ أصـابَ فأوْجَعَـا

فعَيْنَـيَّ إذْ أوْدَى الفِـراقُ بأرْبَـدٍ فَـلا تَجْمُـدَا أنْ تَسْـتَهِلاَّ فتَـدمَعَا

---

[1]- شرح ديوان لبيد، ص ٥٦ .
[2]- خزانة الأدب وغاية الإرب ، ١ / ١٦٤ .
[3]- العمدة ، ٢ / ٧٠٣ .
[4]- شعر رثاء النفس حتى نهاية العصر العباسي ، ص ٥١٠ .
[5]- شرح ديوان لبيد ، ص ١٧٣ .

نلاحظ في هذه الأبيات أن لبيداً كرر اسم أخيه (أربد) أربع مرات ، مما يدل على مدى تعلق لبيد بأخيه وقربه من نفسه وحضوره في ذهنه وحسرة في نفس لبيد يحاول أن يجد لها متنفساً .

وكأنه في تكرار اسم أخيه أربد ، يلح على الفكرة التي تشغله ، فقد تمكن الموت من أربد الذي كان رمزاً للبطولة والقوة في قومه ، أربد الذي كان صاحب المجد والكرم في يوم ما ، والذي ورث عنه لبيد قيم الحياة الجاهلية . ولعله في تكرار اسم أخيه أربد يرثي نفسه ويرثي تلك الليالي الخالية والأيام الماضية .

ومن أمثلة التكرار كذلك في شعر الرثاء عند لبيد قوله : [1]

انْـــعَ الْكَـــريمَ لِلْكَـــريمِ أرْبَـــدَا انْـــعَ الـــرَّئِيسَ وَاللَّطِيـــفَ كَبَـــدَا

فتكرار كلمة (انع) شاهد على زيادة تحسّره على المرثي ، وإظهار لشدة الحزن عليه .

وقوله أيضاً :[2]

والحـــــاربِ الجـــــابرِ الحريـــــبِ إذا جـــاء نَكيبـــا وان يَعُـــدْ يَعُـــدِ

ومن أمثلة التكرار قوله : [3]

إلـــى الحَـــوْلِ ثـــمَّ اســـمُ السّـــلامِ علَيكُمـــا وَمَـــنْ يَبْـــكِ حَـــوْلاً كـــاملاً فقـــدِ اعتـــذرْ

فقد كرر لبيد لفظ (الحول) معرباً عن تطلعه ألا يطول حزن ابنتيه عليه .

ومن أمثلة تكرار الألفاظ عند لبيد قوله : [4]

فَـــلا جَـــزعٌ إنْ فَـــرّقَ الـــدّهْرُ بَيْنَنـــا وكُـــلُّ فَتـــىً يَوْمَـــاً بـــهِ الـــدّهْرُ فـــاجِعُ

---

[1]- شرح ديوان لبيد ، ص ١٦٤.
[2]- المصدر نفسه ، ص ١٥٨ .
[3]- المصدر نفسه ، ص ٢١٤ .
[4]- المصدر نفسه ، ص ١٦٨- ١٧٢ .

فَــلا أنَــا يــأتيني طَريــفٌ بِفَرْحَــةٍ وَلا أنــا مِمّــا أحــدَثَ الــدّهرُ جــازِعُ

أتجــزَعُ مِمّــا أحــدَثَ ادّهــرُ بــالفَتى وأيُّ كَــريمٍ لــمْ تُصِــبْهُ القَــوارِعُ

فقد كرر لبيد لفظة (الدهر) أربع مرات في الأبيات السابقة ، ومن هذا يتبين لنا عظم المعاناة التي يعانيها لبيد بسبب الدهر ، حتى أصبح يعتاد ذلك فلم يعد يفاجـــئ ، فكل إنسان سيفجع من الدهر في يوم ما ، فهو لن يظل بمنأى عن حوادثه .

ومن أمثلة التكرار للدلالة على التوكيد والترابط بين أبيات القصيدة ، وأفكارها ووحدتها الموضوعية قوله : [1]

أصْــبَحْتُ أمْشــي بَعْــدَ سَــلْمى بــن مالــكٍ وبَعْــدَ أبــي قــيسٍ وعُــرْوَةَ كالأجَــبّ

يضــــجُّ إذا ظَــــلَّ الغُــــرابِ دَنــــا لَــــهُ حِــذاراً علــى بــاقي السَّنَاسِــنِ والعَصَــبْ

وَبَعــدَ أبــي عمــرٍو وذي الفضْــلِ عــامِرٍ وبَعــدَ المُرَجَّــى عُــرْوَةَ الخَيــرِ للكُــرَبْ

وبعــــدَ طفيــــلٍ ذي الفعــــالِ تعلقَــــتْ بــــهِ ذاتُ ظُفْــــرٍ لا تُــــوَرَّعُ باللَّجَــــبْ

وبَعــــدَ أبــــي حَيّــــانَ يَــــوْمَ حَمُومَــــةٍ أتِــــيحَ لَــــهُ زَأوٌ فــــأزْلِقَ عَــــنْ رَتَــــبْ

فإن تكرار (بعد) رابط قوي بين الأبيات السابقة وتركيز في ذهن السامع عن سبب ما حل بالشاعر ، وهذا يتنافى مع الفكرة الشائعة على استقلال البيت في الشعر القديم ، بل بهذا التكرار شد لأوصال القصيدة بعضها ببعض ، وإثبات على وحدتها العضوية .

وقوله أيضاً : [2]

فكــائِنْ رَأيْــتُ مِــنْ بَهــاءٍ ومَنْظَــرٍ ومفــــتح قيــــدٍ للأســــيرِ المكفّــــرِ

وكــائنْ رأيْــتُ مــنْ ملــوكٍ وســوقةٍ وراحلــــةٍ شــــدّتْ برحْــــلٍ محبّــــرِ

[1]- شرح ديوان لبيد ، ص ١-٢ .
[2]- المصدر نفسه ، ص ٥٤ ــ ٥٥ .

فقد كرر لبيد (رأيت) مرتين في البيتن السابقين ، ونتج عنه ترابط بينهما وتركيز في ذهن السامع على معنى الرثاء وما يفعله الموت بأهله .

ومن تكرار البيت أو الشطر من البيت في شعر الرثاء عند لبيد بن ربيعة قولـــــه : [1]

يـــا أربـــدَ الخيـــرِ الكـــريمَ جـــدودهُ أفرَدتَنـــي أمْشـــي بقَـــرْنٍ أعْضَـــبِ
إنَّ الرزيـــــة لا رزيّـــــة مثلهَـــــا فقـــدانُ كـــلِّ أخٍ كضـــوءِ الكوكـــبِ
ذهـــبَ الـــذينَ يعـــاشُ فـــي أكنـــافهمْ وبَقيـــتُ فـــي خَلْـــفٍ كجِلـــدِ الأجـــرَبِ

فقد تكررت الأبيات السابقة في قصيدتين متتاليتين [2] ، لتؤكد بذلك على مصيبة لبيد التي ألمت به بفقدان أخيه ، فصار يشعر أنه أصبح لا حول له و لا قوة . فقد أضحى عاجزاً بعد أن غاب عنه من يحب حيث سلب القوة والمنعة التي كان يتمتع بهما بجوار أخيه وأهله الذين صاروا تحت التراب .

ومن أنماط التكرار في شعر الرثاء عند لبيد بن ربيعه ، تكرار شطر أو جزء من البيت في قوله : [3]

وكـــائنْ رأيـــتُ مِـــنْ ملـــوكٍ وســـوقة وَصـــاحَبْتُ مِـــن وَفْـــدٍ كـــرامٍ ومَوكِـــبِ

ويقول : [4]

فكـــائِنْ رَأيْـــتُ مِـــنْ بَهـــاءٍ ومَنْظَـــرٍ ومفـــــتح قيـــــدٍ للأســـــيرِ المكفّـــــرِ
وكـــائنْ رأيْـــتُ مـــنْ ملـــوكٍ وســـوقةٍ وراحلـــــةٍ شـــــدّتْ برحْـــــلِ محبّـــــرِ

---

[1]- شرح ديوان لبيد ، ص ١٥٦ .
[2]- المصدر نفسه ، ص ١٥٣ -١٥٥ .
[3]- المصدر نفسه ، ص ٣ .
[4]- المصدر نفسه ، ص ٥٤ – ٥٥ .

فقد تكرر الشطر صدر البيت "وكائن رأيت من ملوك وسوقه " وتكررت الجزئية " وكائن رأيت " في القصيدتين السابقتين أكثر من مرة ، وكان ذلك في مواضع مختلفة ، ليأتي التكرار بذلك منسجماً مع الجو العام لكلا القصيدتين ، فلبيد يعتبر بمصير الأمم السابقة والأقوام الماضية التي لم تستطع قوتها ومكانتها أن ترد عنها الموت ، ليصل بذلك إلى الحقيقة الثابتة التي لا تتغير وهي أن الناس على اختلاف مكانتهم سيموتون ويفنون ، وسيأتي من بعدهم أقوام وأناس سيلاقون نفس المصير ، فجاء التكرار هنا وكأنه إقرار عام بفعل الدهر والاستسلام له .

ومنه قوله :[1]

يـــا عـــين هـــلاّ بكيْـــتِ أرْبَـــدَ إذ ... قُمْنَـــا وقـــامَ الخصـــومُ فـــي كَبَـــدِ

يـــاعَينِ هـــلاّ بكيـــتِ أربَـــدَ إذ ... ألـــوَت ريـــاحُ الشـــتاء بالعَضَـــد

فقد تكرر الشطر صدر البيت " عين هلا بكيت أربد إذ " في البيتين السابقين وفي ذلك إشارة إلى الفراغ الذي تركه أخيه أربد بعد موته سواءً بشجاعته أو كرمه في الشتاء البارد .

ومن الأساليب التي استخدمها لبيد في شعر الرثاء أسلوب الحوار ، وهو ما أطلق عليه علماء البديع المراجعة [2] ، فيحاول من خلاله الكشف عن دخيلة نفسه ، ودخائل نفوس الآخرين ، فجاء استخدامه متناغماً مع شخصيته ، معبراً عن نفسيته ، ومن ذلك حوراه مع العاذلة التي تلومه على كرمه إذ يقول : [3]

أعـــاذلَ قُـــومي فاعـــذلي الآنَ أوْ ذَري ... فلســـتُ وإنْ أقصـــرتِ عنّـــي بمقصـــرِ

أعـــاذِلَ لا واللهِ مـــا مـــنْ ســـلامةٍ ... ولَـــوْ أشـــفقتْ نَفْـــسُ الشّـــحيح المُثمِّـــرِ

أقـــي العِـــرْضَ بالمَـــالِ الـــتِّلادِ وأشْـــتَري ... بـــهِ الحَمـــدَ إنَّ الطّالـــبَ الحمـــدَ مُشـــتري

وكَـــمْ مُشـــترٍ مـــن مالِـــهِ حُســـنَ صِـــيتهِ ... لأيّامِـــهِ فـــي كُـــلِّ مَبْـــدىً ومَحْضَـــرِ

أبـــاهي بـــهِ الأكفـــاءَ فـــي كـــلِّ مَـــوْطِنٍ ... وأقضـــي فُـــرُوضَ الصَّـــالحينَ وَأفْتَـــري

---

[1] - شرح ديوان لبيد ، ص ١٦٠ .
[2] - خزانة الأدب وغاية الأرب ، ١ / ٩٩ .
[3] - شرح ديوان لبيد ، ص ٤٦ – ٤٧ .

فإمّـــا تريـنـــي اليـــومَ عنـــدكِ ســـالِماً فلســـتُ بأحْيـــا مِـــنْ كـــلابٍ وجعفـــرِ
وَلا مـــنْ أبـــي جـــزءٍ وجـــاريْ حمومـــةٍ قتيلِهِمَـــــا والشّـــــاربِ المُتَقَطّـــــرِ

نلاحظ أن العاذلة لا تفصح عن سبب لومها بطريقة مباشرة ، ولكن المستمع يعرف سبب ذلك من خلال تبريرات لبيد وردوده على العاذله ، ولبيد يفعل هذا ليجعل رأيه أكثر إقناعاً للمستمعين ، فهو لا يترك العاذلة تشرح أسباب عذلها ، ولكنه يقدم لنا هذه الأسباب من وجهة نظره ، وهذا أسلوب من أساليب دفاع لبيد عن نفسه في رده عن العاذلة ، وهي طريقة خاصة بلبيد ، وتعد ظاهرة أسلوبية في شعره الرثائي . ويتضح هذا بمقارنة أبيات لبيد بأبيات حاتم الطائي : [1]

وعاذلـــةٍ هبّـــتْ بليـــل تلـــومُني وقـــد غـــاب عيّـــوقُ الثريـــا فعـــرّدا
تقـــولُ: ألا أمْسِـــكْ عليـــكَ، فـــإنّني أرى المـــال عنـــد الممســـكين، مُعَبّـــدا
ذَرينـــي ومـــالي، إنّ مالَـــكِ وافِـــرٌ وكـــل امـــرئٍ جـــارٍ علـــى مـــا تعـــودا
أعـــاذِلَ! لا آلُـــوكِ إلا خليقتـــي فـــلا تَجعَلـــي، فـــوْقي، لِســـانَكِ مِبْـــرَدا
ذَرينـــي يكُـــنْ مـــالي لعِرْضِـــيَ جُنّـــةً يَقـــي المـــالُ عِرْضِـــي، قبـــل أن يَتَبَـــدّدا

فحاتم أتاح لعاذلته أن تصرح وتقول ما تريده من مبررات على لومها ، وتكشف عنها مباشرة ، في حين عرفنا مبررات العاذلة عند لبيد من خلال دفاعـــه عن نفســـــه ، فلبيد الغارق في أحزانه والمتحدث عن عواطفه لا يتحاور مع عاذلته مباشرة على سنن غيره من الشعراء .

لم يكتف لبيد بحواره مع عاذلته ،فقد حاور نفسه التي بين جنبيه ، وذلك عندما يتحدث عن المصائب التي حلت به كفقده أهله وعشيرته ، فقد شعر بأنه أصبح وحيداً لا ناصر له فهو يشبه نفسه بالجمل الأجب ، في قوله : [2]

أصْـبَحْتُ أمْشـي بَعْـدَ سَـلْمى بـن مالـكٍ وبَعْـدَ أبـي قـيسٍ وعُـرْوَةَ كالأجَـبّ
يضـــجُّ إذا ظـــلَّ الغُـــرابِ دَنَـــا لَـــهُ حِـذاراً علـى بـاقي السّنَاسِـنِ والعَصَـبْ

[1]- ديوان حاتم الطائي ، دار مصعب ، بيروت ، د ط ، ١٩٨ م ، ص ٧٤ – ٧٥ .
[2]- شرح ديوان لبيد ، ص ١.

فلبيد بعد ما أقر بضعفه وعجزه بعد فراق الأهل ، يحاور نفسه محـــــاولاً تسليتهـــا ، ومحاولاً في الوقت نفسه أن يشرح لها الحقيقة التي لا مفر منها ، إذ لا حي ينجو من الهلاك ، إذ يقول : [1]

فهـــوَّنَ مـــا ألْقَـــى وإنْ كُنْـــتُ مُثبتـــاً يَقينـــي بـــأنْ لا حـــيَّ يَنجـــو مـــن العَطَـــبْ

ومن السمات الأسلوبية في شعر الرثاء عند لبيد بن ربيعه ، الأسلـــوب القصصي ، وتسميته بالأسلوب القصصي أكثر توفيقاً من تسميته بالقصة بمعناه الفني ، صحيح قد وجد في هذا الأسلوب بعض مقومات القصة ولكنه لم " يبلغ النضج الفني في القصة " [2] ، وبرز هذا الأسلوب في القصيدة التي نظمها لبيد قبل وفاته وذلك حين أوصي ابن أخيه أن يحسن دفنه ، إذ يقول : [3]

وإذا دَفَنْـــتَ أبـــاكَ فَاجـــ ـــعَلْ فَوْقَـــهُ خَشَـــباً وطِينـــا
وَصَـــفائحاً صُـــمّاً رَوَا ســـيهَا يُســـدِّدْنَ الغُضـــونَا
لِيَقِـــينَ وَجْـــهَ المـــرءِ سَـــفْ سَـــافَ التـــرابِ ولَـــنْ يقينـــا
ثـــمّ اعتبـــرْ بِثنـــاءِ رهـــ طِـــكَ ، إذْ ثَـــوَى جـــدثاً جنينـــا
وَتَراجَعُـــوا غُبْـــرَ المـــرا فِـــق مِـــنْ أخـــيهمْ يائِســـينا
تلـــك المكـــارمُ إن حفـــظْ تَ فلـــن تُـــرَى أبَـــداً غَبينـــا

حيث نلمح ملامح القصة ، عندما يتخيل لبيد ابن أخيه وقد تولى دفنه ، ثم جعل لقبره سقفاً من خشب وطين ، ثم أحكم إغلاق القبر فلم يدع في سقفه شقاً يتسلل منه سفساف التراب ، وانصراف الرهط الذين شاركوا في دفنه ، وهم غبر السواعد ، وأقامت نسوته من أبكار وعون مأتمه ويبكينه وهن متشحات بمسوح الشعر السود .

---

[1] - شرح ديوان لبيد ، ص ٢.
[2] - النقد الأدبي الحديث ، ص ٤٩١ .
[3] - شرح ديوان لبيد ، ص ٣٢٥ – ٣٢٦ .

ويجد الباحث بعض الملامح القصصية في قصيدته التي يرثي بها أخاه أربد ، وذلك عندما يصف لنا ما قام به ملك حمير من عون ومساعدة إليه عندما ذهبت إليه إبل الحوأب وهو رجل من بني سلمى بن مالك بن جعفر ، وقد كلم لبيد فيها الملك الحميري حتى ردها إلى الحوأب ، ويقول لبيد : لولا ذلك لذهبت هذه الإبل مقيمة تقضي القيظ في علك الحجاز وجنوب ناصفة إذ يقول : [1]

لَــوْلا الإلَــهُ وَسَــعيُ صــاحِبِ حِمْيَــرٍ وتَعَرُّضــي فــي كــلِّ جَــوْنٍ مُصْــعَبِ
لَتَقَيّظَــتْ عِلْــكَ الحجــازِ مُقيمَــةً فجَنُــوبَ ناصِــفَةٍ لِقــاحُ الحَــوْأبِ

ثم ينتقل إلى مشهد آخر يظهر فيه وهو يزور الملك الحبشي ويكلمه في فداء قوم فأجازه وأحسن إليه ولبى طلبه ، في قوله : [2]

ولَقَــدْ دَخَلْــتُ علــى خُمَيّــرَ بَيْتَــهُ مُتَنَكِّــراً فــي مُلكِــهِ كالأعْلَــبِ
فأجــازَني مِنْــهُ بِطِــرْسٍ نــاطِقٍ وبكــلِّ أطْلَــسَ جَوْبُــهُ فــي المنكِــبِ

وتطل الروح القصصية في قصيدته التي يرثي بها أخاه أربد من قصة الوعل وهو متحصن بأعالي الجبال الوعرة التي لا يستطيع أن يرتقيها أحد وهو آمن منعم لديه من النبت ما يشاء ، في قوله :[3]

لــو كــان شــيءٌ خالــداً لتواءَلَــتْ عصْــماءُ مُؤلِقَــةٌ ضــواحيَ مأسَــلِ
بظُلُوفِهــا ورَقُ البَشَــامِ ودُونَهــا صَــعْبٌ تَــزِلُّ سَــرَاتُهُ بالأجْــدَلِ
فأصــابَهُ رَيْــبُ الزَّمــانِ فأصْــبَحَتْ أنيابُــهُ مثــلَ الزجــاجِ النُّصَّــلِ

ونحن في هذه الأبيات نفتقد الحوادث فلبيد يكتفي بالقول بأن الدهر ينال الوعل .

وتأتي الروح القصصية في قصيدته التي ترثي بها أهله وعشيرته وسادة قومــــه ، فهو يشير إلى حوادث التاريخ وشخوصه إلى أنها تكون رواية لقصة ،

---

[1]- شرح ديوان لبيد ، ص ١٥٤ .
[2]- المصدر نفسه ، ص ١٥٥ .
[3]- المصدر نفسه ، ص ٢٧٢ .

حيث يكتفي لبيد بالإلماح إلى حوادثها وأبطالها ، ويتحكم ميل لبيد وشخصيته الفنية في إجازة السرد ، فهو يكاد يقف عند الأسماء ويقدمها متراكمة وجيزة دون حدث إلا في النادر ، إذ يقول :[1]

وَلا مِنْ أبي جزءٍ وجاريْ ... قتيلِهِمَا والشّاربِ المُتَقَطّرِ
ولا الأحْوَصينِ في لَيالٍ تتابعَا ... وَلا صاحبِ البَّراضِ غيرِ المغمَّرِ
وَلا مِنْ رَبيعِ المقتَرينَ رزئْتُهُ ... بذي علقٍ فاقنيْ حياءَكِ واصْبري
وقيسِ بنِ جزءٍ يومَ نادى ... فعاجُوا عليهِ من سواهمَ ضمَّرِ
طوتْهُ المَنَايَا فوقَ جرداءَ شطبةٍ ... تَدِفُّ دَفيفَ الرَّائحِ المُتَمَطِّرِ
فباتَ وَأسْرَى القَوْمُ آخِرَ لَيلِهِمْ ... وما كانَ وقافاً بدارِ معصّرِ
وبالفُورَةِ الحَرَّابُ ذو الفَضْلِ ... فَنِعْمَ ضِياءُ الطّارقِ المُتَنَوِّرِ
ونِعْمَ مُنَاخُ الجارِ حَلَّ ببَيْتِهِ ... إذا ما الكعابُ أصبحتْ لم تستر
وبَيْتُ طُفَيْلٍ بالجُنَيْنَةِ ثاوياً ... وبَيتُ سُهَيْلٍ قد علِمتِ بصَوْعَرِ
وبالجرِّ مِنْ شرقيِّ حرسٍ مُحاربٌ ... شُجاعٌ وذو عَقْدٍ منَ القَوْمِ مُحتَرِ
وصاحبُ ملحوبٍ فجعنَا بيومهِ ... وعندَ الرّداع بيتُ آخرَ كوثرِ
وشمطٌ بني ماءِ السماءِ ومردَهُمْ ... فهَل بَعْدَهُمْ مِنْ خالدٍ أوْ مُعَمَّرِ
وأفنى بَناتُ الدّهرِ أرْبابَ ناعطٍ ... بمُسْتَمَعِ دونَ السّماء ومَنْظَرِ
وبالحارثِ الحرابِ فجعنَ قومَهُ ... ولَوْ هاجَهُمْ جاءُوا بنَصْرٍ مُؤزَّرِ
وأهلَكْنَ يوماً ربَّ كندَةَ وابنهُ ... وربَّ مَعَدٍّ بينَ خَبْتٍ وعَرْعَرِ
وأعوَصْنَ بالدَّوميّ من رَأسِ ... وأنزلْنَ بالأسبابِ ربَّ المشقرِ
وأخلَفْنَ ظَنّاً ليتني ولوَ أنّني ... وأعْيا على لُقْمَانَ حُكْمُ التّدَبَّرِ

وتتسم مراثي لبيد بن ربيعة بالطابع الإنشائي من نداء ، واستفهام وأمر ، وبرزت هذه الأساليب بصورة جلية ، وربما جاء معظمها في بيت واحد من أبياته ، وقد استخدم لبيد النداء بأدواته المختلفة من " يا " " الهمزة " وعبر من خلاله

[1]- شرح ديوان لبيد ، ص ٤٧ – ٥٦ .

عن معان عدة ، منها الألم والحزن والحسرة ، ولعل ما في حرفي " أ " و " يا " من مد للصوت ، وما يحمله هذا المد من تفريغ لشحنة الحزن والألم المعتلجة في النفس ، كان سبباً وراء ظهوره في شعر الرثاء عند لبيد بن ربيعه ، إذ يقول : [1]

يـــا أربَـــدَ الخيـــر الكـــريمَ جُـــدُودُهُ خَلَّيتنَـــي أمشِـــي بِقَـــرنِ أغضَـــبِ

أداة النداء (يا) أعطت مجالاً لرفع الصوت والتنفيس عن الحزن بمدها ، كما توحي بالتباعد بين الراثي والمرثي ، لذلك استخدمها لبيد عندما غمره هذا الإحساس .

وهذا ما يعرف بالخطاب الخيالي ، فهو يتخيل أخاه أربد أمامه على الرغم من أنه قد مضى زمن على موته . ويمكن أن يكون هذا النداء نابعاً من موقف عام حيث كان الشعراء الجاهليون يصدرون عنه في رؤيتهم للموت ، فقد اعتقد الجاهليون " أن الميت وإن دفن جسده تبقى روحه حاضرة معهم تتبع أخبارهم وتتعرف على أحوالهم ، لذلك تظل مناجاة الميت أمراً مقرراً في المعتقد الجاهلي " [2] وليس ببعيد أن يكون الجاهليون قد بنوا مثل هذا التصور منطلقين من هذا المعتقد ؛ ولذلك كانوا يظنون أن الميت إذا مات خرج من قبره طائر يسمى الهامة ، وهذا يعني أنهم يناجون الميت لاعتقادهم أن روحه تظل ترفرف بينهم .

أما فيما يتعلق بخروج ألفاظ النداء في شعر الرثاء عند لبيد بن ربيعة عن معناها الأصلي ، وهو طلب الإقبال إلى معان أخرى ، مثل قوله : [3]

يـــا مَـــيّ قُـــومي فـــي المَـــآتِمِ وَانْـــدُبي فتـــىً كـــانَ ممّـــن يَبتنـــي المَجـــدَ أرْوَعَـــا

إذ خرج النداء إلى معنى التحسر والتوجع .

وقد يخرج النداء إلى معنى العبرة والموعظة ، مثل قوله مخاطباً ابن أخيه : [4]

---

[1]- شرح ديوان لبيد ، ص ١٥٤ .

[2]- مرثاة الخنساء الإنسانية (الموت ، الثأر ، الخلود) ، د / أنور أبو سويلم ، مجلة أبحاث اليرموك ، المجلد الرابع ، العدد الأول ، ١٩٨٦ م ، ص ١٠ .

[3]- شرح ديوان لبيد ، ص ١٧٣ .

[4]- المصدر نفسه ، ص ٣٢٢ .

أبُنَـــيَّ هـــلْ أحْسَسْـــتَ أعْـــم امِـــــي بنـــــي أمِّ البنينـــــا

فهو يدعو ابن أخيه إلى التبصر في الماضي ، بمن مات من أعمامه

كما جاء النداء تعظيماً لشأن المرثي وبياناً لمكانته في قوله : [1]

يا عامراً يا عامرَ الصّباح

ومِدرة الكتيبة الـــــرداح

ومثله في قوله : [2]

يـــا عَـــوْفُ أحْلَـــمَ كـــلِّ ذي حلـــمٍ وأقـــولَ كـــلِّ قائِـــلْ

يـــا عَـــوْفُ كنـــتَ إمَامَنَـــا وبَقِيّـــةَ النَّفَـــرِ الأوائِـــلْ

وقد استخدم لبيد بن ربيعة أدوات نداء القريب والبعيد ، فأوردها على معناها الأصلي ومعناها غير الأصلي ، ومما جاء مخالفاً لإستخدام هذه الأدوات على معناها الأصلي قوله : [3]

يـــا عـــين هـــلاّ بكيْـــتِ أرْبَـــدَ إذ قُمْنَـــا وقـــامَ الخصـــومُ فـــي كَبَـــدِ

إذ أن المنادى (العين) قريبة ، لكنه استعمل حرف النداء (يا) المخصص لنداء البعيد ، وذلك لغفلتها عن بكاء أربد ، فهي لم تبلغ الحد المطلوب عليه من البكـــاء ، فكأنها بخيلة بدموعها عليه ، وهو هنا يدعوها للبكاء ويحثها عليه .

ومن الأساليب التي شاعت في شعر الرثاء عند لبيد بن ربيعة أسلوب الإستفهام ، فهو كما يرى الزوزني " مستحب في النسيب والمرثية لأن الهوى والمصيبة يدلان

---

[1]- شرح ديوان لبيد ، ص ٣٣٢ .
[2]- المصدر نفسه ، ص ٢٣١ .
[3]- المصدر نفسه ، ص ١٦٠ .

على صاحبهما " [1] ، وقد استعان لبيد بأدواته المختلفة مثل " الهمزة " و " هل " و " متى " وعبر عنها عن عدة معاني و من أمثلة الإستفهام في شعر الرثاء عند لبيد ، قوله : [2]

أبُنَـــيَّ هـــلْ أحْسَسْـــتَ أعْـــم امِـــــي بنـــــي أمِّ البنينـــــا

جاء الإستفهام هنا طلباً للنفي أو الإثبات ، وهو استفهام على المعنى الأصلي .

ومن ذلك أيضاً قوله : [3]

ألـــيْسَ ورائـــي، إنْ تراخَـــتْ مَنيّتـــي لُـــزُومُ العَصَـــا تُحْنَـــى علَيهـــا الأصـــابعُ

فقد خرج الإستفهام إلى معنى التقرير ، إذ فيه حمل المخاطب على الإقرار بما يعرفه إثباتاً ، لأن الأمر سوف يحصل لا محالة .

والبيتان السابقان فيهما دلالة واضحة على مدى الملل والألم اللذين كانا يشعر بهما لبيد نتيجة لطول مكثه في الحياة الممتلئة أحزاناً .

ومن خروج الإسفتهام إلى معنى التقرير قوله : [4]

ألَـــمْ تَـــرَ فيمـــا يَـــذكُرُ النَـــاسُ أنّنـــي ذكـــرْتُ أبـــا لَيلـــى فأصـــبَحْتُ ذا أرَبْ

فلبيد يقرر أنه بات ذا حاجة ، لفقد صاحبه أبي ليلى .

واستخدم لبيد الإستفهام ليفيد معنى النفي ، في قوله : [5]

هَـــلِ الـــنّفْسُ إلاَّ مُتعَـــةٌ مُســـتَعارةٌ تُعَـــارُ فتَـــأتي رَبَّهـــا فَـــرْطَ أشـــهُرِ

---

[1]- شرح المعلقات السبع ، أبو عبد الله الحسين بن أحمد الزوزني ، دار الجيل ، بيروت ، د ط ، ١٩٦٣ م ، ص ١٣١ .
[2]- شرح ديوان لبيد ، ص ٣٢٢ .
[3]- المصدر نفسه ، ص ١٧٠ .
[4]- المصدر نفسه ، ص ٢ .
[5]- المصدر نفسه ، ص ٥٧ .

الاستفهام هنا جاء للنفي لا لطلب العلم بشيء مجهول ، والمعنى : ليست النفس إلا متعة مستعارة . أي : كل إنسان سيلقى حتفه لا محالة ، فخرج الاستفهام عن معناه الأصلي إلى النفي الذي يستفاد من سياق الكلام .

ومن ذلك أيضاً قوله : [1]

فَهَلْ نُبِّئْتَ عَنْ أخَوَيْنِ دَاما على الأيّام إلاَّ ابْنَي شَمَامِ

فالاستفهام هنا يتضمن معنى النفي ، ومما يؤكد ذلك مقابلته بأداة الاستثناء (إلا) في الشطر الثاني .

ومن المعاني التي عبر عنها الاستفهام في شعر الرثاء عند لبيد معنى التعجيز ، وجاء ذلك في قوله : [2]

سَلُوهُنَّ إنْ كَذَّبتموني متى الفتى يذوقُ المنايا أوْ متى الغيثُ واقِعُ

فهو يؤكد على أن معرفة علم الغيب مستحيل ، وعجز الإنسان عن معرفة موعد المنية ، أو ساعة نزول الغيث .

واستخدم لبيد أسلوب الاستفهام الدال على معنى الإنكار ، في قوله :[3]

أتجزَعُ مِمّا أحدَثَ الدّهرُ بالفَتى وأيَّ كَريمٍ لَمْ تُصِبْهُ القَوَارِعُ

فلبيد ينكر أن يجزع من أحداث الدهر ، وأرجع سبب ذلك الإنكار في صيغة استفهام يتضمن أن يكون الكريم في مأمن عن القوارع .

وجاء الاستفهام دالاً على اللوم والتوبيخ ، في قوله : [4]

يا عين هلاّ بكيْتِ أرْبَدَ إذ قُمْنا وقامَ الخصومُ في كَبَدِ

يا عَينِ هلاّ بكيتِ أربَدَ إذ ألوَت رياحُ الشتاء بالعَضَد

---

[1]- شرح ديوان لبيد ، ص ٢٠٨ .
[2]- المصدر نفسه ، ص ١٧٢ .
[3]- المصدر نفسه ، ص ١٧٢.
[4]- المصدر نفسه ، ص ١٦٠ .

فمعنى أداة الاستفهام (هلا) في البيتين السابقين خرج عن الأصل إلى معنى التوبيخ واللوم ، فيما تركته العين من البكاء على أربد ، وفيها معنى طلب البكاء والحث عليه .

وفي قوله :[1]

ألاَ تَســـألانِ المـــرءَ مـــاذا يُحَـــاولُ أنَحـــبُ فيُقضَـــى أم ضَـــلالٌ وَ بَاطِـــل
حبائلـــــهُ مبثوثـــــةٌ بســـــبيلِه وَ يَفنَـــى إذا مـــا أخطأتـــهُ الحَبَائـــل
إذا المـــرءُ أســـرى ليلـــةً ظـــن أنـــه قضـــى عمـــلاً والمـــرء مـــا عـــاش عَامـــل
فَقـــولاَ لـــهُ إن كـــانَ يَقسِـــم أمـــرهُ ألمـــا يعِظـــك الـــدهر ، أمُّـــك هَابِـــل

اشتملت الأبيات السابقة على ثلاثة أساليب استفهام ، الاستفهام الأول في قوله : ألا تسألان المرء ؟ والاستفهام الثاني في قوله : أنحب فيقضى أم ظلال وباطل ؟ و الاستفهام الثالث في قوله : ألما يعظك الدهر ؟ والاستفهام الرابع في قوله : ماذا يحـــاول ؟ وكل أساليب الاستفهام هنا تلتقي في الكشف عن حقيقة الحياة والموت ، فلا أحد سيخلد في هذه الدنيا ، كما كشفت أساليب الاستفهام عن تأملات لبيد في الحياة والمـــوت ، وتقلبات الحياة به ، مما يدل على عقلية لبيد المتشبعة بفلسفة الحياة وتجاربها .

وفي قوله : [2]

فـــتَعْلَمَ أنْ لا أنـــتَ مُـــدْرِكُ مـــا مضَـــى وَلا أنـــتَ ممّـــا تَحـــذَرُ الـــنّفسُ وَائِـــلُ

كشف لنا الاستفهام عن الحيرة والقلق والتوتر التي يعيشها لبيد ، كما يكشف عن إحساسه بافتقاد الأمان والخوف .

---

[1]- شرح ديوان لبيد ، ص ٢٥٤ ــ ٢٥٥.
[2]- المصدر نفسه ، ص ٢٥٥ .

ويتضح لنا مما سبق انسجام الإستفهام بأغراضه المتعددة مع الرثاء الذي جعل لبيد في حالة من الحيرة والتأمل والحث على التفكير في حقيقة الموت والحياة ، والإنكار لعدم المبالاة ، ولا شك أن الإستفهام أكثر قدرة على استيعاب تلك المعاني .

واستخدم لبيد أسلوب الأمر ، وقد خرج عن معناه الحقيقي ليعبر عن معان شتـــى ، وأبرزها معنى التسوية في قوله : [1]

أعـــاذِلَ قـــومي فاعـــذُلي الآنَ أو ذري فَلَسْـــتُ وإنْ أقْصَـــرْتِ عَنِّـــي بِمُقْصِـــرِ

فقد خرج الأمر إلى معنى التسوية ، فسواءً أعذلت أم أقصرت فإن لبيداً سيسلك السلوك عينه في كلتا الحالتين .

ومن ذلك أيضاً : [2]

قـــضِّ اللُّبانَـــةَ لا أبَـــا لـــكَ واذْهَـــبِ وَالْحَـــقْ بأُسْـــرَتِكَ الكِـــرامِ الغُيَّـــبِ

فقد خرج الأمر من الأمر إلى معنى التمني ، وهو تمني حاول الموت والذهاب من تلك الحياة التي لم يعد فيها ما يستريح ليه لبيد .

وجاء الأمر ليفيد معنى النصح والإرشاد في قوله : [3]

وَلا مِـــنْ رَبيـــعِ المقتـــرينَ رزئْتُـــهُ بـــذي علـــقٍ فـــاقنيْ حيـــاءَكِ واصْـــبري

وقد يخرج الأمر إلى معنى التحسر ، كما في قوله : [4]

لـــــنْ تفنيَـــــا خيـــــراتِ أرْ بـــــدَ فابكِيَـــــا حتّـــــى يعـــــودَا
قُـــــولا هُـــــوَ البَطَـــــلُ المُحَـــــا مـــــي حِـــــينَ يُكْسَـــــوْنَ الحَديـــــدَا

---

[1]- شرح ديوان لبيد ، ص ٤٦.
[2]- المصدر نفسه ، ص ٥٣.
[3]- المصدر نفسه ، ص ٤٨ .
[4]- المصدر نفسه، ص ١٦٣.

قد اشتمل البيتان على أسلوب أمر (فابكيا – قولا) ، وقد جاء بهما لبيد تعبيراً عن حزنه وحسرته على فراق أخيه أربد .

ومن خروج الأمر إلى معنى التحسر أيضاً قوله : [1]

قُـــومي إذَا نَـــامَ الخَلِـــيَّ فـــأبِّني عَـــوْفَ الفَواضِـــلْ

لا شك أن أساليب الأمر التي جاءت في الثلاثة الأبيات السابقة ، لها علاقة وثيقة بالرثاء الذي هو تعبير عن مشاعر الحزن والحسرة لفقد عزيز ، وقد حملت هذه الأساليب ما يعتمل في نفس لبيد من أسى لفقد أخيه أربد وعوف بن الأحوص .

وجاء أسلوب الأمر على سبيل الحث والاستنهاض في قوله : [2]

انْـــعَ الْكَـــريمَ لِلْكَـــريمِ أرْبَـــدَا انْـــعَ الـــرَّئِيسَ وَاللَّطِيـــفَ كَبَـــدَا

ومفاد هذين الأمرين : (إنع الكريم ، إنع الرئيس) استمرار الإعلام بخبر موت أخيه أربد مرتبطاً بذكر محامده ومآثره .

وفي قوله : [3]

أُولئِـــكَ فـــابكي لا أبَـــا لَـــكِ وانْـــدُبي أبَـــا حـــازِمٍ فـــي كُـــلِّ يَـــوْمٍ مُـــذَكَّرِ

يريد أسلوب الأمر (فابكي – اندبي) الإلهاب والاستنهاض .

أما أسلوب النفي فقد اتخذه لبيد أسلوباً سلبياً بحيث ينفي عن نفسه الصفات الرديئة في قوله : [4]

وقُـــولا هـــوَ المـــرءُ الـــذي لا خليلَـــهُ أضـــاعَ، وَلا خـــانَ الصَّـــديقَ وَلا غَـــدَرْ

---

[1]- شرح ديوان لبيد ، ص ٢٣١ .
[2]- المصدر نفسه ، ص ١٦٤ .
[3]- المصدر نفسه ، ص ٥٣.
[4]- المصدر نفسه ، ص ٢١٤ .

فقد نفى لبيد عن نفسه تخليه عن الخليل في وقت الشدة ، وكذلك خيانته وغدره للأصدقاء ، وذلك حين طلب من ابنتيه أن تبكياه بعد موته وتذكرا مناقبه .

واستخدم لا (النافية للجنس) في قوله [1]

أحْمَـــدُ اللّـــهَ فَـــلا نِـــدَّ لَـــهُ بيَدَيْـــهِ الخَيـــرُ مـــا شـــاء فَعَـــلْ

كما استخدم لا (الناهية) في قوله : [2]

فَقُومـــا فَقُـــولا بالـــذي قَـــدْ عَلِمْتُمَـــا وَلا تَخْمِشَـــا وَجْهـــاً وَلا تحْلِقـــا شَـــعَرْ

نلاحظ في البيت أن لبيد كرر (لا الناهية) ليؤكد على حرصه بأن تلتزم ابنتاه بالآداب الإسلامية في البكاء عليه بعد موته ، ولا تفعلا العادات الجاهلية من لطم الوجه وحلق الشعر والنياحة عليه .

ومن الأساليب التي برزت في شعر الرثاء عند لبيد أسلوب الاستثناء الذي جاء به ليخدم القضية التي تؤرقه وتشغله وهي الفناء في قصيدته التي يرثي أخاه أربد فيقـــــول : [3]

بلينـــا ومـــا تبلـــى النجـــومُ الطّوالِـــعُ وتَبْقَـــى الجِبـــالُ بَعْـــدَنَا والمَصـــانِعُ

ويؤكد لبيد على المعنى الذي ذهب إليه باستخدام اسلوب الاستثناء المكون من (إلا) المسبوقة بـ (ما النافية) ، إذ يحاول من خلال استخدامه ذلك الأسلوب أن يُقرّ بفاعلية الدهـــر . [4]

ومَـــا النّـــاسُ إلاّ كالـــدّيار وأهْلُهـــا بهـــا يَـــوْمَ حَلُّوهـــا وغَـــدْواً بَلاقِـــعُ
ومَـــا المَـــرْءُ إلاَّ كالشِّـــهابِ وضَـــوْئِهِ يحـــورُ رَمَـــاداً بَعْـــدَ إذْ هُـــوَ ســـاطِعُ
ومَـــا البِـــرُّ إلاَّ مُضْـــمَراتٌ مِـــنَ التُّقَـــى وَمَـــا المَـــالُ إلاَّ مُعْمَـــراتٌ وَدائِـــعُ
ومَـــا المـــالُ والأهْلُـــونَ إلاَّ وَديعَـــةٌ وَلابُـــدَّ يَوْمـــاً أنْ تُـــرَدَّ الوَدائِـــعُ

---

[1]- شرح ديوان لبيد، ص ١٧٤ .
[2]- المصدر نفسه ، ص ٢١٣ .
[3]- المصدر نفسه ، ص ١٦٨ .
[4]- المصدر نفسه ، ص ١٦٩ – ١٧٠ .

قد استخدم لبيد بالإضافة إلى الاستثناء التكرار ، حيث كرر كلمة (ودائع) ثلاث مرات ليلح بذلك على الفكرة المتسلطة عليه والقضية التي تشغله وهي الفناء واستحالة الخلود .

ومن الأساليب التي برزت في شعر الرثاء عن لبيد بن ربيعة أسلوب الشرط ، وقد كشف استخدامه عن القضية التي تؤرق لبيد ، وتثير في نفسه الهموم ، وهي قضية الخلود التي أضحت ترنيمة (شغل) لبيد التي لا تفارق لسانه مع علمه المسبق والأكيد باستحالة تحقيقها ، فالدهر صاحب القرار وليس المرء ، مما جعله يميل إلى تأكيد كلامه عن طريق الشرط . في قوله : [1]

فَــلا جَــزِعٌ إنْ فَــرّقَ الــدّهْرُ بَيْنَنــا وكُــلُّ فتــىً يَوْمَــاً بــهِ الــدّهْرُ فــاجِعُ

ويقول رأيه في العلم بالغيب وما يظنه الناس في ضرب الحصى وزجر الطيــر ، مستخدماً منهجاً عقلياً فيها إشارة واضحة إلى سعة عقليته التي تتضح في ربطه الأسباب بالنتائج ، إذ يقول : [2]

لَعَمْــرُكَ مــا تَــدري الضَّــوَاربُ بالحصَــى وَلا زاجِــراتُ الطّيــرِ مــا اللّــهُ صــانِعُ

سَــلُوهُنَّ إنْ كَــذَّبتموني متــى الفتــى يــذوقُ المنايــا أوْ متــى الغيــثُ واقِــعُ

ومن أمثلة أسلوب الشرط في شعر الرثاء عند لبيد ، قوله في رثــاء أخيــه أربــد : [3]

كُــلّ بَنِــي حُــرّةٍ مَصِــيرُهُمْ قُــلّ وَإنْ أكْثَــرَتْ مِــنْ الْعَــدَدِ

إنْ يُغْبَطُــوا يَهْبِطُــوا وَإنْ أُمِــرُوا يَوْمًــا فَهُــمْ لِلْهَلَــاكِ وَالنّفَــدِ

فهو يتحدث عن الموت والحياة وتربص المنايا بالناس ، وكل قوم مهما كثروا فإن الموت يتخطفهم ويغدون عما قليل قلة مبعثرة جاعلاً ذلك في قالب من الحكمة المرتبطة بالشرط مما يؤكد رقي عقليته ونضجها .

---

[1]- شرح ديوان لبيد، ص ١٦٨ .
[2]- المصدر نفسه ، ص ١٧٢ .
[3]- المصدر نفسه ، ص ١٦٠ .

وقد جاءت أفعال الشرط في شعر الرثاء عند لبيد بن ربيعة معلومة ، وبذلك يكون المعنى أكثر وضوحاً ، والقصد أكثر فهماً ، وقد يأتي فعل الشرط ماضياً مبني للمعلوم كما في قوله : [1]

أعـــاذِلَ قـــومي فاعـــذُلي الآنَ أو ذري فَلَسْـــتُ وإنْ أقصَـــرْتِ عَنِّـــي بِمُقْصِـــرِ

فعل الشرط (أقصر) فعل ماضي مبني للمعلوم .

وقد يأتي فعل الشرط المبني للمعلوم مضارعاً ، كقولـه : [2]

وَسَـــلْمَى ، وسَـــلمَى أهـــلُ جـــودٍ ونائـــلٍ متـــى يـــدعُ مـــولاهُ إلـــى النصـــرِ ينصـــرِ

فجاء فعل الشرط (يدعو) مضارعاً مبني للمعلوم .

أما أفعال الشرط المبنية للمجهول ، فجأت ماضية ، في قوله : [3]

لَزَجَـــرْتُ قَلْبًـــا لا يَرِيـــعُ لزَاجِـــرٍ إنّ الْغَـــوِيّ إذَا نُهَـــا لَـــمْ يُعْتِـــبِ

أو يأتي مضارعاً ، كما في قوله : [4]

إنْ يُغْبَطُـــوا يُهْبَطُـــوا وإن أمِـــرُوْا يَوْمـــاً يصـــيروا للهُلْـــكِ والنَّكَـــد

إذ إن فعل الشرط (يغبط) فعل مضارع مبني للمجهول .

وفي ضوء ما سبق نلاحظ أن لبيد بن ربيعة استعان بأسلوب الشرط في تشكيله للمعانـــي ، وصياغته للأفكار ، وتلوينه للصور ، وإيراده للحكمة ، وانتقائه للمفردات ، وما استخدم لبيد لأفعال الشرط بالطريقة التي مرت ، إلا دليل على مقدرته

---

[1]- شرح ديوان لبيد ، ص ٤٦ .
[2]- المصدر نفسه ، ص ٥١ .
[3]- المصدر نفسه ، ص ١٥٦ .
[4]- المصدر نفسه ، ص ١٦٠ . يغبطوا : يموتون من غير مرض .

الشعرية وأسلوبه الحسن ، وما اختياره للأفعال المبنية للمعلوم إلا مؤشر على الوضوح في شعر الرثاء عنده ، ولربما جاء البناء للمجهول لتعميم الفاعل ، فيكون الحكم عندئذ عاماً لا خاصاً .

ونجد في شعر الرثاء عند لبيد بن ربيعه خصائص لفظية في تكوين عباراتـــــه ، ومن هذه الخصائص التذييل ، مما يكسب البيت حسناً وجمالاً ويقع في النفس موقع الحكمة الصائبة مثل قوله : [1]

واكـــــذِبِ الـــــنّفْسَ إذا حَـــــدّثْتَها إنّ صِـــدْقَ الـــنّفسِ يُـــزْري بالأمـــلْ

فكأنه في عجز البيت يقرر حقيقة عامة .

ومن الخصائص اللفظية في شعر الرثاء عند لبيد ، تحميله الكلمة معاني فوق دلالتها العامة ، وذلك مثل تصرفه بالإشارة حين يشير بالمفرد إلى الجميـــــع ،[2] في قوله : [3]

فـــإنْ تســـألِينا فـــيمَ نحـــنُ فإنّنَـــا عَصـــافيرُ مِـــنْ هـــذا الأنـــامِ المُسَـــحَّرِ

وجاءت في شعر الرثاء عند لبيد ألفاظ دقيقة موحية ، ونعني بالدقة : " إصابة المتكلم في اختيار الكلمات التي تكون نصاً في المعنى المراد ، والتي تكون أشد دلالة على غرضه من الكلمات الأخرى التي قد تؤديه " [4]. أما الإيحاء فمعناه قدرة اللفظ على " أن يثير في النفس معاني كثيرة تحيط به غير مدلوله اللغوي " [5] وإذا تحققت

---

[1]- شرح ديوان لبيد ، ص ١٨٠ .
[2]- انظر لبيد بن ربيعه العامري ، ص ٤٧١ .
[3]- شرح ديوان لبيد ، ص ٥٦ .
[4]- في النقد الأدبي عند العرب ، د. محمد طاهر درويش ، مكتبة الشباب ، القاهرة ، د ط ، ١٩٧٦ م ، ص ١٨٤ .
[5]- اتجاهات النقد في القرن الخامس الهجري ، د. منصور عبد الرحمن ، دار العلم ، القاهرة ، د ط ، ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م ، ص ١١٣ .

الدقة والإيحاء في اللفظ فهو " اللفظ الأنيق الرشيق – الذي – يؤثر في العقول والقلوب تأثيراً شديداً أو يزيد من قدرة المعنى " [1] .

وذلك مثل قوله في رثاء أخيه أربد : [2]

فراقُ أخٍ كان الحبيب فَفَاتَنِي وَ وَلَّى بهَ رَيبُ المَنونِ فَأسرَعا

فلفظة (أخ) دقيقة في استخدامها موحية بمعان كثيرة منها : أن الأخ يحمل معنى الرحمة ، وصلة الرحم ، والتعاون وغير ذلك .

عيوب شعر الرثاء عند لبيد :

قلما سلم شاعر جاهلي أو متأخر من نقد النقاد ، من وجود السقط و اللغو والتلفيق في شعره . فقد جاء في شعر الرثاء عند لبيد بن ربيعه بعض العيوب وسقط الكلام ، إلا أن هذا قليل جداً فقد عيب عليه في قصيدته التي يرثي بها أخيه أربد قولـــه : [3]

وَمَقـــامٍ ضَـــيّقٍ فَرّجْتُـــهُ بِمَقَـــامي ولِســـاني وَجَـــدَلْ
لَـــوْ يَقُـــومُ الفِيـــلُ أوْ فَيّالُـــهُ زَلّ عَـــنْ مِثْـــلِ مَقَـــامي وَزَحَـــلْ

قال ابن قتيبه : " ليس للفيال من الخطابة والبيان ولا من القوة ما يجعله مثلاً لنفســـه ، وإنما ذهب إلى أن الفيل أقوى البهائم فظن أن فياله أقوى الناس " [4] .

وأخذ عليه أيضاً قوله : [5]

فَقُومـــا فَقُـــولا بالـــذي قَـــدْ عَلِمْتُمَـــا وَلا تَخْمِشَـــا وَجْهـــاً وَلا تحْلِقـــا شَـــعَرْ

فقد عاب عليه أنه نزل عند الضرورة فسكن منصوباً (شعر) وكان عليه أن يقول (شعراً) والضرورة لا تجبر شاعراً فحلاً كلبيد .

---

[1]- النقد الأدبي (ضمن كتاب البلاغة والنقد) ،د.عبد الباسط بدر ، مطابع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض ، ط١، ١٤١١ هـ ، ص١٢٢ .
[2]- شرح ديوان لبيد ، ص ١٧٣ .
[3]- المصدر نفسه ، ص ١٩٣ – ١٩٤ .
[4]- الشعر والشعراء ، ١/ ٢٨١ .
[5]- شرح ديوان لبيد ، ص ١٩٣ – ١٩٤ .

المبحث الرابع

- الموسيقى

- الموسيقى الخاريجة
- الموسيقى الداخلية

الموسيقى :

للموسيقى أهمية كبيرة في بناء الشعر العربي ، لأنها إحدى العناصر الرئيسية التي تمنح الشعر مكانته ، وتعطيه طبيعته الخاصة ، بل هي السبب الرئيسي في التفريق بين الشعر والنثر ؛ لأن الموسيقى " وعاء الشعر الذي يتخلق في حناياه " [١] كما أنها تُعدّ من أقوى وسائل الإيحاء في التعبير عن كل ما هو عميق وخفي في النفس مما لا يستطيع الكلام التعبير عنه[٢] . فهي " توحي بما لا يستطيع القول أن يشرحه " [٣] ويستطيع القارئ أول المتلقي أن " يقف من خلال موسيقى الشعر على أبعاد العملية الشعرية ، من نفسية ذاتية ولفظية وفكرية " [٤] و " ليس من شكٍ في أن جانباً هاماً للتجربة في الشعر مصدره الصوت والنغم " [٥] .

وعلى هذا سوف ندرس موسيقى شعر الرثاء عند لبيد بن ربيعة بقسميها ، الموسيقى الخارجية المتمثلة في الوزن والقافية ، والموسيقى الداخلية المتمثلة في الإيقاع الداخلي .

أولاً : الموسيقى الخارجية

تتمثل في الوزن والقافية ، حيث يؤلف الوزن مع القافية وحدة موسيقية تامة في الشعر [٦] " فموسيقى الشعر متمثلة في أوزانه وقوافيه ، هي سمته الواضحة التي لا غموض فيها ولا إيهام ، وهي التي تضيف إلى الكلمات حياة فوق حياتها ، وهي تصل بمعاني الشعر إلى قلوبنا بمجرد سماعة " [٧] .

---

[١] فصول في الشعر ونقده ، شوقي ضيف ، دار المعارف القاهرة ، د ط ، ١٩٧١م ، ص٣٠١ .
[٢] انظر : عن بناء القصيدة العربية الحديثة ، علي عشيري زايد ، مكتبة الرشد ، الرياض ، ط ٥ ، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٣م ، ص ٥٤ .
[٣] النقد الأدبي الحديث ، ص ٤٣٥.
[٤] رثاء الأبناء في الشعر العربي إلى نهاية القرن الخامس الهجري ، ص ١٨٦.
[٥] قضايا النقد الأدبي بين الحديث والقديم ، ص ٣٠٥.
[٦] رثاء الأبناء في الشعر العربي إلى نهاية القرن الخامس الهجري ، ص ١٩٦.
[٧] في النقد الأدبي ، عبدالعزيز العتيق ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٧٢م ، ص ١٧١.

الوزن :

كثيراً ما تحدث النقاد عن قضية تعد من أعقد القضايا النقدية التي لم يستقر النقد فيها على رأي أو قرار وهي العلاقة بين الوزن الشعري أو البحر العروضي وموضوع القصيدة[١] . حيث أشار أبو هلال العسكري إلى هذا الربط بينهما بقولـــه : " إذا أردت أن تعمل شعراً فأحضر المعاني التي يريد نظمها فكرك ، وأخطرها على قلبك واطلب لها وزناً يتأتى فيه إيرادها وقافية يحتملها ، فمن المعاني ما نتمكن من نظمه في قافية ولا تتمكن من أخرى ، أو تكون هذه أقرب طريقاً وأيسر كلفة منه في تلك " [٢] .

وفصل القرطاجني في هذه القضية حيث قال : " ولما كانت أغراض الشعر شتى وكان منها ما يقصد به الجد والرصانة وما يقصد به الهزل والرشاقة ، ومنها ما يقصد به البهاء والتفخيم ، وما يقصد به الصغار والتحقير ، وجب أن تحاكي تلك المقاصد بما يناسبها من الأوزان ويحيلها للنفوس " [٣] ، ثم يوغل في هذه القضية حتى يجعل الأمر أكثر تخصيصاً عندما يحدد الأغراض اللائقة لكل بحر . أما البحور اللائقة للرثاء فمنها : المديد والرمل إذ يقول : "ولما في المديد والرمل من اللين كانا أليق بالرثاء " [٤]

ويرى يوسف بكار أن حازم القرطاجني ، لم يكن على قدر كبير من التخصيص إذ يقول : " إن القضية عند حازم القرطاجني لم تكن على قدر كبير من التخصيص فهو لم يذكر مثلاً الموضوعات التي يناسبها كل وزن من الأوزان " [٥] ، ولعل ما يرد على يوسف بكار تفصيل حازم القرطاجني لهذه القضية في موضع آخر ، إذ يقول :

---

[١] بناء القصيدة ، ص ٣٦٣ .
[٢] الصناعتين ، ص ١٤٥.
[٣] منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، ص ٢٦٦ .
[٤] المصدر نفسه ، ص ٢٦٩ .
[٥] بناء القصيدة ، ص ٢١٧ .

"وأما المقاصد التي يقصد فيها إظهار الشحوب والاكتئاب فقد تليق فيها الأعاريض التي فيها حنان ورقة ، وقلما يخلو الكلام (الرقيق) من ضعف مع ذلك ... لأن المقصود حسب هذا الغرض أن تحاكي الحال الشاحبة بما يناسبها من لفظ ونمط تأليف ووزن فكانت الأعاريض التي بهذه الصفة غير منافية لهذا الغرض وذلك نحو المديـــد "[1].

ويرى الباحث أن حازم القرطاجني بالغ في ذلك ، لأنك إن نظرت في الشعر العربي وجدت تناقضاً موضوعياً في استخدام هذه البحور ، إذ قد يكون أحد البحور ميزاناً لقصائد المدح أو الفخر أو الحماسة ، وقد يكون ميزاناً لقصائد الرثاء والشكوى والغزل .

ومن خلال اطلاعنا على شعر الرثاء عند لبيد بن ربيعة نلاحظ أنه جاء مرة واحدة على بحر الرمل ولم يأت على بحر المديد ، على حين نظم من الطويل ٨ قصائد والرجز ٤ قصائد والكامل ٣ قصائد ومجزوء الكامل ٣ قصائد والوافر ٢ والمنسرح ١ وذلك من ٢٢ مرثية هي مجموع المراثي في ديوان لبيد ، مما يدل هذا قلة صلاحية المديد والرمل للرثاء .

وقد تبين لنا من خلال إطلاعنا على شعر الرثاء عند لبيد بن ربيعة ، عدم صحة تعميم ما قاله الدكتور إبراهيم أنيس إن : " الشاعر في حالة اليأس والجزع ، يتخير عادةً وزناً طويلاً كثير المقاطع يصف فيه من أشجانه ما ينفس عنه حزنه وجزعه وإذا قيل الشعر وقت المصيبة والهلع ، تأثر بالانفعال النفسي وتطلب بحراً قصيراً يتلائم مع سرعة التنفس وازدياد النبضات القلبية "[2] ، حيث نظم لبيد القصائد القصيرة والمقطوعات على البحر الطويل والكامل والوافر ، كما نظم لبيد قصائد طويلة على تلك البحور .

---

[1] منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، ص ٢٠٥ .

[2] موسيقى الشعر ، إبراهيم أنيس ، مكتبة الإنجلو المصرية ، القاهرة ، ط ٤ ، ١٩٧٢ ، ص ١٧٧-١٧٨ .

ومع ذلك فإن الباحث لا ينفي وجود علاقة بين البحر ودرجة العاطفة ، فالشاعر يقول قصيدة وهو في حالة هيجان وغضب فإنه يضع لها بدون قصد بحراً سريعاً . أما إذا كان في حالة استقرار نفسي وارتياح فإنه يقع على بحر هادئ ينفس فيه حزنه .

القافية :

هي شريكة الوزن في الاختصاص بالشعر بل أن الوزن كما يقول ابن رشيـق " جالب لها بالضرورة " [١] ، فلا يسمى الشعر شعراً حتى يكون له وزن وقافية [٢] وهي " التي يقوم عليها الوزن " [٣] ؛ لأنها ملتقى الحركات والسكنات[٤] ، ويمكن تعريفها بأنها " عدة أصوات تتكرر في أواخر الأسطر أو الأبيات من القصيدة ، وتكرارها هذا يكون جزءًا هاماً من الموسيقى الشعرية ، فهي بمثابة الفواصل الموسيقية يتوقع السامع ترددها ، ويستمتع بمثل هذا التردد الذي يطرق الأذان في فترات زمنية منتظمة " [٥] .

وللقافية علاقة بالناحية الشعورية ، إذ يقول القرطاجني : " أما ما يجب في القافية من جهة عناية النفس بما يقع فيها واشتهار ما تتضمنه مما يحسن أو يقبح فإنه يجب ألا يوقع فيها إلا ما يكون له موقع من النفس بحسب الغرض " [٦].

وقد توافقت القافية في شعر الرثاء عند لبيد بالحالة الشعورية والغرض الشعري ففي رثائه أخاه أربد التي مطلعها [٧] :

قَـضّ اللُبانَـةَ لا أبَـا لَـكَ واذّهَـبِ وَالْحَـقْ بأُسْـرَتِكَ الكِـرامِ الغُيّـبِ

---

[١] العمدة ، ٢١٨/١ .
[٢] المصدر نفسه ، ص ٢٤٣/١ .
[٣] موسيقى الشعر العربي (مشروع دراسة) ، د. شكري عياد ، دار المعرفة ، القاهرة ، ط ٣ ، ١٩٧٨م ، ص ١١٥ .
[٤] انظر : فصول في الشعر ونقده ، ص ٣١ .
[٥] موسيقى الشعر ، ص ٢٤٦ .
[٦] منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، ص ٢٧٥-٢٧٦ .
[٧] شرح ديوان لبيد ، ص ١٥٣ . اللبانة : بقية الحاجة . لا أبالك : دعاء عليه . أسرته : قومه . الغيب : الذين قد غابوا عنه .

فقد اختار لبيد قافية " الباء " المطلقة التي تجسد معاناة لبيد كما تسهم حركة " الكسر " في إبراز حالة الانكسار بعدما فقد أخاه أربد الذي قام على تربيته وتنشئته بعد فقد أبيه عند طفولته .

وفي قصيدة رثائه لأهله وعشيرته التي مطلعها[1] :

أعاذِلَ قومي فاعذُلي الآنَ أو ذري فَلَسْتُ وإنْ أقصَرْتِ عَنِّي بِمُقْصِرِ

حيث تجسد القافية المجرورة مدى الأسى الذي يعانيه لبيد بعد ما فقد أهله وعشيرته ، يضاف إلى حرف " الراء " الذي يتميز بتردده عند النطق ، ليزيد من إظهار الأسى .

ونجد القوافي المجرورة أيضاً للتعبير عن الأسى واللوعة بعد فقده لأخيه أربد في قوله[2] :

ما إنْ تُعَرّي المَنُونُ مِنْ أحَدِ لا والِدٍ مُشفِقٍ وَلا ولَدِ

وفي رثائه لأخيه أربد التي مطلعها[3] :

يا مَيّ قومي في المَآتِمِ وَانْدُبي فتىً كانَ ممّن يَبتني المَجدَ أرْوَعَا

حيث اختار قافية " العين " المطلقة ، بالألف التي تبدي مدى الأسى الذي يعانيه لبيد ومدى حرقته على فقد أخيه أربد .

كما جاءت قافية " العين " في رثائه لأخيه أربد في قوله[4] :

بلينا وما تبلى النجومُ الطّوالِعُ وتَبْقَى الجِبالُ بَعْدَنَا والمَصانِعُ

حيث عبر عن الأسى واللوعة بحرف حلف مطلق ، مجسداً إحساساً بيناً بمعاني العويل والفجيعة .

---

[1] شرح ديوان لبيد ، ص ٤٦ .
[2] المصدر نفسه ، ص ١٥٨.
[3] المصدر نفسه ،ص ١٧٣.
[4] المصدر نفسه ، ص ١٦٨.

وفي قصيدة رثاء أخيه أربد " الدالية " التي مطلعها[١] :

لـــــنْ تفنيَـــــا خيـــــراتِ أرْ بـــــدَ فابكِيَـــا حتّـــى يعـــودَا

اختار لبيد قافية " الدال " المطلقة التي تعكس شدة وقع المصيبة على نفس لبيد كما أن مجيء حرف المد الواو قبل الدال وألف الإطلاق بعد الدال تشكل أصوات الندب فهي تشبع الحزن في نفس الراثي وتعبر عن نفس الشاعر الملتاعة [٢] ، فقافية هذه القصيدة تضم الواو والدال والألف ، أما حرف الواو والألف فهما حرف مد ، واشتمال القافية على حرف مد أو أكثر يشكل موسيقية خاصة [٣] .

فبالرغم من أن الشعراء نظموا أغلب المراثي على القوافي المطلقة ، وابتعدوا عن القوافي المقيدة جهد الإمكان ، معللين ذلك بأنها توحي بالجفاف والصمت والسكون على كل شيء[٤] . إلا أن القافية المقيدة قد تتماشى مع حركة نفس الشاعر ، فتكون أقدر على توصيل انفعال الشاعر من القافية المطلقة ، ويمكن القول أن الشاعر لا يقرر مقدماً قافية قصيدته ، لكن ذلك يأتي عفو الخاطر ، فتطلق هذه القافية من داخلة بغير اختياره وتتصل بأسلة لسانه ، فيستقبلها المتلقي ، فالقافية الجيدة هي القافية القادرة على إيصال انفعال الشاعر وتجسيده ، سواء كانت قافية مطلقة أو قافية مقيدة وإذا كانت القوافي المقيدة قد وصفت بالجفاف والصمت والسكون ، فإن هذه الصفات الثلاث قد يشعر بها الشاعر المحزون ويود التعبير عنها فتكون القافية المقيدة قادرة على التعبير عن هذه الانفعالات [٥] . كما فعل لبيد بن ربيعة في رثائه لنفسه في قوله[٦] :

---

[١] شرح ديوان لبيد ، ص ١٦٣ .
[٢] انظر : رثاء الأبناء في الشعر العربي إلى نهاية القرن الخامس الهجري ، ص ١٩٧ .
[٣] موسيقى الشعر العربي ، ص ٩٥ .
[٤] انظر : الرثاء في الشعر الجاهلي وصدر الإسلام ، ص ٢٤٨ .
[٥] قصيدة الرثاء عند ابن الرومي ، وفاء عمر الفوتي ، رسالة ماجستير ، جامعة أم القرى ، كلية اللغة العربية ، ص ٢٥٤ .
[٦] شرح ديوان لبيد ، ص ٢١٣ .

تَمَنّـــى ابنَتَـــايَ أنْ يَعـــيشَ أبُوهُمـــا وهـــلْ أنـــا إلاَّ مـــن ربيعـــةَ أوْ مضـــرْ

فقُومـــا فقُـــولا بالـــذي قـــدْ علِمْتُمَـــا وَلا تَخْمِشَـــا وَجْهـــاً وَلا تحْلِقـــا شَـــعَرْ

وقُـــولا هـــوَ المـــرءُ الـــذي لا خليلَـــهُ أضـــاعَ، وَلا خـــانَ الصَّـــديقَ وَلا غَـــدَرْ

إلـــى الحَـــوْلِ ثـــمَّ اســـمُ السّـــلاَمِ علَيكُمـــا وَمَـــنْ يَبْـــكِ حَـــوْلاً كـــاملاً فقَـــدِ اعتـــذرْ

حيث استطاع لبيد أن يوثق العلاقة بين القافية المقيدة والإيحاء بالصمت والسكون ، فمجيء هذه القصيدة من البحر الطويل الذي يمتاز بتفاعليه الكثيرة وتزاحم حروف المد في هذه القصيدة ، قد أسهم ذلك إسهاماً كبيراً في إيصال ما يحسه لبيد بالإضافة إلى القافية المقيدة ، التي تعبر عن عجز كل محاولاته وزفراته وآهاته في إيصال ألمه ، فلا يبقى إلا الصمت والسكون ، ولا يرى أمامه إلا الفنـاء المحتمـل كما أن تعبير لبيد (فلا تخمشا وجهاً ولا تحلقا) يعبر عن روح الهدوء والسكينة التي غشيت لبيد ، وتلك اللحظات الوادعة التي سربلته ، فهو لا يريد للأشياء أن تتغير معالمها الهادئة وأن مواجهة الموت لا تكون بتلك الصورة من العويل والتشويه وتغيير معالم الأشياء ، إنه يريد أن يمضي إلى عالم الموت بهـــدوء . كمـــا أن تعبيـــره (اسم السلام عليكما) يشعرنا بحالة الهدوء والسكون التي يود لبيد أن تتم لحالة مراسـم دفنه [1] .

وما جاء من قصائد الرثاء عند لبيد مقيداً فإن أغلبها ورد في باب التفكير والتأمل. فلبيد تدبر وتأمل في حياته الجديدة بعد دخوله في الإسلام ووجد أن مفتاح الهداية هي تقوى الله كما في قوله [2] :

إنَّ تَقْـــوَى رَبّنَـــا خَيـــرُ نَفَـــلْ وبـــإذْنِ اللّـــهِ رَيْثـــي وعَجَـــلْ

أحْمَـــدُ اللّـــهَ فَـــلا نِـــدَّ لَـــهُ بيَدَيْـــهِ الخَيـــرُ مـــا شـــاء فَعَـــلْ

مَـــنْ هَـــداهُ سُـــبُلَ الخَيـــرِ اهْتَـــدَى نـــاعِمَ البَـــالِ ومَـــنْ شَـــاءَ أضَـــلْ

[1] رثاء النفس في الشعر العربي ، ص ٣٨-٣٩ .
[2] شرح ديوان لبيد ، ص ١٧٤ .

حيث تبرز لنا معاني الهدوء والسكون من خلال (من هداه سبل الخير اهتدى ناعم البال) قادته هذه الهداية إلى السكون والراحة مما ألجأه إلى تسكين قافيته وتقيدها كتقيد السكون والهداية .

كما نلمح اجترار الأحزان وتأملها في قوله عند ما رثى أهله وعشيرته [١] :

أصْـبَحْتُ أمْشـي بَعْـدَ سَـلْمى بـن مالـكٍ وبَعْـدَ أبـي قـيسٍ وعُـرْوَةَ كالأجَـبّ

يضـجُّ إذا ظـلّ الغُـرابِ دَنَـا لَـهُ حِـذاراً علـى بـاقي السّنَاسِـنِ والعَصَـبْ

حيث تدبر لبيد وتأمل في حياته السابقة برفقة أهله وعشيرته ، وما آل إليه بعد ما فقدهم من ضعف وشعور بالوحشة ، وهذا التأمل أفضى بالشاعر إلى حالة الشدة والتأزم ، وطبيعة التجربة القاسية التي يعشيها لبيد ، وهو يفقد أهله وعشيرته ، وهذا ما أفصحت عنها قافية الباء المقيدة .

والشعر لا يكون مقفى " إلا إذا اشتمل على الروي وتكرر في جميع الأبيات فالروي فيه من التمكن ما ليس في غيره من الحروف اللازمة في القوافي " [٢] .

فإذا كانت القافية ، فاصلة موسيقية فإن الروي آخر صوت تتألف من الفاصلة [٣] ومن هنا عده بعضهم القافية نفسها ، ومن هؤلاء ابن عبدربه صاحب العقد الفريد[٤]. وبإطلاعنا على شعر الرثاء عند لبيد بن ربيعة تطابق ما ذكره المعري [٥] ، وما توصل إليه الدكتور إبراهيم أنيس في دراسته لحروف الروي في الشعر العربي من شيوع نوع معين من حروف الروي مثل : الراء والدال واللام والنون والعين والميم ، وندرة مجيء حروف أخرى مثل : الذال والفاء والظاء والزاي والهاء ، معللاً ذلك بأنه " لا تعزى كثرة شيوعها أو قلتها إلى ثقل في الأصوات أو خفه بقدر ما تعزى إلى ورودها في أواخر كلمات اللغة " [٦] ، حيث لم يأت حرف الروي في شعر الرثاء عند من تلك الحروف النادرة .

---

[١] شرح ديوان لبيد ، ص١ .

[٢] القافية في العروض والأدب ، حسين نصار ، دار المعارف ، القاهرة ، د ط ، ١٩٨٠م ، ص ٤١.

[٣] رثاء الأبناء في الشعر العربي إلى نهاية القرن الخامس الهجري ، ص ١٩٦.

[٤] العقد الفريد ، ٤٩٦/٥.

[٥] انظر : لزوم ما يلزم ، أبو العلاء أحمد بن عبدالملك بن سليمان المعري ، تحقيق : ابراهيم الأبيار ، دار الكتاب المصري ، القاهرة ، د ط ، ١٩٨٢م ، ٣٩/١

[٦] موسيقى الشعر ، ص٣٤٤.

الموسيقى الداخلية :

إن وراء الوزن والقافية " موسيقى خفية تنبع من اختيار الشاعر لكلماته وما بينهما من تلاؤوم في الحروف والكلمات ، فكأن للشاعر أذناً داخلية وراء أذنه الظاهرة تسمع كل شكلةٍ وكل حرف وحركة بوضوح تام ، وبهذه الموسيقى الخفية يتفاضل الشعر " [١] .

وتبرز هذه الموسيقى الداخلية عند لبيد في عدة أنواع :

التصريع :

وهو " جعل العروض مقفاة تقفية الضرب " [٢] ، وقد بين حازم القرطاجني أهميته وقيمته ، إذ يقول : " للتصريع في أوائل القصائد طلاوة وموقع من النفس للاستدلال به على القافية قبل الانتهاء إليها ، ولمناسبة تحصل لها بازدواج صيغتي العروض والضرب " [٣] ، وقد اجتهد الشعراء القدامى في أن تكون مطالع قصائدهم مصرعه حتى ألفت النفوس ذلك ، وأصبح سامع الشعر يترقب أن يكون آخر المصراع الثاني في المطلع مشبهاً آخر المصراع الأول منه [٤] ، ويحقق باستخدامه تناسقاً في البنية الشعرية فيجعل ألفاظ القصيدة أشد تماسكاً ، ويساهم في زيادة موسيقى البيت مما يحسن من موقعه في الاستماع .

وقد استخدم لبيد التصريع في شعر الرثاء وغالباً ما يجيء في مطالع قصائده .

ومن ذلك رثاؤه لعمه أبي البراء مالك بن عامر ، في قوله [٥] :

ثُومـــا تَجُوبـــانِ مَـــعَ الأنْـــوَاح فـــي مـــأتَمٍ مُهَجِّـــرِ الـــرّوَاح

---

[١] في النقد الأدبي ، ص٩٧ .
[٢] بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة ، عبدالمتعال الصعيدي ، مكتبة الآداب ، الرياض ، د ط ، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م ، ٨٦/٤ .
[٣] منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، ص ٢٨٣ .
[٤] انظر : الإيضاح في علوم البلاغة ، للخطيب القزويني ، شرح وتعليق : عبدالمنعم خفاجي دار الجيل ، بيروت ، ط٣ ، ١٩٩٣م-١٤١٤هـ ٨٤/٣ .
[٥] شرح ديوان لبيد ، ص ٣٣٢ .

وفي رثائه لأخيه أربد إذ يقول [1] :

مـــا إنْ تُعَـــرّي المَنُـــونُ مِـــنْ أحَـــدِ لا والِـــــدٍ مُشـــــفِقٍ وَلا ولَـــــدِ

وأيضاً في رثائه لأخيه أربد في مطلع القصيدة في قوله [2] :

بلينـــا ومـــا تبلـــى النجـــومُ الطّوالِـــعُ وتَبْقَـــى الجِبـــالُ بَعْـــدَنَا والمَصـــانِعُ

ويقول أيضاً في رثائه لأخيه مصرعاً في مطلع القصيدة [3] :

إنَّ تَقْـــوَى رَبّنَـــا خَيـــرُ نَفَـــلْ وبـــإذْنِ اللّـــهِ رَيْثـــي وعَجَـــلْ

ومن " عادة الشعراء أن يصرعوا في مطالع قصائدهم ، لا سيما الطويل منها وإلا فإنها تفقد النغمة الموسيقية التي يألفها الشاعر ويحرص عليها ، بل كان بعضهم يصرع أكثر من مرة في القصيدة الواحدة " [4] ، وهذا ما نجده في قصيدة رثاء لبيد للنعمان بن المنذر ، حيث يقول [5] :

ألا تَسْـــألانِ المَـــرْءَ مـــاذا يُحَـــاوِلُ أنَحْـــبٌ فيُقضَـــى أمْ ضَـــلالٌ وباطِـــلُ

ويقول [6] :

ألا كُـــلُّ شَـــيْءٍ مَـــا خَـــلا اللّـــهَ بَاطِـــلُ وكُـــلُّ نُعَـــيْمٍ لا مَحَالَـــةَ زَائِـــلُ .

وقد يأتي التصريع عند لبيد – أحياناً – في ثنايا قصيدة الرثاء ، ومن ذلك قصيدته في رثائه لأخيه أربد التي يصرع في ثناياه ، إذ يقول [7] :

دَعـــا أرْبَـــداً داعٍ مُجيبـــاً فأســـمعَا ولـــمْ يســـتطعْ أنْ يســـتمرّ فيمنعَـــا

رد إعجاز الكلام :

---

[1] شرح ديوان لبيد ، ص١٥٨ .
[2] المصدر نفسه ، ص ١٦٨ .
[3] المصدر نفسه ، ص١٧٤ .
[4] شعر بني أمية في الأندلس حتى نهاية القرن الخامس الهجري ، جمع وتوثيق ودراسة : د.السيد أحمد عمارة ، مكتبة المتنبي ، الدمام ، ط ٢ ، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م ، ص ١٧٧ .
[5] شرح ديوان لبيد ، ص٢٥٤ .
[6] المصدر نفسه ، ص٢٥٦ .
[7] المصدر نفسه ، ١٧٣ .

هو أحد ألوان البديع ، ويتلخص باجتماع لفظين متجانسين أو مكررين يجيء الأول في صدر البيت أو حشوه ، والثاني في نهايته ، ومن شأنه أن يربط بين أجزاء البيت أو الكلام ، ويعين على تذكره ، وحفظه ويؤدي إلى تقريره ، وبيانه والتدليل عليه [1] ، فضلاً عما يحمله من إيقاع موسيقي يجذب السامع [2] .

وابن المعتز أول من تحدث عنه وقسمه إلى ثلاثة أقسام [3] :

القسم الأول : ما وافق آخر كلمة في البيت آخر كلمة من نصفه الأول مثل قول لبيد بن ربيعة [4] :

ومَـــا المـــالُ والأهْلُـــونَ إلاّ وَديعَـــة وَلابُـــدّ يَوْمـــاً أنْ تُـــرَدّ الوَدائِـــعُ

القسم الثاني : ما وافق آخر كلمة في البيت ، أول كلمة من نصفه الأول ، مثل قول لبيد بن ربيعة [5] :

حَبَائِلُـــــهُ مَبْثُوثَـــــةٌ بسَـــــبيلِهِ وَيَقْنَـــى إذَا مَـــا أخْطَأتْـــهُ الْحَبَائِـــلُ

القسم الثالث : ما وافق آخر كلمة في البيت بعض ما فيه ، مثل قول لبيد بن ربيعة [6] :

فمتـــــى أهْلِـــكْ فـــــلا أحْفِلُـــــهُ بَجَلَـــي الآن مـــن العـــيش بَجَـــلْ

وتناول هذا اللون عدد من نقاد الأدب الذين جاؤوا بعد ابن المعتز منهم : أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ)[1] ، وابن رشيق القيرواني (ت ٤٥٦هـ)، وأطلق عليه

---

[1] البديع في ضوء أساليب القرآن الكريم ، عبدالفتاح لاشين ، دار المعارف ، ط١ ، ١٩٧٩م ، ص١٧٣ .
[2] الألوان البديعية ، حمزة زغلول ، دار الطباعة المحمدية ، ط١ ، ١٤٠١هـ ١٩٨٠م ، ص١٦٩ .
[3] البديع ، عبدالله بن المعتز ، تحقيق : أغناطيوس ، دار الحكمة ، دمشق ، د ط ، د ت ، ص٤٧ وما بعدها . انظر شعر القرى قبل الإسلام ، ص ٢٦١ .
[4] شرح ديوان لبيد ، ص ١٧٠ .
[5] المصدر نفسه ، ص ٢٥٤ .
[6] المصدر نفسه ، ص١٩٧ .

باب التصدير[٢] ، وابن منقذ (ت ٥٨٤هـ) ، وأطلق عليه باب الترديد[٣] ، والخطيب القزويني (ت ٧٣٩هـ) ، وأطلق عليه رد العجز على الصدر[٤] ، وبهذا الاسم اشتهر هذا اللون في الدراسات البلاغية الحديثة [٥] .

الجناس :

عرفه البلاغيون بأنه : تشابه الكلمتين في النطق واختلافهما في المعنى[٦] ، وجعلوه نوعاً من أنواع البديع اللفظي ، ويعد من أهم أنواعه ، لما يتصف به من جرس إيقاعي عال يتضح من خلال ترديد الحروف وتقابل الألفاظ المتشابهة ، يعينه على أداء وظيفته في خدمة المعنى " وهي أن يفي بالمعنى المقصود ، وأن يضفي على المجال المذكور فيه لوناً من الإيقاع ، يتناسب معه ويتناغم مع مضمونه " [٧] ، ويحمل الجناس عنصر لمفاجأة وخداع الأفكار ، حيث أشار الإمـــام عبدالقاهـــر إلى ذلك في قولـه : " كأنه يخدعك عن الفائدة وقد أعطاها ، ويوهمك كأنه لم يزدك وقد أحسن الزيادة ووفاها " [٨] ، وخير الجناس هو الذي يستوعب المعنى ، ويأتي على غير قصده من المتكلم إلى إختلابه ، وتأهب لطلبه [٩] ، فهو – أي الجناس – يتطلب من الأديب أو الشاعر مهارة وبراعة لا يقدر عليها إلا من وهب حاسة مرهفة في التذوق الموسيقي للفظة [١٠] .

وقد ظهر الجناس في شعر الرثاء عند لبيد لوناً واضحاً من ألوان نغمة الشعر ولم يكن فيه متكلفاً متصنعاً بل كان يظهر دون أن تبدوا عليه آثار الجهد والافتعال

---

[١] الصناعتين ، ص ٣٨٥ .
[٢] العمدة ، ٥٦٠/١ .
[٣] البديع في نقد الشعر ، ص ٨٥ .
[٤] الإيضاح ، ١٠٢/٦ .
[٥] انظر : بغية الإيضاح ، ٧٧/٤ ، الألوان البديعية ص ١٦٩-١٧٠ ، شرح الكافية البديعة ، صفي الدين الحلي ، تح نسيب نشاوي ، مطبوعات مجمع اللغة العربية ، دمشق ، د ط ، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م ، ص ٨٢ .
[٦] انظر : الإيضاح ، ٩٠/٦ .
[٧] البديع في شعر شوقي ، د.منير سلطان ، منشأة المعارف ، مركز الدلتا للطباعة ، د ط ، د ت ، ص ١١٥ .
[٨] أسرار البلاغة ، الإمام أبي بكر عبدالقاهر بن عبدالرحمن بن محمد الجرجاني ، قرأه وعلق عليه : محمود محمد شاكر ، دار المدني ، جدة ، ط١ ، ١٤١٢هـ-١٩٩١م ، ص٨ .
[٩] المصدر نفسه ، ص ١١ .
[١٠] موسيقى الشعر ، ص٤٥ .

فيجيء عفواً ويأتي مطبوعاً ؛ لأن الشعر العربي في ذلك الزمن الذي عاش فيه لبيد لا يزال على جانب كبير من فطرته التي كان عليها في الجاهلية .

وقد ظهر هذا الفن البديعي في ثنايا بعض الأبيات ، ومما جاء منه الجناس الناقص وهو اختلاف الكلمات في أعداد الحروف ، مثل قوله في رثائه لأخيه أربد [1] :

فـــودِّعْ بالسَّـــلام أبَـــا حُزيـــز وقـــلَّ وداعُ أرْبَـــدَ بالســـلامِ

فبين "ودع وداع " جناس ناقص جاء من زيادة حرف الكلمة الثانية ، وهذا الجناس يستميل المتلقي إلى الإصغاء بما فيه من تكرار للوحدات الصوتية المتماثلة ومجيء هذا الجناس عزز الإيقاع الصوتي في البيت ، وذلك بما أحدثه من نغمة صوتية ، نتجت من تماثل الكلمتين في تشكيلها الصوتي .

كما جاء بالجناس اللاحق ، في قوله [2] :

ومَـا البِـرُّ إلاّ مُضْـمَراتٌ مِـنَ التُّقَـى وَمَـا المَـالُ إلاّ مُعْمَـراتٌ وَدائِـعُ

فالموسيقى الداخلية نابعة من التشابه في إيقاع اللفظتين " مضمرات ومعمرات " المتجانستين تجانساً لاحقاً ، لأن الحرفين المختلفين متباعدان في المخرج .

وجاء بالجناس المضارع ، في قوله [3] :

إنْ يُغْبَطُـوا يُهْبَطُـوا وإن أمِـرُوْا يَوْمـاً يصـيروا للهُلْـكِ والنَّكَـد

فالموسيقى نابعة من التشابه في إيقاع اللفظتين " يغبطوا ويهبطوا " المتجانستين تجانساً مضارعاً ، لأن الحرفين المختلفين متقاربان في المخرج .

وفي قوله [4] :

---

[1] شرح ديوان لبيد ، ص٢٠٧ .
[2] المصدر نفسه ، ص ١٦٩ .
[3] المصدر نفسه ، ص١٦٠ .
[4] شرح ديوان لبيد ، ص٢١٣ .

فَقُومَـــا فَقُـــولا بِالّـــذِي قَـــدْ عَلِمْتُمَـــا وَلا تَخْمُشَـــا وَجْهًـــا وَلا تَحْلِقَـــا الشّـــعَرْ

فبين " فقوما فقولا " جناس مضارع ؛ لأن الحرفين المختلفين متقاربان في المخرج ، مما نتج عنه موسيقى داخلية .

كما استخدم جناس الاشتقاق ، في قوله [1] :

يـــا عـــين هـــلاّ بكيْـــتِ أرْبَـــدَ إذ قُمْنَـــا وقَـــامَ الخصـــومُ فـــي كَبَـــدِ.

وفي قوله [2] :

غـــداةَ غـــدوا منهـــا وآزر ســـريهمْ مواكـــبُ تحـــدى بـــالغبيط وجامـــلُ

وقوله[3] :

طوتْـــهُ المَنَايَـــا فـــوقَ جـــرداءَ شـــطبة تَـــدِفُّ دَفيـــفَ الـــرّائح المُتَمَطِّـــرِ

يظهر الجناس في الأبيات السابقة بين " قمنا وقام " وبين " غداة وغدوا " وبين " تدف دفيف " ، وهو جناس اشتقاق جاء من مماثلة كل كلمة لأختها فأضفى ذلك لوناً من الحسن ، والإيقاع الصوتي الذي جاء من أصوات الحروف المماثلة وتجاورهما يزيد من الإحساس بالتوازن الإيقاعي والإحساس بالخفة .

وفي قوله [4] :

يَـــدْعَرُ البَـــرْكَ فَقَـــدْ أفْزَعَـــهُ نـــاهضٌ يَـــنهَضُ نَهـــضَ المُختَـــزَلْ

حيث جانس بين اسم الفاعل (ناهض) والفعل المضارع (ينهض) وبالصفة المشبهة باسم الفاعل (نهض) ومجيء الجناس بكلمات متجاورة له قيمة صوتية وهي التوازن الذي يحفظ للأسلوب قوته وتماسكه .

وفي قوله [1] :

---

[1] المصدر نفسه ، ص ١٦٠ .
[2] المصدر نفسه ، ص ٢٦١ .
[3] المصدر نفسه ، ص ٤٩ .
[4] المصدر نفسه ، ص ١٩٨ .

لَزَجَــرْتُ قَلْبًــا لا يَرِيــعُ لزَاجِــرٍ إنّ الْغَــوِيّ إذَا نُهَــا لَــمْ يُعْتِــبِ

جانس بين " لزجرت وزاجر "

وفي قوله [٢] :

مَــنْ هَــداهُ سُــبُلَ الخَيــرِ اهْتَــدَى نــاعِمَ البَــالِ ومَــنْ شــاءَ أضَــلّ

جانس بين " هداه واهتدى "

الطباق :

ويسمى المطابقة ، والتضاد أيضاً ، وهو الجمع بين المتضادين ، أي معنيين في الجملة [٣] . وللطباق وظيفته المحمودة في تعزيز الجانب المعنوي والجانب الإيقاعي وهذا الإيقاع من أنماط الموسيقى الداخلية الذهنية التي تثير في المتلقي إحساسه بتضاد الوجود الإنساني في ذاته .

وقد استخدم لبيد الطباق لكي يؤكد على الفكرة التي يريدها ، مثل قوله [٤] :

وفــيمنْ ســواهُمْ مِــنْ مُلــوكٍ وسُــوقة دعــائمُ عــرشٍ خانَــهُ الــدهرُ فــانْقَعَر

حيث أكد لبيد إحاطة الموت بالخلق أجمعين ، وعدم استثنائه أحداً من الناس عظيماً كان أو حقيراً ، طابق بين (ملوك) و (سوقة) ، مما أضفى على البيت إيقاعاً موسيقياً داخلياً .

وكذلك قوله [١] :

---

[١] شرح ديوان لبيد ، ص ١٥٦ .
[٢] المصدر نفسه ، ص ١٧٤ .
[٣] انظر : الإيضاح ، ٦/٦ .
[٤] شرح ديوان لبيد ، ص ٢١٣ .

كُــلّ بَنِــي حُــرّةٍ مَصِــيرُهُمْ قِــلّ وَإِنْ أَكْثَــرَتْ مِــنْ الْعَــدَدِ

نجد الطباق بين (قل) و (أكثر) ، ولا شك أن الطباق هنا يأتي محققاً المعنى الذي يريده لبيد وهو أن مصير الناس إلى القلة ، مما أحدث إيقاعاً موسيقياً داخل البيت يتمثل في حركة القلة والكثرة .

ويقول [٢] :

فَبَــاتَ وَأَسْــرَى الْقَــوْمُ آخِــرَ لَــيْلِهِمْ وَمَــا كَــانَ وَقافًــا بِغَيْــرِ مُعَصّــرِ

يظهر الطباق في قوله : (بات وأسرى) ومجيء الكلمتين المتضادتين متجاورتين يؤدي إلى تقوية الإيقاع الداخلي وإضفاء لون من الحسن على البيت .

المقابلة :

وهي أن يورد الأديب في كلامه معنيين متوافقين أو أكثر ، ثم يأتي بما يقابل ذلك على الترتيب [٣] . كما في قول لبيد عندما رثى أهله وعشيرته [٤]:

ذهــبَ الــذينَ يعــاشُ فــي أكنــافهمْ وبَقيــتُ فــي خَلْــفٍ كجِلــدِ الأجــرَبِ

حيث قارن لبيد بين من ماتوا من أهله وعشيرته ومن بقي ، فتنتهي المقارنة لصالح الذاهبين .

ويقارن في المقابلة التالية بين حالتي أخيه تجاه أعدائه وحالته تجاه أقربائه في قوله [١] :

---

[١] شرح ديوان لبيد ، ص ١٦٠ .
[٢] المصدر نفسه ، ص ٤٩ .
[٣] انظر : الإيضاح ، ١٦/٦ .
[٤] شرح ديوان لبيد ، ص ١٥٣ .

مُمْقِـــرٌ مُـــرٌ علـــى أعدائـــه وعلـــى الأدْنَـــينَ حُلْـــوٌ كالعســـل

وفي المقابلة التالية يقارن بين أعمال الناس ما بين بان يحافظ على بنائه ويحرص على تعليته ، وآخر يعمد إلى ما قد بناه فيهدمه ويبوء بالخسران ، في قوله[٢] :

ومَـــا النـــاسُ إلاَّ عـــاملانِ: فَعامِـــلٌ يتبِّـــرُ مـــا يبنـــي ، وآخـــرُ رافِـــعُ

فَمِـــنْهُمْ سَـــعيدٌ آخِـــذٌ لنَصِـــيبِهِ وَمِـــنْهُمْ شَـــقيٌّ بالمَعيشَـــةِ قـــانِعُ

وفي المقابلتين التاليتين ، ينسب كل حال لأبن آدم من ريث وعجل وهداية وضلال إلى إرادة الله عز وجل في قوله [٣] :

إنَّ تَقْـــوَى رَبِّنَـــا خَيـــرُ نَفَـــلْ وبِـــإذْنِ اللّـــهِ رَيْثـــي وعَجَـــلْ

مَـــنْ هَـــداهُ سُـــبُلَ الخَيـــرِ اهْتَـــدَى نـــاعِمَ البَـــالِ ومَـــنْ شَـــاءَ أضَـــلّ

ومن خلال المقابلات السابقة ، نلاحظ أن المقابلة لون عن ألوان الموسيقى الداخلية ، لكنه هادئ يكاد يخلو من الرنين ويضفي على القصيدة مزيداً من الموسيقى الغنائية [٤] .

المماثلة :

وهي عند البلاغيين " أن تتماثل الألفاظ أو بعضها في الوزن " [٥] ، وتعد لوناً من ألوان الموسيقى الداخلية ؛ لأن تردد ألفاظ ذات بنى صرفية متماثلة ، أو متشابهة أو

---

[١] شرح ديوان لبيد ، ص ١٩٧ .
[٢] المصدر نفسه ، ص ١٧٠ .
[٣] المصدر نفسه ، ص ١٧٤ .
[٤] الرثاء في عصر النبوة والخلافة الراشدة ، أحمد علي الشرفي ، رسالة ماجستير ، جامعة أم القرى ، كلية اللغة العربية ، ١٤١٤هـ -١٩٩٤م ، ص ٣٦١ " بتصرف " .
[٥] شرح الكافية البديعية ، ص ١٩٥

متقاربة في إطار البيت الواحد أو الأبيات المتتالية أو المتقاربة ينتج إيقاعات وأنغاماً داخلية ، كما في قول بيد [1] :

وَأهلكـــنَ يَومـــاً رَبَّ كِنـــدَةَ وَابنَـــهُ وَرُبَّ مَعَـــدٍّ بَـــينَ خَبـــتٍ وَعَرعَـــرِ

وَأعوَصـــنَ بِالـــدومِيِّ مِـــن رَأسِ حِصـــنِهِ وَأنـــزَلنَ بِالأســـبَابِ رَبَّ المُشَـــقَّرِ

وَأخلَفـــنَ فَسّـــاً لَيتَنِـــي وَلَـــوَ أنَّنِـــي وَأعيـــا عَلـــى لُقمَـــانَ حُكـــمُ التَّـــدَبُّرِ

حيث استهل لبيد البيت الأول بلفظه (أهلكن) ، واستهل البيت الثانـــي بلفظـــة (أعوصن) ، واستهل البيت الثالث بلفظه (أخلفن) ، فضلاً عن مجيء لفظة (أنزلن) في حشو البيت الثاني ، ومن الواضح أن المماثلة في البنية الصرفية بين الألفاظ السابقة ، ووقوع ذلك في مستهل الأبيات قد حقق إيقاعاً موسيقياً داخلياً عبر من خلاله عن قوة الموت الذي أباد الملوك والحكمـــاء .

ويحقق لبيد شيئاً من الموسيقى الداخلية ، حين يماثل بين (الأنعام) و(والأيتام) في قوله [2] :

إذا مـــا تَعـــزُبُ الأنْعـــام رَاحَـــت علـــى الأيتـــامِ والكَـــلِّ العِيـــام

فبالإضافة إلى اتفاق اللفظتين في بنيتهما الصرفية ، اتحدت نهايتها في صوت الميم ، مما يحدث إيقاعاً مؤثراً عند القراءة .

وفي قولـــــه [3] :

عَـــوْفَ القَـــوَارِسِ وَالمَجَـــا لِـــسِ والصّـــوَاهِلِ والـــدّوابلْ

---

[1] شرح ديوان لبيد ، ٥٥-٥٦ .
[2] المصدر نفسه ، ص ٢٠٤ .
[3] المصدر نفسه ، ص ٢٣١ .

فقد اشتمل البيت على أربعة ألفاظ متماثلة ومتتالية (الفوارس ، المجالس الصواهل ، الذوابل) ، فضلاً عن اتفاق اللفظتين الأولى والثانية في الصوت الأخير (السين) ، واتفاق اللفظتين الثالثة والرابعة في الصوت الأخير (اللام) مما يحدث عند قراءته وقعاً موسيقياً داخلياً معبراً عن أحاسيس الألم عند لبيد عند ما فقد عمه عوف .

المدود :

وقد تتحقق الموسيقى الداخلية عن طريق استخدام الألفاظ الممدودة التي يعبر لبيد من خلالها عن عمق الالتياع ، مثل قوله في رثاء أخيه أربد[1] :

لـــــنْ تفنيَـــــا خيـــــراتِ أرْ ... بـــــدَ فابكِيَـــــا حتّـــــى يعـــــودَا
قُـــــولا هُـــــوَ البَطَـــــلُ المُحَـــــا ... مـــــي حِـــــينَ يُكْسَـــــوْنَ الحَديـــــدَا
وَيَصُـــــــدَّ عَنَّـــــــا الظّالِميـــــــ ... ـــــنَ إذا لَقِينَـــــا القَـــــوْمَ صِـــــيدَا
فاعتاقـــــــهُ ريْـــــــبُ البريّـــــــ ... ـــــــةِ إذْ رَأى أنْ لا خُلُـــــــودَا
فَثَـــــوَى ولَـــــم يُوجَـــــعْ ، ولَـــــمْ ... يُوصَـــــبْ ، وكـــــانَ هُـــــوَ الفَقِيـــــدا

حيث نجد حروف المد التي تناسب المقام في الرثاء ، فالياء المتبوعة بألف مد في (تفنيا) و (ابكيا) والواو في (يعودا) وألف الإطلاق بعد الدال كلها معينة على مد الصوت في البكاء ، ويقال مثل ذلك في (قولا) و (الحديـــدا) و (خلـــــودا) و (الفقيدا) ، وقد سبق حرف المد في أغلب الكلمات التي جاء فيها حرف شديد مجهور فأدى ذلك إلى تضخيم الصوت عند نطق الكلمة ثم إطلاقه مدوياً بحرف مد لكي يمتد ويحدث أثره الصوتي والنفسي ، مما يحسس المستمع من خلال هذا الإيقاع الصوتي

[1] شرح ديوان لبيد ، ص ١٦٣ .

بزفرات لبيد ، وآهاته الحزينة التي يقذفها إلى الخارج من خلال حرف المد ؛ لأن "اتساع الصوت فيه أكثر" [1] .

كما نجد في قوله [2] :

فَقُومَـــا فَقُـــولا بِالّـــذِي قَـــدْ عَلِمْتُمَـــا وَلا تَخْمُشَـــا وَجْهًـــا وَلا تَحْلِقَـــا الشّـــعَرْ

حيث نجد تكرار حرف المد (الألف) في البيت السابق سبع مرات ، فضلاً عن مجيء كلمتين متجاورتين منتهيتا بحرف مد (فقوما فقولا) في أول البيت مما يحدث إيقاعاً موسيقياً داخلياً من أول البيت إلى آخره .

التكرار :

التكرار وسيلة موسيقية داخلية ، فتكرار حرف في بيت أو أبيات من القصيدة يزيد موسيقاه ، وذلك لأن الأصوات التي تتكرر في حشو البيت مضافة إلى ما يتكرر في القافية ، تجعل البيت أشبه بفاصلة موسيقية ، كما هو في قول لبيد [3] :

فَـــلا تبعـــدنْ إنّ المَنِيَـــة موعـــدٌ عَلَيْـــكَ فَـــدَانٍ للطُّلُـــوع وطـــالِعُ

فقد أضفى تكرار حرف العين (تبعدن – موعد – عليك – الطلوع – طالع) على البيت قدراً من العذوبة والسلاسة بما يتلاءم مع التوازن النفسي والتفكير المتوازن مع حقيقة الموت .

---

[1] مخارج الحروف وصفاتها ، لأبي الأصبغ السماتي الإشبيلي المعروف بابن الطحان . تحقيق : د. محمد يعقوب تركساني ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٠٤هـ ، ١٩٨٤م ، ص ٩٤ .

[2] شرح ديوان لبيد ، ص ٢١٣ .

[3] المصدر نفسه ، ص ١٧١ .

تداخل الموسيقى الداخلية وتعددها :

حيث تصير القصيدة أو المقطوعة معزوفة موسيقية تشارك فيها مجموعة من الآلات ، وتمد كل آلة بنغم خاص[1] ، وهذا ما يتضح في قول لبيد [2] :

أنْبئْـــتُ أنَّ أبَـــا حَنِيـــ ـــفٍ لا منِـــي فـــي اللائمينـــا
واقْعَـــلْ بمالِـــكَ مـــا بَـــدا لَـــكَ ، إنْ مُعَانـــاً أو مُعِينَـــا
وَصَـــفائحاً صُـــمّاً رَوَا سَـــيهَا يُسَـــدِّدْنَ العُضُـــونَا
لِيَقِـــينَ وَجْـــهَ المـــرءِ سَـــفْ سَـــافَ التـــرابِ ولَـــنْ يقينـــا
ثـــمّ اعتبـــرْ بِثنـــاءِ رهـــ طِـــكَ ، إذْ ثَـــوَى جـــدثاً جنينـــا

فالأبيات السابقة حافلة بالموسيقى الداخلية وهي :

أولهما : تكرار حرف النون خمس مرات في البيت الأول .

ثانيهما : جانس بين (لامني) و (اللائمينا) في البيت الأول .

ثالثهما : شابه بين (بمالك) و (ما بدالك) وجانس بين (معانا) و (معينا) في البيت الثاني .

رابعها : كرر السينات والصادات في البيت الثالث .

خامسها : كرر السين والفاء في (سفساف) في البيت الرابع وأيضاً كرر كلمة (يقين) مرتين .

سادسها : كرر الثاء في البيت الخامس ، وقارب بين جيمي (جدث) (جنين) وأظهر التنوين في (جدثاً) والنونين في (جنين)[3] .

---

[1] شعر رثاء النفس حتى نهاية العصر العباسي ، ص ٤٨٣ .
[2] شرح ديوان لبيد ، ص ٣٢٤ .
[3] انظر : لبيد بن ربيعة العامري ، ص ٤٨٦ .